رحلة الوزير في افتكاك الأسير

1690 - 1691

محمد الغساني الأندلسي

حررها وقدم لها: نوري الجراح

ارتياد الآفاق

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

دار السويدي للنشر والتوزيع

رحلة الوزير
في افتكاك الأسير

رحلة الوزير في افتكاك الأسير (١٦٩٠ ـ ١٦٩١) / أدب رحلات
محمّد الغسّاني الأندلسيّ / مؤلّف ، [حرّرها وقدّم لها : نوري الجرّاح]
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢
حقوق الطبع محفوظة

دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب . ٤٤٤٨٠
الإمارات العربيّة المتّحدة ،
هاتف : ٦٣٢٢٠٧٩ ، فاكس ٦٣١٢٨٦٦

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصايغ ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب ٥٤٦٠-١١ ، العنوان البرقي موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E-mail : mkayyali@nets.com.jo
التنفيذ والإشراف الفنّي
سيكو ®
الخطوط وتصميم الغلاف :
منير الشعراني / مصر
الصفّ الضوئي :
القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + مطبعة الجامعة الأردنيّة / عمّان
التنفيذ الطباعيّ :
سيكو للطباعة والنشر / بيروت ، لبنان

All rights reserved . No part of this book may be reproduced , stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publishers .

جميع الحقوق محفوظة . لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي مسبق من الناشرين .

رحلة الوزير في افتكاك الأسير

1690 - 1691

محمد الغساني الأندلسي

حررها وقدمها: نوري الجراح

ارتياد الآفاق

ارتياد الآفاق

يشرف على هذه السلسلة:

نوري الجراح

« . . . ومدينة أطريرة هذه هي مدينة بين الصغر والكبر ، وجل أهلها من بقايا الأندلس ، فوصلناها عشية اليوم ، فوجدنا جميع أهلها وقد برزوا لنا للاستسقاء ، وهم ، على عدد نسماتهم ، قد رفع كل واحد منهم صليباً على كتفه ، فلقونا على تلك الحالة حيث لم يمكنهم التخلف ، فنزلنا بالمدينة داراً كبيرة مشرفة على جلٍّ المدينة . وبعد أن طرحوا صلبانهم وردوا ، أيضاً ، للسلام علينا ، وهم في البشاشة والفرح بمكان ، وأهلها ذواتٌ عظامٌ ، والغالب عليهم الحسن ، رجالاً ونساءً ، ولقد شاهدنا ابنتين : بنت حاكم البلد ، والأخرى بنت القاضي ، في غاية الحسن والجمال والكمال ، لم ترَ عيني ، في جميع ما رأيت من بلاد إسبانيا على سعتها ، أجمل منهما ، وهما من بنات الأندلس ، ومن دم ملك غرناطة الأخير ، الذي كان غلب عليها ، وهو الملك المعروف عندهم بالري الشيكو ، ومعناه السلطان الصغير . .» .

«من نص الرحلة ص 39»

« . . . ولقد اتهموا أيام مقامنا بمدريد أحد خواص الملك ووزرائه باليهودية فقبضوا عليه وسجنوه بطليطلة وهو باقٍ إلى الآن . وكذلك ، أيضاً ، اتهموا رجلاً آخر ونحن بمدريد ، كان قيماً للطاغية على محصول من محصولاته ، فوثبوا عليه وعلى زوجته وأولاده وجميع عياله وحشمه ، وسجنوا جميعهم ، وأخذوا ماله وجميع ما احتوت عليه داره من أمتعته ، وهم الآن في السجن ، وكان له مال كثير .

وإن هو أقر على نفسه باليهودية ، أو ثبتت عليه بإشهاد ، ولم يرجع عن اعتقاده يحرقونه بالنار من غير قبول شفاعة فيه .

والمتهمون باليهودية من هذه الأجناس كثيرون ، وأكثرهم من جنس البرتغال ، وجلهم كانوا من اليهود سكان هذه البلاد على عهد الأندلس ، بعهدهم وذمتهم ، فانحازوا عند التغلب على المسلمين إلى ناحية بلاد البرتغال ، واختفوا بالنصرانية هنالك» .

«من نص الرحلة ص 80»

استهلال

تَهْدُفُ هذه السِّلسلةُ بَعْثَ واحد من أعرق ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية ، من خلال تقديم كلاسيكيَّاتٍ أدبِ الرِّحلةِ ، إلى جانب الكشف عن نصوص مجهولة لكتاب ورحَّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميَّاتهم وانطباعاتهم ، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه ، قريبةً وبعيدةً ، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة ، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنَّاس في الغرب ، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملؤوا دروبَ الشَّرقِ ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً ، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم ، ومن منطلق المستأثر بالأشياء ، والمتهيِّئ لترويج صور عن «شرق ألف ليلة وليلة» تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم ، وتُمهِّدُ الرأي العام ، تالياً ، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق . ولعل حملة نابليون على مصر ، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية ، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك . فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي

لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري .

على أن الظَّاهرة الغربية في قراءة الآخر وتأويله ، كانت دافعاً ومحرضاً بالنسبة إلى النخب العربية المثقفة التي وجدت نفسها في مواجهة صور غربيَّة لمجتمعاتها جديدة عليها ، وهو ما استفز فيها العصب الحضاري ، لتجد نفسها تملك ، بدورها ، الدوافعَ والأسبابَ لتشدّ الرحال نحو الآخر ، بحثاً واستكشافاً ، وتعود ومعها ما تنقله وتعرضه وتقوله في حضارته ونمط عيشه وأوضاعه ، ضاربة بذلك الأمثال للناس ، ولينبعث في المجتمعات العربية ، وللمرة الأولى ، صراع فكري حاد تُسْتَقْطَبُ إليه القوى الحيَّةُ في المجتمع بين مؤيد للغرب موالٍ له ومتحمِّسٍ لأفكاره وصياغاته ، وبين معادٍ للغرب ، رافض له ، ومستعدٍّ لمقاتلته .

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين ، عَبْرَ رسمِ صور دنيا لهم ، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ ، فإن أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم ، كما سيتَّضحُ من خلال نصوص هذه السلسة ، ركّز ، أساساً ، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة ، وتطوّر العمران ، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق . لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات ، مدفوعين ، غالباً ، بشغف البحث عن الجديد ، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط ، من باب الفضول المعرفي ، وإنما ، أساساً ، من بابِ طَلَبِ العلم ، واستلهام التجارب ، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث ، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها . هنا ، على هذا المنقلب ، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته ، وهي نظرة المتطلِّع إلى المدنيَّة وحداثتها من

موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة ، المتحسِّر على ماضيه التليد ، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية .

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم ، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة ، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة ، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار . فأدب الرحلة ، على هذا الصعيد ، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً ، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار ، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمُدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى ، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها .

أخيراً ، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسلة التي قد تبلغُ المائة كتابٍ من شأنها أن تؤسس ، وللمرة الأولى ، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاق ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالُمتعةِ ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربع جهات الأرض وفي قارّاته الخمس ، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالَمه ، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء ، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية .

محمد أحمد خليفة السويدي

المقدمة

I

تتمتـــع هذه الرحلة بقيـمـة استثنائية بين مثيلاتها ، فهي تأتي بعد خمسين سنة فقط من رحلة أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي [1] لكنها أهم من سابقتها لما جاء فيها من معلومات وصور وانطباعات عن الحياة الإسبانية في القرن السابع عشر ، تفوق في أهميتها ما سطّره كثير من الأوروبيين في هذا الميدان . [2] وحسب المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي فإن «ما يمتاز به العرض من حيوية وقوة ملاحظة ليقف كفؤاً لأحسن أوصاف الرحلات الأوروبية لذلك العهد ، فهو يقدم لنا لوحة دقيقة للحياة الإسبانية ، وعلى وجه خاص ، حياة البلاط الإسباني في عهد

---

(1) حققها محمد رزوق ونشرتها كلية الآداب والعلوم الإنسانية في جامعة الدار البيضاء ، 1987 ، وعنوانها «ناصر الدين على القوم الكافرين» ، وهي مختصر لرحلة الحجري المسماة «رحلة الشهاب إلى بلد الأحباب» .

(2) في معرض حديثه حول موضوعات الرحلة ينبه كراتشكوفسكي إلى أن الغساني قدم لنا تحليلا لشخص الملك كارلوس الثاني آخر سلالة الهابسبرج على العرش الأسباني (1665=1700) معتمداً فيه ذلك على انطباعاته الشخصية ؛ ويجب الاعتراف بأن هذا التحليل لا يخلو من بعض الزيادة على ما سرده الرحالة الأوروبيون في هذا الصدد .

كارلوس الثاني»[3]، فضلاً عن ثرائها كنص بالغ الموضوعية في قراءة الآخـــر[4] ناهيك بقيمتها الرمزية لكونها تمثل يوميات وزير مغربي أوفده السلطان مولاي اسماعيل 1672-1727 في مهمة دبلوماسية لدى البلاط الإسباني، وفي جعبته مطلبان: تحرير مكتبة من المخطوطات العربية تقدر بخمسة آلاف مخطوط،[5] وإطلاق سراح خمسمائة أسير مسلم في فترة شهدت حروباً لم تنقطع بين المغاربة والإسبان،[6] واضطهادات للأندلسيين المتنصرين (المورسكيين) دامت أكثر من قرن ونصف القرن بعد سقوط غرناطة، آخر ممالك المسلمين في الأندلس.[7]

من هنا فإن نص هذه الرحلة يعتبر، بحق، وثيقة نادرة عن بعض موضوعات الصراع بين العرب والغرب، وعن الآخر وعالمه، يبتعد عن كل تلفيق أو تحامل أو

---

(3) أنظر أغناطيوس كراتشكوفسكي في «تاريخ الأدب الجغرافي العربي» ص 737.

(4) المصدر السابق.

(5) تعود ملكية هذه المخطوطات الموجودة اليوم في مكتبة كنيسة الإسكوريال إلى عهد سابق على عهد مولاي اسماعيل فهي جزء من مكتبة مولاي الشريف زيدان (1012- 1038هـ=1603-1628) التي نهبها عليها قراصنة إسبان خلال رحلة السلطان المغربي من آسفي إلى أغادير. وقد شكلت هذه المخطوطات - حسب العديد من المراجع - النواة الرئيسية لمكتبة الإسكوريال.

(6) يعلل كراتشكوفسكي عدم ورود أي معلومات شافية عن قضية الأسرى المغاربة في متن الرحلة، فضلاً عن عودة الوزير الغساني إلى مراكش من دون أن تكون قضيتهم قد حلّت، وكذلك الحال بالنسبة إلى موضوع المخطوطات المسروقة، بأن هدفي الرحلة المشار إليهما في مقدمة المؤلف، لم يكونا إلا ذراً للرماد في العيون، وأن الهدف الحقيقي كان على أغلب الظن محاولة عقد معاهدة صلح بين إسبانيا والمغرب. وقد سبق كراتشكوفسكي إلى هذا الافتراض عدد من الباحثين الأوروبيين.

(7) شكلت قضية الأسرى المغاربة والأندلسيين على مدار أكثر من قرنين من الحملات والحملات العسكرية المضادة بين إسبانيا والمغرب، محور صراع واستقطاب بين القصرين المغربي والإسباني، من جهة، وبين الباب العالي والحكومات الأوروبية. وقد شغلت هذه القضية جمهور الناس والسياسيين والمفكرين المسلمين على حد سواء، وكانت هدفاً لأكثر من سفارة مغربية. وفي هذا السياق تأتي رحلات الغساني والمكناسي والغزال.

تزوير ، ويتميّز صاحبه بأمانة كبيرة ، وروح متسامحة ، في فترة عصيبة من الصراع الإسلامي مع الغرب سادت خلالها أوروبا روح التعصب الأعمى ، الذي لم يسلم من شروره حتى المسيحيون أنفسهم في محاكم التفتيش Inquisition .

II
الرحالة

وقبل أن نرسم لوحة أوسع للرحلة ومسارها ، والظروف والخلفيات التي تمت فيها ، لابد من الإشارة إلى أن رحالتنا الوزير محمد بن عبد الوهاب الأندلسي الفاسي المتُوفي عام 1119هـ 7071 م كان من كبار مثقفي عصره ، ترجم له القادري في نشر المثاني بقوله : «هو الكاتب الأرفع أبو عبد الله محمد المدعو حمو بن عبد الوهاب الوزير الغساني الأندلسي الفاسي . كتب للسلطان مولانا إسماعيل ، وكان نجيباً في ذلك ، ذكر أنه كان كل ما يلقى من الأوامر يكتبها ويستوفيها ، ولا يغرب عليه شيء منها مع كثرتها . وقد أرسله مولانا السلطان إلى بلاد الروم بالأندلس ، بقصد أن يستخرج ما بأيديهم من أسرى المسلمين ، ويستخرج ما بقي من الكتب بالمشاهد التي كانت للمسلمين ، وألّف في رحلته تلك كتاباً أسماه : رحلة الوزير في افتكاك الأسير» .

وترجم له سيدي محمد بن جعفر الكتاني في «سلوة الأنفاس» بمثل ما ترجم له القادري وزاد عليه ، فوصفه بـ«الفقيه المتفنّن الدرّاك المتقن» . ويضيف عنه : «كانت له سرعة في نسخ الكتب لا تُعرَف لغيره» . وحسب المرجع نفسه فقد تُوفي الغساني إثر وقوعه في المرض(8) بدارهم الكائنة بزنقة الرطل من فاس القرويين عام تسعة عشر ومائة وألف» .

أما أغناطيوس كراتشكوفسكي ، صاحب كتاب « تاريخ الأدب الجغرافي العربي» ، فقد ترجم له بقوله : «وأبو عبد الله محمد الوزير الغساني من أسرة أصلها من الأندلس ، لكنها استقرت بمراكش ، وكان يعمل كاتباً ببلاط الشرفاء العلويين بمكناس

---

(8) يرجح أن يكون الغساني قد توفي بصورة داهمة إثر وقوعه في المرض بفعل انتشار وباء قاتل .

في عهد مولاي اسماعيل الطويل الأمد (1083هـ -1139هـ =1673- 1727) ؛ وقد اكتسب الشهرة كخبير بأسماء الكتب (bibliograph) وخطاط وناثر فني .» وحول سفارته إلى إسبانيا يضيف المستشرق الروسي : «وفي عام 1689 عندما استرجع الشريف مدينة العرائش من الأسبان ، ووقعت حاميتهم في يده ، فكَّر في أن يعرض على ملك إسبانيا استبدال الحامية بخمسمائة أسير مراكشي ممن كانوا في الأسر بإسبانيا ، وخمسة آلاف كتاب من الاسكوريال ، ووقع اختياره على الوزير الغساني ليضطلع بهذه المهمة .» .

ويستفاد من المراجع المختلفة التي تطرقت إلى الغساني ورحلته أن الرجل تمتع بمكانة رفيعة المستوى في عصره ، وأن سلطان المغرب القوي مولاي اسماعيل محضه ثقته[9] .

III

الرحلات السفارية

اصطلح الباحثون المغاربة المعنيون بأدب الرحلة على تسمية الرحلات التي نفذتها شخصيات رسمية إلى أوروبا بـ«الرحلات السفارية» وهو ما ينطبق على رحلة الغساني . وهذا النوع من الرحلات عادة ما تكون (. . .) الغاية من سفر صاحبها(. . .) القيام بسفارة لدى دولة أجنبية وتكون أحيانا من إنشاء السفير نفسه إن كان (. . .) من رجال الأدب والعلم وأحيانا أخرى يقوم بتأليفها أحد الكتاب الذين يرافقون السفير»[10] .

والواقع أن المغرب العربي الذي يعتبر أدباؤه رواداً أساسيين لأدب الرحلة العربي

---

(9) ويذهب كرتشكوفسكي إلى أن الشريف (مولاي اسماعيل) اعتبر رحلة الغساني رحلة موفقة ، إذ نراه يبعث به في العام التالي أي في سنة 1103هـ=1692 كاتماً لأسرار سفارة أخرى وجه بها إلى الأتراك في الجزائر . أنظر الملحق 2 في الكتاب .

(10) انظر «دراسات مغربية» محمد الفاسي ، ص ص 68-81 . منشورات : عيون المقالات – الرباط 1964 .

الكلاسيكي ، وأخرج لنا عدداً من كبار الرحالة العرب المعروفين من ابن بطوطة ، إلى العبدري فابن جبير ، فالتيجاني ، وصولاً إلى الرحالة الذين توجهوا نحو الغرب منذ أواسط القرن السابع عشر ، من أمثال الحجوي ، والغساني والمكناسي والغزال . ويشير د . محمد الفاسي ، الذي حقق عدداً مهماً من نصوص الرحلات ، إلى رحلة يحيى الغزال التي نقل أخبارها ابن دحية السبتي في كتابه «المطرب في أشعار أهل المغرب» بصفتها أقدم رحلة سفارية[11].

واستناداً إلى المرجع نفسه ، فإن هذه الرحلة أقدم من رحلتين مشابهتين لها ، على الأقل ، هما رحلتا ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة التي تمت بطلب من الخليفة العباسي المقتدر ، ورحلة أبي دلف المسعري الينبعي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى أرمينيا عبر بلاد فارس .[12]

IV

مسار الرحلة

انطلقت رحلة الوزير الغساني من المغرب في 19 أكتوبر 1690 وقصد رحالتنا في طريق الذهاب : مرسى جبل طارق ، فسبتة ، وقالص ، وسانتا مرية ، فشريش ، والبريجة ، واطريرة ، مرشينة ، إيشكا ، وادي شينيل من أحواز غرناطة ، قرطبة ، مدينة الكاربي ، مدينة اندوخر ، مدينة لينارس ، إلى دشرة تسمّى طُري كوان ابان ، مانشا ، دار للنزول قرب مدينة شكلانة ، المنبريلية ، مانسنارس ، مدينة مورا ، وادي طاخوا وهو مار بمدينة طليطلة ، قرية بنك ، مدينة خطافي ، وحل في مدينة مدريد عشية يوم

(11) أوفد الغزال – حسب المصدر المشار إليه – من قبل الخليفة الأموي عبد الرحمن بن الحكم إلى ملك المجوس ، أي النورمانديين وذلك حوالي سنة 208هـ (824م) .

(12) للشاعر والرحالة أبو دلف رحلة تحت عنوان «الرسالة الثانية» حققها ونشرها في موسكو : أنس خالدوف وطرس بولغاكوف ، وترجمهـا إلى العربية محمد منير مرسي ونشرها في القاهرة سنة 1970، وهي تتمة لرحلة إلى الصين صاغ نصها، ووردت الإشارة إليها في مقدمة الكتاب ص 3.

السبت السابع من شهر ربيع النبوي عام 8/1102 ديسمبر 1690 ثم توجه إلى بيردي ، البنطة ، المورو ، أرانخوس ، ورجع إلى مدريد .

وفي 20 مايو 1691 سلك طريق العودة إلى المغرب ، فكان خروجه من مدريد ووصوله إلى قرية وشقة ، وفي طُلَيْطُلَة تنقطع الرحلة .

بدأ الغساني نص رحلته بأخبار عن مرسى جبل طارق ، وختم رحلته بأخبار ووقائع عن فتح الأندلس . وبين المدخل والمخرج يمتدّ نص الغساني ويتشعب ، بينما هو يقف على الأحوال والمشاهد من مدينة إلى أخرى من مدن الأندلس ، وصولاً إلى مدريد في قلب الجزيرة الإيبيرية ، وتتعدد طبقات نصه ومستوياته ، وينبني خطابه ، فإذا بنا ، إلى جانب الأديب الناثر وذواقة الشعر والجمال ، بإزاء عالم اجتماع وسياسي عارف بخفايا الأشياء ، ومثقف مطلع ليس على وقائع التاريخ العربي – الإسلامي وحسب ، وإنما الأوروبي أيضاً .

وإلى هذا فإن لغة الغساني التي كتب بها نصه تتمتع بالحيوية ، وهي تبدو سابقة لعصرها ، فليس فيها أي تقعر أو استطراد في غير مكانه ، أو حشو مرذول . فضلاً عن كونها على درجة من السلاسة والبساطة .

V

عن هذه الطبعة

اعتمدت في إخراج هذه الطبعة على النسخة المنشورة في طنجة سنة 1939 ، وهي نسخة حققها ألفرد بن جرجس بن شبلي البستاني[13] . مستنداً إلى ثلاث

(13) باحث وصحافي من لبنان 1910–1969 مولود في دير القمر . عمل في جهاز الدعاية الخارجي التابع للجنرال فرانكو ، حسب مراجع مختلفة . أنظر : مقدمة رحلة أحمد بن المهدي الغزّال الموسومة «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد» تحقيق وتقديم اسماعيل العربي . نشر ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1984 . عاش البستاني بين إسبانيا وتطوان ، وعمل مشرفاً على الإذاعة العربية خلال الاحتلال الإسباني للمدينة المغربية . ، وقد ترقى في المناصب ، فعيّن رئيساً للقسم العربي في معهد الجنرال فرانكو . حقق بعض النفائس العربية منها «نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر» ، و«كلّيات ابن رشد» ، وله أيضاً دراسات في الموسيقى .

مخطوطات ، كلها يعتورها النقص ،[14] وقام بوضع فهارس وجداول للأمكنة والأعلام وشروح للكلمات المغربية العامية ، والكلمات الإسبانية الواردة في متن الرحلة ، لكنه إلى جانب إهماله تصحيح العديد من الأخطاء اللغوية والإملائية ، أو الإشارة إليها ، وتركه لبعض النقص هنا وهناك في متن النص ، وعدم ضبطه لبعض الهوامش في المواضع المناسبة لها ، أعمل هواه فشطب فصلاً من الكتاب ، ونرجح أنه فعل ذلك لكونه رأى فيه شططاً من كاتب مسلم يتطرق إلى موضوعات تتعلق بالمسيحية!

بدورنا ، قمنا بمراجعة النص وتدقيقه لغوياً ، وتزويده بهوامش إضافية تضيء على الرحلة ، والإشارة إلى ما اعتور أجزاء في المتن أصابته بخلل هنا وغموض هناك ، وإعادة تقسيمه إلى ثلاثة أقسام تستجيب للبنية الأصلية للنص القائمة على مدخل يستعرض جغرافية مرسى جبل طارق ووصول المسلمين إلى هذا المرسى ، ومتن هو الرحلة من ساعة انطلاقها وحتى توقّف صاحبها عن استكمال التدوين عند مدينة طليطلة ، لأسباب غير معلومة ، ومخرج يسرد وقائع تاريخية تتعلق بفتح الأندلس . وقمنا بتزويد النص بعناوين فرعية تيسّر على القارىء التعامل معه ، وتسلس له القراءة .

VI

النص والمؤلف

تورّط ألفرد بستاني ببعض التقديرات الخاطئة ، أبرزها : اعتباره الاعتباطي أن لغة الغساني ركيكة وساذجة ، وهو ما لا ينطبق أبداً على النص الذي بين أيدينا[15] . ونحن إذا ما استثنينا تلك المفردات العامية المغربية والأندلسية التي اعتمدها المؤلف في سياق نصه ، فإن لغته عموماً ، تتميز بالاقتصاد ، والدقة . وهي في بعض الحالات لغة أدبية بارعة من حيث إيفائها لغرض السرد والإخبار والتصوير . لقد التزم الغساني - بانضباط تام - بوصف المشاهد ، وعرض المعلومات وسوق الأخبار والوقائع ، من

(14) أنظر مقدمته للرحلة في الملحق الأول من الكتاب .

(15) تناقض ملاحظة البستاني أيضاً مع ما ذهب إليه كراتشكوفسكي في حديثه عن لغة النص .

دون أدنى إقحام لذاته على الموضوع ، ومن دون استطرادات طالما ميزت النصوص المشابهة الموضوعة في زمنه ؛ ومن دون تشعب لا يخدم غرض الكتابة ، وهو : تقديم صورة أمينة لما شاهده ، وما وقع له خلال انتقاله من مكان إلى آخر ، فأتحفنا هذا الرحالة بنص يقرأ في كل وقت .

ومما يحسب للغساني أنه لم يلجأ إلى المراجع التاريخية إلا عند الضرورة ، لكن علمه الغزير وثقافته الرفيعة مكّناه من تقديم عروض وتحليلات موضوعية ومترابطة للعديد من القضايا المتصلة بالتاريخ . ولنا في استعراضه المكثف لتاريخ القارّة الاوروبية في القرنين السادس عشر والسابع عشر مثال جيد .

يقدم الغساني لقارئه مسرداً بالأحداث والوقائع الحربية والسياسية المتصلة بالتاريخ الأوروبي ، وصولا إلى زمن الرحلة ، من شأنه أن يعين قارئه على تكوين خلفيات ضرورية متعددة للمشهد الإسباني الاجتماعي والسياسي في نهايات القرن السابع عشر ، بصفته جزءاً من المشهد الأوربي لعصره وما تميز هذا العصر به من وقائع وأحداث عسكرية وسياسية واقتصادية ودينية (تدخل بينها دسائس البلاطات وصراعات الملوك والأمراء والبابوات ، والحروب الدامية التي وقعت ، على خلفية صراعين كبيرين بين القوى الدولية :

واحد كان مسرحه أوروبا وأقطابه الأساسيون : إسبانيا الكاثوليكية ومعها البابا في روما وحلفاؤهما الألمان والنمساويون من جهة ، ومن جهة ثانية البلاط الفرنسي وتحالفاته (المستنكرة مسيحياً) مع الباب العالي . ومن جهة ثالثة إنكلترا وكنيستها الإنكليكانية بتمايزاتها وخصوصيات بلاطها ومشروعات هذا البلاط التي ستكشف عنها بجلاء أحداث القرن الثامن عشر .

وصراع ثان مسرحه هذه المرة القارة الأميركية التي كان قد مضى على استعمار أوروبا لها نحو قرنين . وقطبا الصراع ، هنا ، الإسبان من جهة ، وبقية المستعمرين الأوروبيين من جهة ثانية ، وبينهم الإنكليز والهولنديون والألمان والبرتغاليون والفرنسيون ، وغيرهم .

الوزير الغساني في هذا السياق يبدو لنا ملماً بأحداث عصره ، ومطلعاً بصورة كبيرة على الواقع الإسباني ، فنراه يتتبع كل صغيرة وكبيرة في بنية المجتمع ، ويشير إلى

الآثار السلبية للنهب الاستعماري في انعكاسها على الحياة الأسبانية نفسها .

لقد أدخلت عائدات الاستعمار في القارة الجديدة على نمط الحياة الإسبانية كثيراً من المتغيرات التي تركت إلى جانب التطور في نمط العيش والإنتاج آثاراً بالغة السلبية في سلوك الناس وعاداتهم ، ومستوى عيشهم ، كما ساهمت في بلورة الطبقات الاجتماعية . في رحلة الغساني نقف على تجليات لمظاهر البذخ والانحلال الاجتماعي والفساد الإداري جنبا إلى جنب مع مظاهر التطور المديني متمثلة في ولادة الصحافة ونظام البريد وشبكة الخدمات المدينية المرتبطة بتطور العمران .

وبطبيعة الحال ، فإن هذه المقدمة لن تكون سطورها كافية للإلمام بطبيعة عمل الغساني في نصه كمشاهد وشاهد ، ولا بملاحظاته القيمة التي يقدمها لنا حول المجتمع والعادات والتقاليد والفنون والرياضات والطقوس السائدة في مختلف البيئات ، ولدى شرائح المجتمع المختلفة ، مع تركيزه الخاص على الطبقة الارستقراطية ، ومحاولته تحليل نظام الكبيرة ، أو الكبراء . والغساني ، في هذا السياق ، يبدو لنا باحثاً من طراز أنثروبولوجي . ولا يبالغ المستشرق الروسي أغناطيوس كراتشكوفسكي عندما يصفه بأنه عالم إثنوغرافي ، فهو يبحث في مسائل وقضايا بالغة التعقيد والتركيب والدقة أيضاً ، عندما يتعلق الأمر بالآخر وثقافته ، فهو يقرأ الآخر في اختلافه ويقر له به ، بعيداً عن كل تشنج وتعصب ، أو تأويل . وهذه خصال سيئة طالما ميزت الخطاب الأوروبي نحو الآخر الشرقي في زمنه وما تزال تميز ، إلى اليوم ، شرائح أساسية من هذا الخطاب(16) .

بخلاف ذلك على العكس منه تبدو نظرة الغساني إلى الأوروبيين بصورة عامة ، وإلى الإسبان على نحو خاص منفتحة ، صادقة في استعدادها لتقبل الاختلاف ، وبالتالي متقدمة على شائع عصرها ، على ضفتي الصراع .

وعلى هامش هذه الموضوعية التي يتحلى بها الغساني ، لا يخلوا الأمر عنده من إدراك للخصوصية الشرقية والإسلامية يقيم لها اعتباراً خاصاً يرفع من مستواها

---

(16) أدرجنا نص كراتشكوفسكي حول الغساني في ملاحق الكتاب لأهميتها في الإضاءة على شخصية الرحالة ورحلته .

ويحفظ لها وزنها النوعي ، في مناطق من خطابه . فهو ، في النهاية ، مثقف مسلم ينتمي إلى مجتمع مراكشي ، ولديه ما يقبله وما يرفضه ، ما يقره على المستوى الاجتماعي والثقافي ، وما يأباه انطلاقا من انتمائه إلى منظومة من الأفكار والأخلاق والعادات والتقاليد .

لكن هذه وتلك من الخصال التي لمثقف من طراز الغساني لا تملكان أن تحجبا الاختلاف ، أو تسقطاه من حسابهما . وعليه ، فإن الغساني يقدم ثقافته من خلال رحلته بصفتها نداً حضارياً قابلاً لمحاورة الاختلاف وقادرا عليه . وعندما يتعلق الأمر بالأندلس وخصوصية موقعه من المسلمين ، فإن تعبيراً كـ : «أعادها الله إلى ديار الإسلام»[17] إنما يدخل في إطار ثقافي محض ، ويتخذ مشروعيته من إرث متكامل يتعلق هذه المرة بـ «الجرح الأندلسي» ، وهو جرح له مشروعيته المتراكبة على تاريخ من الإنجاز الحضاري المكلوم للمسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية ، كانت المكافأة الوحيدة لهم عليه تاريخ من العسف الكاثوليكي الذي تمكن من فصل جسدهم الجماعي عن منجزهم ، وشطبهم من الصورة المتعلقة بالمكان الأندلسي ، في محاولة عنصرية لإقصائهم ، تماماً ، بالمعنى الحضاري . والغساني لا يهمل في هذا السياق ما نال اليهود من عسف وإرهاب على أيدي رجال ديوان التفتيش ، فمع انهيار الحضور العربي في الأندلس جرى البطش باليهود إسوة بالمسلمين .[18]

لكن كل هذا التاريخ المتصل بمسلمي الأندلس (بما له من جذور اجتماعية وتاريخية وسياسية متينة في المغرب) لا يحجب النظرة الموضوعية ، ولا الانضباط العلمي الذي ألزم الغساني به نفسه في متن رحلته ، بينما هو يتجول في حواضر الأندلس وبين ظهرانيّ خصومه الحضاريين في إسبانيا الكاثوليكية سنة 1690 ، أكان مدوّن مشاهدات يومية ، أو محاوراً لكهنتهم وسياسييهم بنديّة وانفتاح عزّ نظيرهما

---

(17) جملة ردّدها الغساني خلال رحلته مرّات من جراء تأثره العاطفي لدى وقوفه على بعض المعالم الإسلامية التي جرى طمسا أو تشويه أجزاء منها في مدن الأندلس .

(18) يذكر الغساني خلال وجوده في مدريد قصة شخصية إسبانية كبيرة مقربة من البلاط ، اتهمت باليهودية من قبل ديوان التفتيش ، ولم يتمكن الملك نفسه من حمايتها

في زمنه ، لاسيما في بلدة أندوخر .

من هنا ، فنحن معه بازاء سياسي واقعي محنك يقوم برحلة دبلوماسية ، يؤديها بكياسة ولطف وقدرة على الإنصات والتحليل المنطقي ، أكثر منا بإزاء شخصية نوستالجية لسائح يقف على «أطلال حضارة واقعة في الأسر» . عند هذا الحدّ يمكننا تخيل الأسباب الكامنة وراء عدم إفصاح الغساني عن الفحوى الحقيقي لرحلته وأهدافها النهائية .

وكما أسلفنا فقد غادر رحالتنا مدريد عائداً إلى مراكش من دون أن تُسفرَ سِفارته عن حل لقضية الأسرى ، أو لمسألة الكتب المنهوبة من مكتبة مولاي زيدان . ولما كان مولاي اسماعيل قد اعتبر رحلة الغساني ناجحة بكل المقاييس ، فلم يبق أمامنا إلا أن نرجح مع آخرين أن مهمة الغساني تضمنت في برنامجها ما هو أكثر إلحاحاً للتداول به بين بلاطي السلطان المغربي في مراكش والملك الإسباني في مدريد .

ولعل في سيرة مولاي اسماعيل ، والوقائع الحربية في مدينة العرائش بين الجيشين المغربي والإسباني قبل قيام الرحلة ، وكان الانتصار فيها حليف السلطان المغربي القوي ، بعض ما يجيب عن السؤال حول الهدف غير المعلن من الرحلة .

نوري الجرّاح

أبو ظبي في أواسط آذار 2002

مسار الرحلة

الانطلاق

19 أكتوبر 1690

1- مرسى جبل طارق

2- سبتة

3- قالص

4- سانتا مرية

5- شريش

6- البريجة

7- اطريرة

8- مرشينة

9- إيشكا

10- وادي شينيل من أحواز غرناطة

11- قرطبة

12- مدينة الكاربي

13- مدينة اندوخر

14- مدينة لينارس
15- إلى دشرة تسمّى طُري كوان ابان
16- مانشا
17- دار للنزول قرب مدينة شكلانة
18- المنبربلية
19- مانسنارس
20- مدينةمورا
21- وادي طاخوا وهو مار بمدينة طليطة
22- قرية بنكص
23- مدينة خطافي
24- مدينة مدريد / عشية يوم السبت السابع من شهر ربيع النبوي عام 1102
25- بيردي
26- البنطة
27- المورو
28- أرانخوس
29- مدريد

العودة

20 مايو 1691

الخروج من مدريد - الرجوع إلى المغرب
1- قرية وشقة
2- طُلَيْطُلة

ديباجة المؤلف

الحمد لله الذي جعل نزهة العقول والأفكار، في التنزه في روضات التواريخ والأخبار، ووسّع صدور الاختيار، لجولان الأقاليم والأقطار، وزيّن قلائد البلدان بجواهر الأمصار، نحمده سبحانه على ما أطلعنا من حكم الأسفار، ما يملأ الدفاتر والأسفار، ونشكره تعالى أن اختص الجوّلان بأسرار البدائع وبدائع الأسرار، ونصلي ونسلم على سيدنا ونبينا ومولانا محمد أشرف من أظلت السماء وأقلت البسيطة، الحائز مديد الشرف وكامله، ووافره وبسيطه، وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار.

أما بعد :

فإنه لما كان سيدنا السلطان الإمام، المظفر الهُمام، ذو الشيم التي أنست مآثر الأوائل والأواخر، والمزايا التي فاضت على الأنام فيضان البحور الزواخر، والهمة التي لا تزال تراقب المعالي، وتصرفه الكليّة لحماية البلاد والعباد، والدين والدنيا، بالبيض الحامي والسمر العوالي، وتحمي بيضة الإسلام، وتحيي سُنَّةَ جده عليه الصلاة والسلام، والماجد الأصيل الغطريف، ظل العدل الوريف، أبو النصر مولانا إسماعيل ابن مولانا الشريف، أدام الله نصره، وأعلى قصره، وأغلى مصره، مغرماً بإحياء السنن، وجارياً في إقامتها على أوضح السنن، وكانت همته مصروفة لفكاك الأسرى، لاستخراجهم بيد من كانوا في يده من النصارى، ليغتنم ثواب فكاك الأسير، ويفوز بما ورد في ذلك عن الرسول البشير. وكنت ممن أمّن الله عليه لخدمة

بابه ، وتفضل عليه بالانحياز لجنابه ، وجّهني أدام الله علاه لبلاد الروم لآتيه بمن هناك من أسرى الإسلام ، وأبحث في الخزائن الأندلسية عما أبقاه المسلمون هنالك من كتب الأحكام ، ليكون لي معه دام مجده كفل من الثواب ، وما هي بأول بركة نالتنا من ذلكم الجناب . فتوجهت مستعيناً بالله تعالى إلى هاتك الأقطار بإذنه الشريف وأمره ، ومستظلاً بظل جلالته وفخره ، ورأيت هنالك من العجب العجاب ، ما يسحر العقول ويُبهر الألباب ، فجمعت بعض ذلك في هذه الرقاع ، لئلا تعدو عليه يد الضياع ، ورسمته مخافة النسيان ، ورجاء أن يستفيد من يطلع عليه من الإخوان ، مستمداً من الله العون والمنة ذو الفضل والكرم والإحسان والجود والمنة .

نص الرحلة

الخبر عن مرسى جبل طارق

وهو الجبل المسمى بجبل الفتح ، إذ كان منه مبدأ فتح العدوة الأندلسية ،[1] لما عبر طارق[2] رحمه الله إليها ، وذلك كان بعد ما وجه موسى بن نصير[3] رحمه الله إلى العدوة سرايا ، بأمر أميره الوليد بن عبد الملك ، وذلك حين كان موسى عاملاً للوليد على إفريقية ، وطارق عامل موسى على طنجة ، وكانت وقعت بين يليان والي ما يلي البحر من العدوة[4] وبين موسى ، مداخل ومراسلة يدعوه فيها إلى العبور

---

(1) العُدوة : المكان المتباعد . وتطلق على الأندلس لكونه يقع بعيداً وراء المضيق . (المحرر) .

(2) هو طارق بابن زياد وإليه تنسب حادثة حرق المراكب في فتح الأندلس ، وتحيط بصورته هالة أسطورية .

(3) هو أبو عبد الله موسى بن نُصير البكري أمير أفريقيا والمغرب والقائد العام لجيوش الفتح في الغرب ، دخل الأندلس فاتحاً ومنظماً سنة 93 رجع إلى دمشق بأمر الوليد بن عبد الملك سنة 95 ، تُوفي بين = 97- 99 .

(4) هو الكندي خوليان حاكم مدينة سبتة عند الفتح العربي ، والشائع أنه هو الذي مهد لدخول العرب إلى إسبانيا ، وسلّم إليهم سبتة انتقاماً من الملك لذريق سنة 91 هـ .

والدخول إلى الجزيرة ، فكتب موسى للوليد يخبره بذلك فقال له : اختبرها بالسرايا ، فاختبرها ببعث طارق المذكور ، فغزا وأصاب مالاً وسبياً ورجع إلى البلاد البربرية ، فلما دخلوا في الإسلام بعد غزو شنيع وسبي ذريع ، تدرج الغزو إلى كفار الأندلس ، وحين رجعت هذه السرية سالمة غانمة ، عمل موسى على إجازة سرية أخرى في العام الذي بعده .

قيل : ولما دعا يليان موسى إلى الأندلس ، ذكروا أن موسى نهض إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك فأعلمه بذلك ، فمنعه وقال له : لا تغرر بالمسلمين . فقال له : يا أمير المؤمنين إنما أرسل عبدي طارقاً مع البربر ، فإن أصابوا فلنا ، وإن أُصيبوا فليس علينا منهم شيء . فأمره بالنهوض إلى ذلك ، وكان قد[5] قام يليان بابنته من قصر الذريق إلى سبتة ، وموسى بإفريقية ، فقدم عليه ووصف له حال الأندلس ، وطيبها ، وقرب مراحلها ، وهوّن عليه رجالَها ، وقرّب حالها . فقال له موسى : أُصدقك في نصيحتك ، إلا أنه ليس في نفسي شيء بسبب الدين .

فأخذ يليان معه الرجال مع طريف[6] وأغار بهم على البلد ، وانصرفوا غانمين سالمين . فاطمأن موسى ، ونظر في إرسال طارق ومعه البربر ، فعبر طارق إليها من ناحية سبتة ، ونزل بالقرب من هذا الجبل في جزيرة صغيرة تُقابل المدينة التي في سفحه ، وهي جزيرة صغيرة بقدر ميل واحد طولاً وعرضاً ، يحدها وادٍ كبير من جبال الرندة وأحوازها ، وهي جبال كثيرة شاهقة ، تقابل من البلاد البربرية جبال الفحص والهبط وغيرها . وباسم هذه الجزيرة الصغيرة تسمى هذه العدوة جزيرة ، وإلا فبلاد العدوة ليست بجزيرة ، لاتصال برها وامتداده إلى البلاد التركية وغيرها من بلاد الكفرة ، مثل فلانضس[7] وبلاد الإيطالية والألمانية . وليس بهذه الجزيرة المذكورة اليوم عمارة ولا بناء . ومرسى جبل طارق هي مرسى كبيرة واسعة الجون ، وعلى بابها حصن منيع مبني من أحسن بناء ، وبه من العُدة والمدافع ما شحنه ، إذ هو موضع

---

(5) وفي مخطوطة 1 : وبعد ذلك قام .

(6) وردت في الأصل . طريق : وفي المخطوطة 2 :طريف وهو الأصح . (المحرر) .

(7) فنلندا . (المحرر) .

مبيت العسس وأهل الحرس ، وهو مطل على المرسى جميعها وقد امتد سور[8] مع سفح الجبل ، مار من الحصن إلى المدينة ، بقدر ميل ، على شفير البحر إلى أن ينتهي إلى المدينة . والمدينة تصل المراكب إليها ، وهي مدينة متوسطة إلى الصغر أقرب وأكثر عمارها الشلظاظ[9] ومن في معناهم ، وليس لها كبير تجارة ولا عمارة ، مثل الحواضر التي تقصد السكنى حيث كانت طرفاً ، وفي مقابلة بر الإسلام ، ومنها تمتد سبتة بأقوات سكناها وعمارها لقرب المسافة ، إذ ليس أقرب منها في جميع بلاد العدوة ، وقدر ما بينها في البحر خمسة عشر ميلاً . وأكثر حرس هذه العدوة وانتباههم هو ساحل جبل الفتح هذا من البلاد البربرية ، إذ ليس لهم تخوف واحتراز إلا منها ، لما تدارسوه في تواريخهم ، وتقرر لديهم ، أنه قط ما عبر أحد إلى العدوة في البحر إلا من الناحية البربرية ، ولم تفتح العدوة أولاً ، ولا عبر إليها ، بعد ذلك ، من عبر ، في أزمنة من عبر إليها من ملوك مغربنا رحمهم الله ، إلا من مقابلة جبل الفتح ، ومقابلة طريف[10] .

وسبب تسمية هذه المدينة بطريف ، هو أنه لما كان موسى بن نصير رحمه الله عاملاً على إفريقية للوليد بن عبد الملك ، وطارق كان عاملاً لموسى في طنجة ، وحين دخل يليان العلج من الجزيرة الخضراء ، كتب موسى بذلك إلى الوليد ، فكتب إليه الوليد أن اختبرها بالسرايا ، ولا تغرر بالمسلمين في بلاد شديدة الأهوال . فكتب إليه موسى يقول إنه ليس بهذه البلاد خليج . فكتب إليه الوليد : اختبرها بالسرايا ، إن كان الأمر كما ذكرت . فجهز موسى رجلاً من البربر مواليه يسمى طارقاً ويكنى أبا زرعة ، في مائة فارس وأربعمائة راجل ، فجاز في أربعة مراكب حتى نزل في ساحل البحر بالأندلس ، في الموضع المعروف اليوم بجزيرة طريف ؛ سميت بذلك لنزوله هناك ، فأغار منها على ما يليها إلى جهة الخضراء ، وأصاب سبياً ومالاً كثيراً ورجع سالماً . والذي يقابل جبل الفتح من بلادنا هو جبل (بليونش) ويعرف بجبل موسى ،

---

(8) وردت في الأصل · صور ، وفي مخطوطة 2 : سور وهو الصحيح . (المحرر) .

(9) لفظة إسبانية معناها : الجند Soldados

(10) في الأصل : طريق . وفي مخطوطة 2 . طريف وهو الأصح (المحرر) .

ويسمى هذا الجبل بليونش باسم مدينة كانت به قديماً ، وقد بقي بها أثر الجدران والحيطان ، وأشجارها باقية إلى الآن تدل على مكانتها ، وهي في غرب سبتة ، ومقدار ما بينها نحو ميلين . وفي غرب بليونش عيون مياه عذبة تُعرَف قديماً بعين الحياة ، زعموا أنها عين الحياة التي شرب منها الخضر عليه السلام ، وبإزاء تلك العيون صخرة يزعم بعض أهل التاريخ أن عند تلك الصخرة نسي فتى موسى الحوت(11) والذي يقابل طريف هو القصر الصغير الذي في حدود بلاد (انجرى) وهو أقرب من غيره في جميع البوغاز(12) لكون مقدار ما بينهما ثمانية أميال ، ومع هذا ، فالعمران من هذه النواحي ليس هو على قدر توقع الكفرة وتخوفهم ، إذ ما بين مدينة جبل الفتح ومدينة طريف هو خلاء لا عمارة به ، وفي ما بينهما مدينة فسيحة متسعة الأرجاء .

(11) «قال أرأيت إذا أوينا إلى الصخرة فإني نسيتُ الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا» . سورة الكهف الآية 62 . (المحرر) .

(12) البوغاز : المضيق . لعلها تركية .

الانطلاق

19 أكتوبر 1690

كان وصولنا إلى هذه المرسى عشية يوم الأربعاء أواسط محرم فاتح اثنين بعد مائة وألف 1102 وهو يوم ركوبنا البحر من قصبة (افراك) المطلة على سبتة أعادها الله دار الإسلام ، فوجدنا بالمرسى مركباً مهيئاً مشحوناً بالإقامة (والشلظاظ) وما يستحقه من الآلات ، وكان وجه بذلك الدوكي[13] القاطن بمدينة سان لوكار بأمر عظيمه ، وهو الذي ينتهي إليه أمر تلك (الكوشطة)[14] كلها ، وهو من أعيان أكابرهم ، إذ لا يتولى عندهم أمر الكوشطة الموالية لبرنا ، إلا من له أصالة في الكبيرة ، ومن له لقب الدوكي أو الكندي[15] لا غير .

وكان هذا المركب ، لما أن وجه به الدوكي المذكور على يد حاكم قالص ، أرسى في سبتة أعادها الله للإسلام .

فلما تحرك الريح الشرقي ، الذي لا يمكن معه بقاؤهم في قرب سبتة ، ولا في

(13) الدوق : لقب يطلق على إقطاعيي أوروبا ، ويمكن أن يكون لقباً شرفياً يخلعه الملك على أحد رعاياه . (المحرر) .

(14) لفظة إسبانية معناها : الشاطئ Costa .

(15) الكوندي .Conde من ألقاب الشرف الإسبانية ، وترد أيضاً في النص : كندي ، ويجمعها كونديس . (المحرر) .

حوزها ، رجعوا به إلى مرسى جبل الفتح ، وقاموا هنالك ينتظرون الريح الذي يمكنهم فيه الرجوع إلى مرسى سبتة لملاقاتنا ، وكان معهم ولد القبطان ، وأعلمونا بانتظارهم لورود المراكب التي في جبل الفتح . قلنا لهم إمّا أن توجهوا إليها ، وإما أن نعبر نحن البوغاز في مراكب صغار لسرعتها في العبور ، وخفّتها ، وشدّة جريها . فأعدوا لنا ثلاثة مراكب صغار ، وهيئوها ، وشحنوها بالشلظاظ والمدافع التي تحميها ، وركبنا فيها وسرنا فيها بحفظ الله ووكالته نصف يوم ، إلى أن دخلنا المرسى المذكورة ، وانتقلنا من المراكب الصغار إلى المركب المعد لنا هنالك ، وتقدمنا إلى مدينة قرب جبل الفتح ، وبتنا بالمركب .

ولما انتصف الليلُ ، هاج علينا البحر ، واشتد هيجانه وتلاطمت أمواجه ، والمركب يتقلب يميناً وشمالاً ، ويتمرغ كما تنمرغ الدابّة ، إلى أن دَخَلَنا الفزع والرعب ، وبقي الحال كذلك إلى أن طلع الفجر ، وأهوال البحر لا تُحصى ولا تحصر ، والشيء يُسمع فيُحْقَرُ حتى يُبْصَر ، فرحم الله القائل :

هو البحر حدِّثْ عنه غيرَ مكذِّبِ
فما تنقضي آياتُه وعجائِبُهْ

فاستأذننا رئيسُ السفينة أن يرجع بنا إلى باب المرسى ، من حيث دخلنا ، إذ هو موضع متنكّب عن الرياح ، والبحر فيه كأنه بركة ماء ، وحيث سكن هائجه ، وركد مائجه ، أرسينا تحت الحصن ، وفي ظل جبل الفتح ، وقمنا هنالك ثمانية أيام ننتظر هبوب الهواء الشرقي ، الذي يمكِننا فيه السفر إلى (قالص) حيث كان قصدنا ، وفيه استعدَّ النصارى للملاقاة ، وجمعوا جموعهم . وفي مدة مقامنا بالمرسى المذكور كان قائد البلد يختلف إلينا ، ويتعاهدنا كل يوم بالفواكه الرطبة واليابسة ، ويعتذر عن تقصيره ، إلى أن استنشق بعض أصحابنا هبوب الريح الشرقي ، نصف ليلة الأربعاء الثامنة من حلولنا المرسى المذكورة . وكان الصاحب المشار إليه عارفاً بأحوال البحر لتعدد سفره فيه ، ورئيس المركب ، إذ ذاك ، مستغرق في نومه ، فنبهناه ، وأعلمناه بهبوب الهواء ، فارتحلنا من ساعتنا ، وخرجنا من موضعنا ذلك . وحين مطلع الفجر قابلنا مدينة طريف ، وهي مدينة متوسطة على شفير البحر في بسيط من الأرض ،

وقد سميت باسم نازلها طريف[16] كما تقدم ، ويقابلها من بلادنا القصر الصغير المتقدم الذكر . ولم نزل نصف ذلك اليوم سائرين إلى وقت حلول صلاة الظهر ، فرأينا ، إذ ذاك ، مدينة قالص ، وهي مدينة كبيرة في جزيرة على البحر ، ولها طريق ممتدة إلى البر . والبحر يدور بها من نحو سبعة أثمانها ، ولها مرسى كبيرة لا تُقَدَّر لسعتها ، وبها من المراكب الكبار[17] والصغار ما لا يحصى .

وحيث كانت مدينة كبيرة يقصدها المسافرون والتجار من كل صوب ، وينثالون عليها من كل ريح ، وترد عليها النصارى من كل دشرة[18] أو مدينة[19] تجاورها أو تقرب إليها قصد البيع والشراء ، والنفقة والخدمة . ويجتمع من المراكب الصغار ، التي تجلب إليها المدد والأقوات ، والفواكه وغير ذلك العدد الذي لا يحصى . فما تطلع الشمس إلا والزوارق تهفو قوادم غربان ، وتعدو بسوالف غزلان ، تخالها في سمائه أهلّة مكشوفة ، وتحسبها فوق مائة جريدة دُهُمٍ مصفوفة ، فسبحان الملك الخلاّق المقدر الأرزاق .

ولما رأى حاكم البلد ذلك اليوم هبوب الريح الذي يقدمنا عليهم ، استعدوا للملاقاة استعداداً كثيراً ، وتأهبوا تأهباً[20] كبيراً ، وجمعوا الشلظاظ والخويلة[21] التي عندهم وعمّروا مدافعهم البحرية والبرية ، وخرجوا إلى البحر ينتظرون ورودنا . ولما قربنا إلى المدينة بمقدار ميلين ، ورد علينا قبطان في مركب للحاكم ، وقد زينه بأنواع الفرش الحرير والديباج ، وقد علق على المركب صنجقاً من صناجق[22] الطاغية ، وصعد إلى السفينة ؛ أدّى سلامَ كبيرهِ واعتذر ، على لسانه بتهيئه للملاقاة . فانحدرنا

---

(16) قد خلط المؤلف بين طارق وطريف .

(17) وفي مخطوطة 2 الكبيرة والصغيرة .

(18) الدشرة والمدشر : بلغة عامة المغرب هي القرية ، وغالباً ما تكون ذات سوق للبيع والشراء . (المحرر) .

(19) وفي مخطوطة 1 . ومدينة .

(20) وفي مخطوطة 2 : تأهيباً .

(21) الخويلة : قد يكون معناها : راكبي الخيول ، الفرسان . (المحرر) .

(22) المقصود سنجق · فارسية وتعني العلم . (المحرر) .

من المركب الكبير إلى الزوارق وقصدنا المدينة ، فوجدنا حاكم المدينة واقفاً على طرف الموج ، وقد برز معه جميع من بالمدينة ، رجالاً ونساءً وصبياناً ، ولم يدع بالمدينة صاحب لهو وطرب إلا وقد أحضره ، ولم يترك بأسوار المدينة ولا بالمراكب الكبار مدفعاً إلا وقد أخرجه . ولقينا الحاكم المذكور أحسن ملاقاة ، وفرح بنا أتم فرح ، ولقينا من بمدينة قالص من الأسرى ، رجالاً ونساءً وصبياناً ، وهم يفرحون ويعلنون بالشهادة ويصلون على النبي صلّى الله عليه وسلم ، ويدعون بالنصر لسيدنا المنصور بالله ، فذكّرناهم ووعدناهم بالخير ، من أن سيدنا نصره الله غير تاركهم ، ما دام فضل الله عليه ، فكان عندهم ذلك اليوم يوم عيد لاستبشارهم بالفرح من الله تعالى ، على يد المولى المنصور بال ، له لا سيما وقد تقرر لديهم أن سيدنا ، نصره الله ، لم يكن له قصد ولا نيّة في جمعه لسائر النصارى الذين في ربقة الأسر ، إلا لأجل فكاك المسلمين من يد العدو الكافر ، دمره الله . فاستبشروا بالبال المصروف إليهم من الملك ، أبقاه الله تعالى وأدام وجوده . ثم دخل بنا الحاكم المذكور المدينة ، وقصد بنا دار كبيرة أعدها لنزولنا ، وقد أحضر أنواع الإقامة على اختلافها ، ولم يزل يتعاهدنا ، هو ومن معه من أعيان البلد ، ذلك اليوم والليل كله إلى الغد . ثم بدأ يستفهمنا عن غرضنا في السفر ، وهل لنا أرب في المقام عنده والاستراحة بعض الأيام؟ فقلنا له لا يمكننا المقام بوضع من المواضع ، ما لم نصل البلاد التي نحن قاصدون إليها ، والطاغية الذي توجهنا إليه . فقال : إن ذلك هو مراد سيدنا وعظيمنا ، وهو مستبشر بقدومكم ومنتظر وصولكم إليه عاجلاً . فاتفقنا على الرحيل من الغد ، وأتانا بكدشين[23] وخرج بنا إلى المدينة فأرانا إياها حومة حومة[24] فإذا هي مدينة كبيرة عامرة ، وأسواقها مشحونة بالتجار وأهل الحرف والبيع والشراء . وإذا المدينة لا سور لها إلا من جهة المرسى ، ومن الجهات الأخرى سورها البحر لقصره ، ولعدم دخول المراكب إليه ، لما فيه من الحجر ، وقِصَرِ البحر . ومن الغد أصبح الحاكم المذكور ومن معه في تهيئة رحيلنا ، وقد برز ، أيضاً ، على العادة ، جميع من بالمدينة من الشلطاظ والخويلة ، وسائر الناس لتشييعنا ،

(23) لفظة إسبانية معناها : العربة Coche .

(24) الحومة . ساحة القتال . وفي العامية المغربية تعني الحي والحارة . (المحرر) .

بعد أن قدم الحاكم الذي بمدينة سانتا مرية[25] وبعض أصحابه ، مخبِّراً بورودنا عليها ، ليعدّوا موضع النزول من صبيحة اليوم الذي خرجنا من قالص . وبينما نحن في تهيئة الرحيل ، إذ دخل علينا قسيس من قسوس النصارى تربى في بلاد القسطنطينية[26] وأخبرنا بالفتح الذي منَّ الله به على جيش المسلمين ، وأن السلطان سليمان ،[27] أمدّه الله تعالى بمعونته ، استخلص مدينة بير الأغراص وعمالتها وما حولها ، وهو معتنٍ بما هُدَّ من حيطانها ، ومشتغل بإصلاح ما خرب من أسوارها ، وقد جعل الله بها من العَمَلَة لإصلاحها وخدمة البنيان اثني عشر ألفاً . واستبشرنا ، إذ ذاك ، بما خوّل الله تعالى من نصر المسلمن . وكان النصارى يرون له بفتحه تلك المدينة واسترجاعها ، قوة ويداً ، ويذكرونه أحسن الذكر . وخرجنا إلى البحر ، فوجدنا المركب الذي انحدرنا من السفينة إليه على حالته الأولى ، فركبناه ، في حفظ الله تعالى ، وقصدنا مدينة سانتا مرية ، في البحر ، وقدر ما بينهما ستة أميال . فما كان إلا أسرع من مرور ساعة زمانية ، وقد أشرفنا على بر المدينة المذكورة ، فوجدنا بها سرية من الخيل تنيف على المائة ، وقد برزت لملاقاتنا ، وأظهروا من الفرح والسرور ما أظهروا . وحين أرسينا على مدينة سانتا مرية ، وجدنا بساحل بحرها خلقاً كثيراً من الرجال والنساء ، وقد برز حاكمها وقاضيها للملاقاة ، ومعهما كدشان لركوبنا . وحين التقينا بهما عملا من الصواب وحسن الملاقاة ما لا ينكر لهما . فدخلنا المدينة وطفنا بها جميع أزقتها وديارها وأسواقها ، وإذا هي مدينة كبيرة واسعة ، رحبة الفناء ، فسيحة الأرجاء ، وأزقتها مفروشة بالحجارة ، وهي من حواضر العدوة ، ومن المقصودين في السبب والتجارة ، ومع هذا فلا سور لها حاجز بين المدينة وبين البحر ، وكذلك ما يلي البر منها ، وبطرفها من جهة البحر دار كبيرة ، وقد سدوا بابها الذي يُدخل إليها منه ، وهي الدار التي نزلها السلطان الشيخ ابن السلطان أحمد الذهبي الداخل إلى

---

(25) وفي مخطوطة 1 : سنتا ماريا

(26) في الأصل : القسنطينطينة ، وفي محطوطة 2 : قسطنطينة . والمقصود القسطنطينية . (المحرر) .

(27) هو السلطان العثماني العشرون وفترة حكمه من 1687- 1691 . كان ضعيفاً ووقعت في عهده فتن في استنبول . (المحرر) .

إسبانيا ، فلا يعمرها أحد ولا يسكنها . إذ عوائد النصارى أن يحترموا الدار التي كان قد نزلها ملك من الملوك ، ويبنوا بابها فلا يسكنها أحد ، وبناء بابها علامة ذلك عليها ، كما فعلوا بمدريد في دار هي اليوم غير معمورة من عهد كرلوص كينطو[28] الذي حارب ملك الفرنسيس ، وتغلب عليه وأسره ، وأتى به إلى تخت ملكه ودار سلطنته مدريد ، وأنزله بالدار المذكورة ، وبقي تحت يده زماناً إلى أن سرحه ، ومن عليه ، فتركوا الدار التي كان بها على حالها ، وأغلقوا بابها بالبناء . فهي معروفة مشهورة .

ولما حللنا دار النزول بمدينة سانتا مرية ورد أهلها وأعيانها للسلام والترحيب ، وفيهم من البشاشة وحسن الملاقاة والبشر ما ليس في غيرهم . ولم يزل الحاكم والقاضي يختلفان إلينا ويترددان ، إلى أن مدَّ الليل رواقَه ، وأرخى في عنق الجون أطواقَه . ومن الغد ، حين أصبحنا ، ورد علينا بعض الأعيان مع الدوكي المتولي أمر هذه الكوشطة[29] القاطن بمدينة سان لوكار ، معتذراً عن حال مشيِّعه بمرض منعه عن القدوم ، فقبلنا اعتذاره ، وخرجنا من المدينة بعد أن برز أهلها أيضاً للتشييع ، وخرج القاضي والحاكم المذكوران وقبطان الخيل مع سريته ، وساروا معنا مسافة ثلاثة أميال ، إلى أن وصلنا حداً معلوماً عندهم ، فاصلاً بين عمالتهم وعمالة مدينة شريش فترجل الأعيان وجميع من برز معنا ، وشيعونا ، بعد أن اعتذروا عن التقصير ، وقالوا : هذا الحد هو فاصل بيننا وبين حاكم البلد الأخرى التي تقابلنا ، ولو أمكننا الزيادة لسرنا معكم اليوم كله إجلالاً وتعظيماً لمرسلكم ، وقصدهم معنى ما قيل : ولفرد عين ألف عين تكرم .

فشيعناهم ورجعوا عنا ، وسرنا مسافة فوصلنا مدينة شريش ، وفيما بين المدينة بلاد متسعة ذات أشجار وأنهار ، وبها من الزياتين والبساتين والكروم وأنواع الغراسة ما لا يحصى .

ومدينة شريش مدينة كبيرة واسعة ، وأثرها أثر الحضارة القديمة . وقد بقي من

---

(28) هو كارلوس الخامس 1500-1558 : ملك اسباني من السلالة النمسوية . (المحرر) .

(29) وردت قبلاً ، وتعني الشاطىء . (المحرر) .

أسوارها أثر ، وأكثره دثر وخَرِبٌ ، لأن النصارى لم يكن لهم اعتناء ببناء الأسوار ، ولا بتحصين المدن ، إلا في البعض مما قارب البحر ، كقادس من جهة المرسى ، ومدينة جبل الفتح ، فإنها حصينة ولها سور غير شاهق لبنائه على الموج . ومدينة شريش هذه تلقب بشريش لفرونطيره[30] ومعناها المقابلة ، ويعنون بها المقابلة لبر الإسلام ، أعزه الله ، وجلّ أهلها من أهل الأندلس وأعيانهم ، لأنهم تنصّروا وهم أهل حراثة وفلاحة . فعبرناها ضحوةً ، ولم نزل سائرين ذلك اليوم إلى أن بلغنا عشية مدينةً يقال لها البريجة وهي مدينة صغيرة إلى البداوة أميل ، وأثر سورها أيضاً خرب ودثر ، فلقينا حاكمها وقاضيها ، وأنزلونا داراً لبعض أكابرهم ، وجعلوا ينثالون علينا للسلام . وفيها انتسب لنا بعض إلى الأندلس ، بإشارة خفيّة ، ولم يقدر على التصريح بغير كلام خفيٍّ . والغالب على جلِّ سكانها أنهم من بقايا الأندلس ، إلا أن العهد طال عليهم ، وربوا في بحبوحة الكفر ، فغلبت عليهم الشقاوة ، والعياذ بالله .

أندلسيون يحملون صلباناً !

ومن الغد ارتحلنا إلى مدينة يقال لها اطريرة وفي ما بينهما بلاد متسعة ، وأرض فسيحة معمورة بغرائب الحرث والمواشي ، وأكثر غنم الأندلس أسود ، وعن يسار المار من البريجة إلى اطريرة مقدار ميلين أو ثلاثة أميال الواد الكبير[31] المنحدر من إشبيلية ، الذي تجتمع فيه سائر أودية الأندلس ، وتسافر فيه المراكب من البحر الكبير إلى أن تصل إشبيلية ، على مسافة أربعين ميلاً من البحر المذكور .

ومدينة أطريرة هذه هي مدينة بين الصغر والكبر ، وجل أهلها من بقايا الأندلس ، فوصلناها عشية اليوم ، فوجدنا جميع أهلها وقد برزوا لنا للاستسقاء ، وهم ، على عدد نسماتهم ، قد رفع كل واحد منهم صليباً على كتفه ، فلقونا على تلك الحالة حيث لم يمكنهم التخلف ، فنزلنا بالمدينة داراً كبيرة مشرفة على جلِّ المدينة . وبعد أن طرحوا

---

(30) Jerez de la Frontera .

(31) وفي مخطوطة ا : الوادي . والوادي أو الواد هو النهر في لغة عامة الأندلس والمغرب .

صلبانهم وردوا ، أيضاً ، للسلام علينا ، وهم في البشاشة والفرح بمكان ، وأهلها ذواتٌ عظامٌ ، والغالب عليهم الحسن ،رجالاً ونساءً ، ولقد شاهدنا ابنتين : بنت حاكم البلد ، والأخرى بنت القاضي ، في غاية الحسن والجمال والكمال ، لم ترَ عيني ، في جميع ما رأيت من بلاد إسبانيا على سعتها ، أجمل منهما ، وهما من بنات الأندلس ، ومن دم ملك غرناطة الأخير ، الذي كان غلب عليها ، وهو الملك المعروف عندهم بالري الشيكو ، ومعناه «السلطان الصغير» .[32] ولقد أخبرني بمدينة مدريد رجل يسمى ضون ألونصو حفيد موسى أخي السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة ، أن البنتين اللتين بأطريرة من دمه ، وضون أَلُونْصو هذا هو رجل حسن الأخلاق حسن الشباب له قوة وشجاعة ، معروف عند النصارى وهو معدود من فرسانهم وشجعانهم ، ويقوم إلى الأمجال[33] والشرور ، قبطاناً على جماعة من الخيل ، والنصارى يعتدون بشجاعته ، ومع هذا فهو مائل إلى من يلقاه من أهل الإسلام ويذكر نسبته ويعجبه ما سمعه من الحديث عن الإسلام وأهله . ولقد حدثني عن أمه أنها حين حملت به اشتهت أكل الكسكوس[34] فقال لها أبوه : لعل هذا الحمل الذي في بطنك من ضنو[35] المسلمين . (وكان)[36] يداعبها بذلك ، إذ كانوا لا ينفرون عن نسبتهم لعلمهم به ، وإنهم من بيت المُلك . نعوذ بالله من الخذلان والغواية ، ونسأله التوفيق والهداية .

ومن عظيم بشاشة أهل اطريرة ، أنهم وردوا علينا ليلة مبيتنا عندهم بالفريلية

---

(32) لقبه أبو عبد الله الصغير ، واسمه محمد المولود سنة 1533 : آخر ملوك غرناطة من بني نصر . انتزع الحكم من والده علي أبي الحسن . أسره الملكان الكاثوليكيان فردناند وإيزابيلا ، واستعملاه على أهله ، ثم استوليا على مملكته سنة 1492 في معاهدة استسلام . توفي في المغرب (المحرر) .

(33) هكذا في الأصل .

(34) لون طعام مغربي أندلسي يُعمَل مس دقيق يلت بالسمن ويضع معه دجاج وتوابل وهو مشهور جداً بالمغرب .

(35) الضسو : الولد . والمقصود هنا أنه من نسل المسلمين . (المحرر) .

(36) فراغ في الأصل . (المحرر) .

الذين يحسنون الغناء في كنائسهم ، وبيدهم آلات اللهو والطرب ، منها آلة يسمونها الأربة ذات أوتار عدة ، وهي خشنة الشكل يزعمون أنها آلة النبي داود ، على نبينا وعليه الصلاة والسلام . وعلى شكلها رأيت بيدي صورة من الصور التي يجعلونها في بيوتهم وديارهم ، ويزعمون أنها صورة النبي داود عليه السلام ، إذ جميع تواريخهم وديانتهم هي مأخوذة عن ديانات بني إسرائيل ، وعن التوراة في زعمهم ، إلا ما زاده من الفرق الحاصل بينهم وبين اليهود ، حين تألبوا على المسيح وصارت العداوة بينهم بسبب ذلك . ولم يزالوا ، من ذلك العهد ، يحدثون في أديانهم واعتقاداتهم الفاسدة وضلالهم ، ما يحدث لهم البابا برومة ، ألحقه الله بكابر قومه . وبين مدينة اطريرة هذه إلى مدينة مرشينة عشرون ميلاً في ما بينهما أرض واسعة فسيحة متسعة الأرجاء ، سهلة . وليس بهذه البلاد الأندلسية جبال ، إلا ما هو عن يمين المارّ ، تظهر على مرأى العين ، كجبال الرندة وما والاها .

وفي ما بين اطريرة ومرشينة وادٍ كبير عليه قنطرة كبيرة مبنية أحسن بناء من عهد المسلمين ، وبهذا الوادي كانت وقعة الزلاقة الشهيرة الذكر ، وعلى هذا الوادي كنيسة صغيرة بها صور حرب الزلاقة منقوشة بحيطانها .

غابات الزيتون

ومدينة مرشينة هي مدينة متوسطة أيضاً ، أثرها أثر الحضارة القديمة ، وهي اليوم إلى البداوة أميل ، وأهلها أهل بشاشة ، ومنهم من ينتسب إلى الأندلس انتساباً . ومنها إلى مدينة (إيشكا) أحد وعشرون ميلاً ، وفي ما بينهما بلاد متسعة الأرجاء فسيحة ، ذات جنات وبساتين ، وأكثر أشجارها شجر الزيتون . فعلى مدينة مرشينة من ناحية إيشكا ثمانية أميال كلها معمورة بالزياتين ، وفي كل غابة من زياتينها دار مخزن الزيتون ، ولعمران من يقوم بها وبأمرها . وكذلك في ما يلي إيشكا من طريق مرشينة ، أيضاً من الزيتون مسيرة ثمانية أيام أخرى يميناً وشمالاً ، وخلفاً وأماماً ، إذ الأندلس أكثر عمارة العدوة شجراً وزيتوناً . وعلى قرب مدينة إيشكا ، على ربوة من الأرض مطلة على المدينة ، أثر بناء قديم مصلح ، زعموا أنها روضة صالح من صلحاء

المسلمين ، رأوا له بركة عظيمة فتركوا روضته على ما هي عليه .

ولما شارفنا على مدينة إيشكا ، رأينا بها من حسن المنظر وبهائه ما ليس في غيرها من سائر مدن العدوة ، وهي في غور من الأرض على شفير الوادي المسمى بوادي شينيل .

وشينيل هذا ، من حيث ابتداؤه ، عليه من المنتزهات والبساتين وحسن المنظر ما خامر عقول كثير من أدباء الأندلس ، وقد أكثروا فيه من قول الشعر على كل وزن وكل قافية ، ونظموا فيه من الأزجال والموشحات ما لا يُحصى ولا يعدُّ ، وما يفوت الحصر والحد .

فمن ذلك ما علق بالحفظ من قول أثير الدين أبي حيان[37] رحمه الله ، وهو في مصر يتشوق إلى وطنه بغرناطة ويصف منازله بها ، ويبث شوقه ، ويندب ماعهده بها ، وما شاهده ، وهو قوله :

هل تذكرينَ منازلاً بالأحبلِ
ومنازلاً صُفّت بشطّي شنَّلِ
ومشاهداً ومعاهداً ومناظراً
ومقاصراً للقاصرات الرّفلِ
حيث الرياض تفتّحت أزهارها
فشممت أزكى من أريج المندلِ
والطير تشدو مفصحات بالغنا
فوق الغصون الناعمات الميلِ
فتشير للمشتاق داءً كَلماً
وتديل صائر دمعه المتدللِ

وما زال يسمى عند النصارى باسمه الأول المعهود ، وهو وادٍ كبير ينحدر من وادي

(37) أثير الدين أبو عبد الله محمد بن حيّان الأندلسي الغرناطي النفزاوي أديب ، شاعر ، لغوي نحوي . له تآليف قيّمة ورحلات عديدة إلى المشرق ، تُوفي بمصر . ولد عام 654 مات 745هـ .

آش ، ومن وادي شينيل من أحواز غرناطة وجبالها . وعلى هذا الوادي من المتنزهات والأجنات والبساتين والأرحية وأنواع الغراس ما لا يحصى . وليس ما رأيناه في سائر العدوة الأندلسية متنزهاً أبهى منه منظراً ، والمدينة على شفير هذا الوادي المذكور ، مع ما دار بها من البساتين والمنازه ، والدور التي في البساتين كلها فلك دارت كواكبه .

ولقد ذكّرني ما شاهدته من حسن هذا الوادي ، وبديع منظره وبهائه ، قول حمدة الأندلسية الشاعرة التي من وادي آش[38] :

أباحَ الدمعُ أسراري بوادٍ
له في الحسن آثار بَوادي
فمن نهر يطوفُ بكل روضٍ
ومن روضٍ يطوف بكل واد
ومن بين الظباء مهاة رملٍ
سَبَت لبّي وقد سلبت فؤادي
لها لحظ ترقده لأمرٍ
وذاك الأمر يمنعني رقادي
إذا سدلت ذوائبها عليها
رأيت البدر في جنح السوادِ
كأنّ الصبح مات له شقيق
فمن حزن تسربل بالحِدادِ

وحمدة هذه هي من شاعرات الأندلس ، وأخبارها مشهورة في محلّها من أخبار شعراء العدوة وشاعراتها ، وهي القائلة :

ولما أبى الواشون إلاّ فراقنا
وما لهم عندي وعندك من ثارِ

---

(38) شاعرة أندلسية معروفة . (المحرر) .

وشنُّوا على أســمــاعنا كل غــارة
وقلّ حــمــاتي عند ذاك وأنصــاري
غــزوتهم من مــقـلتيّ وأدمــعي
ومن نَفَسي بالسيف والقتل والنارِ .

وقد أنشدت ، حين أبصرت هذه المدينة وجميل منظرها ، متمثلاً ببيت من الحريري ، وضمنته ببيتين آخرين :

آليت ، إذ نظرت عيني محاسنها أن لا نظير لها في مطلق الصورِ

وهذان بيتا التضمين تدليلاً .

فــالله ينقــذها حــتى يدان بهــا
دين المهيمن محروساً من الكدر
بكف مــحــتــسب للأجــر منتـدب
لله منتــسب لأفــضل البــشـــر

الوصول إلى قرطبة

وحين قربنا من المدينة برز حاكمها في كدشه ، ومعه أولاده ومن معه من أصحابه راكبين خويلة له ، زعم أنها من أحسن الخيل الأندلسية وأجودها ، فلقينا خارج المدينة ورحب بنا ، ولم يدع من البشر وحسن الملاقاة شيئاً ، وسار بنا إلى المدينة وطفنا أسواقها ورحابها وأزقتها ، فإذا هي مدينة متحضرة بين الصغر والكبر ، وهي في غاية النظافة ، ولأهلها حسن أخلاق وجمال ، وبوسطها المسجد الجامع عجيب الشكل متقن البناء ، وبصحنه أشجار النارنج وهو من عهد المسلمين ، وقد بقي على حاله . فوصل بنا حاكم المدينة إلى داره وهي دار كبيرة واسعة ، فأنزلنا بها أحسن نزول ، ولم يقصر في الإكرام ، ولا في ما وجب عليه من الصواب وحسن الخطاب . فبتنا في داره تلك الليلة . وفي الغد خرجنا من المدينة ، وإذا على طرفها قنطرة عجيبة ، وعلى باب المدينة وتحت هذه القنطرة من الأرحية والبناءات شيء كثير ، وتابعنا السير حتى

وصلنا إلى مدينة قرطبة ، وهي مدينة كبيرة حاضرة من حواضر العدوة ، وهي دار ملك قديم ، وفيها كان سكنى ولاة الأندلس قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية . وفي سنة ثمان وستين ومائة انتقل عبد الرحمن من الرصافة حيث يسكن إلى قرطب ، وجعلها مقر مُلكه وسرير سلطنته وخلافته ، وقد كانت قبلاً سكنى ملوك بني أمية من عهد عبد الرحمن الداخل ، وغيره ممن كان قبله ، ومن ولي من بعده ، ومن خلفه .

والمدينة في سفح جبل يسمى سير مرينة[39] وهي على ضفة الوادي المسمى بالوادي الكبير الذي ينحدر من جبال بياسة وجبال جيان ، وغيرها .

والنصارى يسمونه باسمه المعهود في عهد المسلمين . وهذا الوادي هو أكبر أودية الأندلس كلها ، وبه يجتمع سائرها ، وهو الذي يمر بإشبيلية ، وينحدر إلى البحر عند مدينة سان لوكار . وبخارج مدينة قرطبة من البساتين والجنانات[40] وأنواع الكروم ما لا يُحصى .

صليبٌ على مسجد

وحين قربنا من المدينة برز أهلها للملاقاة ، وبرز من بها من الأسرى وهم يعلنون بلفظ الشهادة ، ويدعون بالنصر لسيدنا المنصور بالله تعالى ، وصبيان النصارى يقولون مثل ما يقوله الأسرى[41] . ولما دخلنا المدينة رأيناها مدينة كبيرة عامرة مشحونة بأنواع الحرف والصنائع ، وأكثر باعتها نساء ، فنزلنا دار حاكمها .

ومن الغد خرجنا منها بعد أن زرنا مسجدها الأعظم الشهير الذكر ، البعيد الصيت ، وهو مسجد كبير جداً في غاية الإتقان وحسن البناء ، وبداخله ألف وثلاث مائة وستون سارية كلها من الرخام الأبيض ، بين كل سارية قوس فوق قوس آخر ، وله

---

(39) في الأصل : سير مدينة ، وهوعلى الأرجح خطأ مطبعي (المحرر)

(40) الجنانات : جمع جنان بالعامية المغربية . (المحرر) .

(41) يقصد أنهم يقلدونهم ساخرين! . (المحرر) .

من الأبواب ، الآن ، أربعة عشر باباً ، وقد سد كثير من الأبواب وغيرها . ومحرابه الإسلامي باق على حاله لم يتغير ، ولم يحدث فيه شيء ، إلا أنهم جعلوا عليه شباكاً من نحّاس ، وطرحوا أمامه صليباً ، فلم يدخل عليه أحد إلا قُيّم ذلك الصليب ، ولم يزد بداخله ولا بحائطه شيء قليل ولا كثير . ولهذا المسجد صحن كبير جداً مشتمل على خصة ماء في وسطه ، ويدور بها في سائر الصحن من أشجار النارنج[42] مائة وسبع عشرة شجرة ، ويقابل موضع المحراب من الصحن منار المسجد ، وهو منار كبير مبني من الحجارة ، إلا أنه ليس بغاية الارتفاع كمنار طليطلة وإشبيلية ، وهو مبني على باب من أبواب المسجد المقابلة لموضع العنزة . وما زال سقف المسجد وأبوابه باقية على حالها لم يحدث فيها شيء ، إلا ما تدعو الضرورة إليه من إصلاح السقف الذي يتداعى إلى السقوط وشبه ذلك . وقد أحدث النصارى بوسط هذا المسجد مقابلاً لمحرابه قبة كبيرة مربعة مشبكة بشبابيك من نحاس أصفر ، جعلوا داخل هذه القبة صليباً من صلبانهم ، وكتب صلواتهم التي يحضرونها مع الموسيقى وشبهها .

وأبواب هذا المسجد باقية على حالها من البناء الأول ، والنقش بالكتابة العربية ، وهذا المسجد هو أكبر مساجد الدنيا وأعظمها صيتاً .

وفي سنة تسع وتسعين ومائة ابتاع الإمام عبد الرحمن الداخل موضع الجامع بقرطبة من نصارى الذمة ، وكان بالموضع المذكور كنيسة قديمة فاشتراه بمائة ألف دينار وزاده في ساحة المسجد .

وفي سنة كذا ومائة أسس الإمام الجامع بقرطبة ، وأخذ في بنائه إتقاناً وبناه من مال الأحباس[43] وأنفق في بنائه مائتي ألف دينار ، وفي ذلك يقول بعضهم :

وأبرز في ذات الإله ووجهه

ثمانين ألفاً من لجين وعسجد

---

(42) وفي مخطوطة تطوان : الرنانج .

(43) الأوقاف .

وأنفقها في مسجد أُسّه التقى
ومنهاجه دين النبي محمدِ
ترى الذهب الوهّاج بين سموكه
يلوح كلمع البارق المتوقدِ

وجعل للجامع سبعة أبواب إذ ذاك ، وما زال ملوك بني أمية يزيدون في بناء هذا المسجد والاحتفال فيه ، إلى زمن المنصور بن أبي عامر . وقد زاد فيه من قبله الإمام عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل على ما كان ، وزاد فيه ، أيضاً ، جده الداخل زيادة كثيرة ، ورفع سمكه ، وفي ذلك يقول شاعره ابن المثنى :

بنيت لله خير بيت
تخرس عن وصفه الأنامُ
حُجَّ إليه من كل أوب
كأنّه المسجد الحرامُ
كأنّ محرابه إذا ما
صف به ، الركن والمقامُ

وقال آخر :

بنى مسجداً لم يُبنَ لله مثله
ولا مثله لله في الأرض مسجدُ
سوى ما ابتنى الرحمن والمسجد الذي
بناه نبي المسلمينَ محمدُ
له عمد حمر وخضر كأنما
تلوح يواقيت بها وزبرجدُ
إلا يمين الله لا زالت سالماً
ولا زالت في كل الأُمور تسردُ
فيا ليتنا نفديك في كل حادث
وإنك للإسلام فينا مخلدُ

وعبد الرحمن هذا هو أول من كسا الأندلس أُبَّهةَ الخلافة ، وأمر ببناء الجامع

بإشبيلية ، وببناء سورها من أجل طروق المجوس فيها من البحر الرومي سنة 230 . وفي سنة 234 أمر الإمام عبد الرحمن هذا ببناء الجوامع الكبيرة بسائر الأندلس ، فبنيت ، وصنع بها المنابر للخطباء ، وتنافس جواريه في بناء المساجد وعمارتها ، واتخاذ الأوقاف لها اقتداء بفعله ، فبنى مسجد طروب ، ومسجد مجد ، ومسجد الشفا ، ومسجد المتعة ، وكانت له همة في كتب العلوم والأدب ، فلقد بعث ثقته عباس بن ناصح الثقفي إلى بغداد بالأموال ، فاشترى له منها كل غريب ، وكان ضابطاً للغريب ، راوياً لأشعار العرب ، ذاكراً لأيام الناس . ولقد وردت عليه حسّانة التميمية متشكية بجابر بن لبيد والي البيرة ، وكان والده الحكم قد وقّع لها بخط يده بتحرير أملاكها ، وحملها في ذلك على البر والإكرام ، فتوسلت إلى جابر بخط الحكم فلم يفدها . فدخلت إلى الإمام عبد الرحمن وأقامت بفنائه ، وتلطفت مع إحدى نسائه حتى أوصلتها إليه وهو في حال طرب ، فانتسبت إليه ، فعرفها وعرف أباها ، ثم أنشدته مرتجلة هذه الأبيات :

إلى ذي العلا والمجد صارت ركابنا
على شمط تصلى بنار الهواجرِ
ليجبر صدعي إنه خير جابر
ويمنعني من ذي الظلامة جابرِ
فإنا رأينا من بغيضة جابر
كذي الريش أضحى في مخالب كاسرِ
جابر بمثلي أن تكون مروعه
لموت أبي العاصي الذي كان نصري
سقاه الحيا لو كان حياً لما اعتدت
علي زمان باطش بطش قادرِ
أيمحو الذي خطته يمناه جابر
لقد هام هذا الملك إحدى الكبائرِ

فلما تمّت إنشادها ، دفعت إليه خط والده الحكم بتحرير أملاكها ، وحملها على المراعاة والمحاباة ، وقصت عليه جميع أمرها مع جابر وامتناعه عليها ، فرقَّ لها ، وأخذ

خط أبيه فقبّله ووضعه على عينيه .

وقال :

لقد تعدّى ابن لبيد طوره وسفه رأيه . كيف ينقض أمر الإمام الحكم وحسبنا أن نسلك سبيله بعده ، ونحفظ بعد موته عهده . انصرفي يا حسّانة فقد عزلته لك .

ووقّع لها بمثل توقيع أبيه الحكم ، فقبّلت يده ، فأمر لها بجائزة ، فانصرفت وبعثت إليه بقصيدة من البيرة منها :

ابن الهاشمين خير الناس مأثرةً
وخير مشجّع يوماً لورّادِ
إن هزّ يوم الوغى أثناء صعدته
روى إناء لبها من صوب فرصادِ
قل للإمام أيا خير الورى نسباً
مقابلاً بين آباء وأجدادِ
جدت ضبغي ولم ترضَ الظلامة لي
فهاك فضل ثنائي رائح غادِ
فإن أقمت ففي نعماك عاكفة
وإن رحلت فقد زودتني زادِ

ثم إن عبد الرحمن الناصر ، وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، وهو نجم بني أمية بالأندلس ، شرع في الزيادة في جامع قرطبة ، فبناه وكمّله ، وارتفعت في الزيادة ، عند كمالها ، ست وستون ثريا ، في كل ثريا عشرون كأساً كانت كلها مذهبة .

وفي سنة خمس وخمسين وثلاث مائة تم منبر جامع قرطبة بالعمل ، ونصب بالمقصورة مؤلفاً من الأبنوس والصندل الأحمر والأصفر والعنابي والبقم ، وانتهى الإنفاق فيه إلى خمسة وثلاثين وخمس مائة دينار[44] وعدد درجه تسع درجات ،

(44) وفي مخطوطة 2 : إلى خمسة وثلاثين ألفاً وخمسمائة دينار .

وقام هذا المنبر من ستة وثلاثين ألف رطل ، وكان الإنفاق في الزيادة في الجامع : مائة ألف دينار وإحدى وستين دينار ونيف . وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة ابتدأ المنصور بن أبي عامر بالزيادة في المسجد الجامع بقرطبة ، فزاد عليه فيه نحو النصف على ما كان بناه الخلفاء قبله ، وصلّى الناس فيه سنة أربع وثمانين ، فكان العمل فيه ثلاث سنين ، وخدم في بنائه الأعلاج ، ووجوه فرسان الخلافة ، والفرنج يعملون مع الصنّاع مصدفين في الحديد إلى أن كمل ، وبنى فيه الجباب لاستقرار الماء من الأمطار في صحن الجامع ، وعدد سواريه ألف وأربعمائة سارية ، سبع سوارٍ منها في المنار والمقصورة وغير ذلك . ويُقابل هذا المسجد القصبة الكبيرة ، التي كانت دار ملك قرطبة وسرير سلطنة العدوة حين اجتماع كلمتها ، وقبل حلول ملوك الطوائف بها ، نسأل الله تعالى أن يعيدها دار إسلام بجاه نبيه عليه السلام . وما زالت أسوار القصبة باقية على حالها من حسن البناء ، وارتفاع سمكه وعلوه في الجو على قدر علو المسجد .

ومن عظيم أثر بنيان هذا المسجد ، وعلوّ سمك جدرانه في الجو ، جعلوا له سواري من خارج الجدران مبنية من الحجارة ، خارجة من الحائط نفسه ، وبين كل ساريتين مقدار عشرة أذرع ، لشد حيطانه وترصيص جدرانه ، ويدور بالمسجد كله بنيان على قدر قامة الإنسان بارزاً مثل الشدروان ، احتفاظاً للحائط المذكور . وهذا المسجد هو من أحسن مساجد الإسلام ، وصيته يغني عن الإطناب في وصفه ، وهو بمقدار المسجد الأقصى على ما قيل ، ولقد نقلت من كتاب «نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والمدائن والآفاق»[45] حيث ذكر المسجد الأقصى ووصفه إلى أن قال : «وليس في الأرض كلها مسجد على قدره إلا المسجد الجامع الذي بفرطبة من ديار الأندلس . وفيما يذكر أن مسقف جامع قرطبة أكبر من مسقف الجامع الأقصى ، وصحن المسجد الأقصى في تربيع طوله مائتا باع في عرض مائة وثمانين باعاً .»

(45) يقصد «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للإدريسي . وهو كتاب جغرافي أساسي فرغ من تأليفه سنة 548 هـ . (المحرر) .

وفي أحواز[46] مدينة قرطبة على شفير الوادي من أرض الحراثة والعزائب لإنتاج[47] الخيل ما لا يحصى ، لأن خيل بلاد قرطبة وأحوازها من البلاد الأندلسية أحسن عند النصارى من خيل جميع إسبانيا على سعتها ، وبسبب ذلك منع طاغية إسبانيا أهل الأندلس من أن ينزوا حماراً على[48] فرس ، ومن قبض عليه في ذلك يعاقب عقوبة كبيرة : بأخذ ماله ، أو حبسه أو غير ذلك من أنواع العقوبات . ونتاج البغال عندهم هو بالبلاد المعروفة عندهم بمانشا ومعناها العلامة ، ومانشا هذه هي بلاد واسعة جداً[49] مسيرة ستة أيام . وهي أرض خشنة ذات أحجار ، ومنابتها الشيح وغيره من المنابت اليابسة ، وهي البلاد الفاصلة بين الأندلسية وبين قشتالة الجديدة ، وبغال هذه البلاد تشاكل بغال بلاد الشام أو تقرب منها .

وأهل قرطبة أهل حراثة وفلاحة ، وبلاد الأندلسية كلها قليلة المياه سوى في أوديتها[50] المذكورة ولم يكن لأهلها اعتناء ، بالسواقي ولا بإخراجها ، إذ حراثتهم كلها في البلاد البعلية ، إلا ما سمع عن غرناطة وأحوازها من تدفق المياه وجريانها من كل موضع . وعلى هذا الوادي من القناطر المبنية أحسن بناء عدد كثير ، وعلى باب مدينة قرطبة قنطرة كبيرة وتحتها آثار قنطرة أخرى ، زعموا أن المسلمين أسّسوا القسم السفلى منها ، وقد خرَّبها السيل من مدة عشرة أعوام ، فجدد النصارى فوقها بقليل قنطرة أخرى لها من الأقواس سبعة عشر . وقد قيل في مدح قرطبة ووصف مفاخرها .

بأربع فاقت الأمصار قرطبة
وهن : قنطرة الوادي وجامعها
هاتان اثنتان والزهراء ثالثة
والعلم أكبر شيء وهو رابعها

---

(46) وفي مخطوطة (م) . وبأحواز

(47) وفي مخطوطة (م) : لنتاج الخيل .

(48) وفي محطوطة مدريد : من أن ينزو أحد حماراً على فرس :
في عملية تهجين وتوليد . (المحرر)

(49) بياض في الأصل ، والمقصود : على مسيرة . . .(المحرر) .

(50) وفي مخطوطة مدريد : إلا ما بها من الأودية .

ومن قرطبة إلى مدينة تسمى الكاربي خمسة عشر ميلاً ، وهي مدينة صغيرة على نشز من الأرض ، بمقربة من الوادي أيضاً ، وبهذا الوادي دواليب ونواعير تصعد الماء من الوادي إلى بساتين تحت المدينة ، وأهلها أهل فلاحة وحراثة وهم إلى بداوة أميل! وعلى هذا الوادي من جانبيه من المداشر والقرى ما لا عدد له ، ومن مدينة الكاربي هذه إلى مدينة تسمى اندوخر واحد وعشرون ميلاً ، وهي مدينة قديمة أثرها أثر الحضارة وهي على ضفة الوادي الكبير أيضاً ، وعلى هذا الوادي بقرب المدينة قنطرة قديمة من عهد الإسلام ، وبفحص[51] هذه المدينة من الزياتين والغروس والبساتين وأرض الحراثة ما لا يُحصى ، وأهلها أهل حراثة وفلاحة ، والغالب على عمارها أنهم من بقايا الأندلس ، وجلّهم من أولاد السراج الذين كانوا تنصروا على عهد السلطان أبي الحسن آخر ملوك غرناطة ، وذلك فيما يزعمه النصارى .

وينقلون في تواريخهم ، أن بعض أولاد ابن زكري الغرناطيين بغرناطة ، كان وشى على الملك بأحد أولاد السرّاج ، وذكر عنه أن له كلاماً مع زوجة ابن الملك ومخالطة ، فحنق الملك على أولاد السراج الذين معه فقتل منهم جماعة أعيان ، وكان أولاد السراج في ذلك العهد هم أقوى جيش المسلمين وبلادهم اندوخر بيدهم باقية ، بعد أن غلب الكفرةُ على قرطبة وأحوازها ، يحاربون عليها ويذبون عنها فحين بلغهم خبر من قتل من إخوانهم بغرناطة ، حملتهم الحمية والأنفة والحنق والغيظ على أن ركبوا من ساعتهم ، وقصدوا طاغية الوقت فتنصروا على يده ، وخرجوا من عنده قاصدين غرناطة ، فأغاروا عليها وحضروا بعد ذلك مع الطاغية في حروب غرناطة وأحوازها ، نعوذ بالله من الضلال بعد الرشاد ، ومن الغواية بعد الهداية .

---

(51) الفحص : كل موضع يشسكس . (المحرر)

وجل هؤلاء المتنصرة الذين[52] بأندوخر يعدُّ من أكابر أهل البلد ، غير أنه لا يعد عند النصارى مثل ما لهم من الكبيرة التي يتوارثها النصارى خلفاً عن سلف ، مثل الدوكي أو الكندي وشبههما . وأكثر ما يحصل لهم اليوم من الكبيرة ، أن من يكون من نسل هؤلاء القوم الذين تنصروا أن يرتحمل الصليب على كتفه يرقمه في ثوبه المندثر به ، فتلك هي علامة الأكابر منهم . والخطط التي يتولاها بقايا هذا الجنس المذكور ، هي الكتابة ، وحكومة البلدان ، والشرطة ، وغيرها مما ليست له وجاهة كبيرة ، وولاية شنيعة ، مثل التصرف في المحال ، أو الولاية للأقاليم الكبيرة والمدن القواعد مثل إشبيلية وما شاكلها . وعلى كل حال فهم في هذه النواحي كثيرون لا يحصون ، فمنهم من ينتسب ، ومنهم من لا ينتسب ، ومنهم من ينفر من سماعه لانتساب ذلك . والذي ينفر من هذه النسبة ويأبى عنها ، ينسب إلى جبال نبارى وهي جبال بعيدة من قشتالة كان انحاز إليها من بقي من النصارى من ساعة تغلب المسلمين على العدوة ، يتفاخرون بالانتساب إلى تلك الجبال وما والاها . والذين بيدهم ولاية أو خطة من الخطط المخزنية من أهل هذا الجنس ، لا ينفرون من هذا الانتساب .

فلقد لقيت يوماً بمدينة مدريد رجلاً (نسيت اسمه الآن) راكباً في كدش له ، ومعه جماعة من النساء صغاراً وكباراً ، لهم حسن وجمال ، فوقف وسلّم سلاماً كثيراً ، وأظهر هو ومن معه من النساء بشراً وترحيباً ، فقابلناه بما يجب . وحين أراد الانصراف عرّف بنفسه بأن قال : نحن من جنس المسلمين من نسل أولاد السراج[53] ، فسألت عنه بعد ذلك ، فقيل لي إنه من كتّاب الديوان ، وهو الذي يقرأ ما يحصل بالديوان

---

(52) فى الأصل . الذى . (المحرر) .

(53) يقصد : بني سراح : قبيلة من الأندلسيين حكمت في غرناطة في القرن 15 ، ومنهم استوحى شاتوبريان روايته الشهيرة «مغامرات آخر بني سراج» وتروي قصة عودة أمير أندلسي إلى بلاده ، بعد سقوط غرناطة وطرد المسلمين من الأندلس ، للقاء حبيبته الكاثوليكية . وفي «معجم قبائل العرب» لعمر رضا كحالة : بنو سراج بطن من قبيلة مذحج العربية أنزلهم بنو أمية ، لما فتحوا الأندلس ، في إقليم أرش اليمن وجعلوا إليهم حراسة مايليهم وحفظ الساحل . وربما كان المحدّث القاضي ابن السراج ، يحيى ابن أحمد الذي عاش في القرن نفسه منهم . (المحرر)

من رقاع وعرض حال وشبهه .

وكذلك ، أيضاً ، كانت جماعة من أهل غرناطة لهم بها ولاية وأحكام وسكناهم بمدينة مدريد ، ترد علينا صحبة ضون ألونصو الذي هو من عقب غرناطة ، وينتسبون إلى الجنس الذي كان بغرناطة ، وغلب عليهم الشقاء والعياذ بالله .

ولقد كانوا يسألون عن دين الإسلام وعن أشياء منه ، فحين يسمعون ما نجيبهم عنه من الديانات ، وأحكام الطهارة التي بني الإسلام عليها ، وغير ذلك ، يعجبهم ما يسمعون منه وينصتون إليه ، ويشكرونه بمحضر النصارى ولا يعبؤون بمن حضر ، ولم يزالوا مدة مقامنا بمدينة مدريد يكثرون التردد لدينا ، ويردون علينا المرة بعد المرة ، ويظهرون من المحبة والتحنن شيئاً كثيراً . نسأل الله تعالى أن يهديهم إلى الصراط المستقيم ، ويرشدهم إلى الدين القويم .

الخروج من أندوخر

ومن مدينة اندوخر هذه إلى مدينة تسمى لينارس أربعة وعشرون ميلاً ، وهي على مسيرة ثلاثة أميال أو أربعة من مدينة اندوخر ، يفارق المار بالوادي الكبير ويتركه يمينه[54] عند انحداره من الجبال .

ومدينة لينارس[55] هي مدينة متوسطة أثرها أثر الحضارة قديماً ، وبها من بقايا الأندلس النزر القليل من سكانها ، وبخارجها معادن كثيرة من الرصاص الذي ينقل إلى كثير من بلاد إسبانيا .

ولما وصلنا هذه المدينة ورد علينا أهلها للسلام كالعادة ، منهم جماعة من الفريلية[56] مسلّمين علينا ، وطلبوا منا على لسان الراهبات أن نصلهم وننظرهم ، فواعدناهم من الغد .

---

(54) وفي مخطوطة (م) : يمنته عندما ينحدر من الجبل .

(55) وفي مخطوطة (ا) : لينارس .

(56) لفظة إسبانية معناها الرهبان Frailes .

ولما أردنا الخروج من المدينة ضحوة ، طرقنا الكنبينطوا[57] الذي هنّ به ، فدخلنا عليهن ، فوجدناهن في دار مجاورة للكنيسة يسمعن الميسة[58] وهن في غاية ما يكون من التحفظ والصون ، من الصغيرة التي يبلغ عمرها سبعة أعوام ، إلى العجائز والمتجالات وهنّ أبكار ، ومن عادتهن في ذلك ، أن جميع من أحبت الترهب والتزهد ، تدخل الكنبينطوا المعد لذلك ، سواء كانت صغيرة أو كبيرة ، بعد أن تحلف وتشهد على نفسها ، أنها لا تدخل إلى ذلك الموضع[59] إلا بعد أن لم يبقَ لها في الدنيا أرب ، ولا غرض ، ولا تتعلق لها شهوة في رجل ، ولا في نظر ، ولا في دخول ، ولا في خروج . فتدخل الكنبينطوا وتلبس من اللباس ما خشن ، فإن كان لها مال يجري عليها منه بالقسط ، ومن ليس لها مال منهن ، تخدم غيرها وتعيش معها ، أو تأكل من الحبس الموقوف عليهن . وهذا الكنبينطوا المعد للراهبات ، ويسمونهن بالعجمية المونكاص[60] لا يدخله أحد من الرجال أصلاً ، وعليهن عجائز موكلات بهن ، فإذا حصل بإحداهن مرض ، تتوقف فيه على الطبيب ؛ يدعى لها الطبيب ويدخل عليها ، بعد أن تحيط به أربع عجائز ، واحدة عن يمينه ، والأخرى عن شماله ، والثالثة من خلفه ، والرابعة أمامه . فيدرن به حين دخوله باب الكنبينطو ، ولا يفارقنه حتى يخرج .

ودخول المرأة للكنبينطو هو بمثابة موتها ، إذ لم يبقَ لها أرب في شيء من الدنيا ، إلا من دخلت منهن صغيرة السن قبل البلوغ ، فتستشار حينئذ وتخيَّر في أمرها ، ويلقى إليها أمر نفسها . فإذا آثرت ذلك الموضع وأحبته ، وقالت لا أرب لي في

---

(57) الكنبينطوا : لفظة إسبانية معناها : الدير Convento .

(58) الميسة : لفظة إسبانية معناها القدّاس Misa .

(59) وفي مخطوطة (م) : أنها لا تؤثر الدخول لذلك الموضع .

(60) منكاص ، مونكاص ، منخاص : بالإسبانية : Monja وتعني الراهبة . وهنا راهبات . (المحرر) .

الخروج ، ولا في الزواج ، بعد أن يخلى بينها وبين نفسها ، ويُشهد عليها بقبول ذلك ، ويؤخذ عليها العهود والمواثيق على مقامها هنالك بغرضها ، وأنها لم يبقَ لها تعلق ولا تشوق إلى شيء من أمور الدنيا ، وإن هي أحبت الخروج والتزويج ، لا تمنع منه ، وتجاب إليه . فمنهن من تؤثر المقام هنالك لأجل الألفة ، ومنهن من تؤثر المقام لما يغلب على ظنهنَّ أنهنَّ على طريق قويمة ، ومنهن من تخاف السُّبَّةَ والعار بخروجها ، بعد أن حُسِبَتْ من الراهبات . والغالب على دخولهن إلى الكنبينطو عدم وجود الصداق الذي تعطيه على زواجها للرجل ، ففي عوائدهم أن المرأة تدفع المهر من عندها ، وصاروا يتغالون في ذلك ، حتى آل إلى عدد كثير لا يقدر عليه إلا من له وفر ، ومال ، وميراث كثير . فصرنَ يدخلنَ على هذا الموضع المعدِّ لذلك حين لا يجدنَ اتساعاً في المال . ومنهنَّ من تكون من الأعيان الأكابر ذي المال الكثير ، فتزعم أنها زهدت ، ورفضت الدنيا والرياسة ، وحب التكبر ، وتدع تكبرها ورياستها لغيرها من أخواتها ، أو لأهلها ، وتدخل الكنبينطو والغالب عليهن أنهنّ أبكار ، ومنهنَّ من يحب أبوها أو أمها صونها من الآفات الدنيوية ، وعار الأحدوثة النفسانية ، فيودعها هنالك بقصد التحفظ والصون ، إلى أن يبلغ وقت تزويجها فيخرجها ، كما رأيت في كنبينطو لمنكاص الراهبات من مدينة إشبيلية ، صبيَّةً في غاية الحسن والجمال ، واعتدال القامة ، وصباحة الوجه ، لها أربعة عشر عاماً ، أو ما يقرب منها ، ولباسها غير لباس الراهبات . فسألت عنها ، وعن سبب مخالفة لباسها لجميع الراهبات ، فقلن أنها مودعة هنالك بقصد الصون والتحفظ ، إلى أن تتزوج . أودعها أبوها قبل أن تستكمل لبنها ، وهي ابنة عشرين شهراً .

ولهؤلاء الراهبات مذاهب وطرق بعدد مذاهب الفريلية وطرقهم ، ومنهم جنس يسمى الامك الصوص[61] مذهبهم في الترهب أن لا يكتسبوا ولا يخزنوا فلساً ولا ديناراً ، ومعيشتهم من الصدقات التي يزعم النصارى أنها صدقة .

وكذلك في النساء الفريليات جنس لهنَّ ف الترهب طريق ضيقة متعبة ، وهنَّ ساعة تريد المرأة دخول الكنبينطو المعروف لهذا الجنس ، يوجه عليها العهود والمواثيق

---

(61) ربما يقصد أراد لفظة دصكلصوص وهي : طريقة رهبانية الحفاة Descalzos .

والأيمان ، أنها لم يبقَ لها غرض في الدنيا ، ولا شيء من أمورها ، وأن لا تفتح عينيها على أحد ممن هو ليس من أهل الكنبينطوا ، حتى إذا أحب أبوها وأمها رؤيتها ، تجعل على وجهها برقعاً يمنعها من النظر إليهما ، وهما في غاية المهنة والتقشف ، بخلاف غيرهن من أهل المذاهب الأخرى . وحتى الشبابيك الموضوعة لهن ، بينهن وبين الكنيسة لسماع الكفر ، جُعلت شبابيك ضيقة جداً في موضع مظلم ، وبخارج الشبّاك مما يلي الكنيسة كلاليب ومخاطيف ومسامير كثيرة ، تمنع التقرب من الشبّاك ، مع ضيق عيونه ، فلا يقربه أحد . وقد جعل هذا الشبّاك صغيراً في موضع مظلم ، بحيث لا يرى من داخل ولا من خارج . ولقد طلب أهل هذا الجنس في مدينة كرمونة رؤيتنا ، والتمس منا ، ورغب الحاكم قدومنا إليهنّ ، فوجدناهن على هذه الحالة ، وهنّ في غاية التقشف . وحين جرى الكلام بيننا وبينهن وأردنا الانصراف ، قالت واحدة منهن ما معناه : سلكنا الله وإياكم مسلك النجاة ، والله ما عرفنا أين يُسار بنا . فقلت لها إلى جهنم وبئس المصير .

وهذا الجنس هو في غاية التقشف والتَّرهب ، وأما الغير فعليهنّ ضيق السجن ، وعدم الخروج ، والتزويج ، والتمتع في الملابس ، وغير ذلك من أحوال الدنيا ، وإلا فبينهن وبين الجنس المضيَّق عليهن بون بعيد ، وهنَّ على مذاهب الفريلية في التقشف والاتساع .

فمن الفريلية من تجده جعل في يده تلك الخطة سبباً وحيلة على الدنيا وجمعها ، فإن كانت له يد عند المخزن(62) يقبض من وفر الحبس الآلاف ، زاعماً أنها لمعيشته . ومنهم من جعل في يده تلك الخطة سبباً للاستراحة من تعب الدنيا ومشقتها ، وتكفيه الراحة ، ومنهم من جعلها في يده دَرَقَةً(63) يستتر بها لتقيه ، وتمنعه من كلام الناس ، فلا يقدر أحد أن يتكلم في أحد من الفريلية بعيب ، أو يلمزه بقبيح ، ولو شاهده حقيقة ، وهم الضالون المضلون المنكبون عن طريق الحق ، فلقد ضلوا وأضلوا أخلى الله منهم الأرض ، وعمَّرها بدوام ذكره . ولقد جرّ بنا الحال إلى ذكر هذا .

---

(62) المخزن : مصطلح إداري وسياسي مغربي يرمز إلى الدولة ومؤسساتها العليا . (المحرر) .

(63) الدَّرقةَ : هي الترس من الجلود . (المحرر) .

ولنرجع إلى ذكر مدينة لينارس التي رأينا فيها الفريليات الراهبات ، وهي كما قدمنا مدينة متوسطة ، أثرها أثر الحضارة ، وأهلها أهل بشاشة ، ومن بشاشتهم وعوائد كرمهم أن اجتمعوا كلهم نساءً ورجالاً وأتوا بآلة الطرب ، وعادتهم أن يرقص منهم رجل وامرأة ، فحين يقوم الرجل يريد الرقص ، يتخير من النساء صغيرة ، أو كبيرة ، ويزيل لها شمريره الذي على رأسه ، ويبايع لها ، فلا يمكنها التخلف أصلاً . وجل أهل هذه البلد أناس ذو فلاحة ، ولم تكن دار تجارة ولا سبب ، لأنها غير معدودة من الحواضر .

ومن مدينة لينارس هذه إلى دشرة تسمّى طُري كوان ابان ، وهي دشرة كبيرة وأهلها إلى البداوة أميل ، وبداوتها شبيهة ببداوة بربرنا أهل الجبال الفحصية وما جاورها ، ولقد خرجوا لملاقاتنا يوم ورودنا عليهم ، وبيد جماعة من نسائهم المزاهر والدفوف ، على عادة بربر بلادنا ، وغناؤهم مخالف لغناء أهل الحواضر من النصارى ، ودخلنا الدشرة المذكورة يوم رحيلنا من لينارس ، وهو يوم انفصالنا عن البلاد الأندلسية ، ودخلنا مانشا ، التي قدمنا ذكرها ، وهي بلاد خشنة ، ذات جبال وأحجار ومسالك وعرة ، وغيض ملتفة ، وأشجار ، وأنهار يابسة . لأن هذه البلاد المسماة مانشا هي بلاد يابسة جداً ، ومنابتها الشيح ، وهي يابسة باعتبار الأندلسيّة وإن كانت كلها قليلة المياه ، وترابها أحمر ، ومدائنها متبدية بخلاف الأندلسية .

فنادق للمسافرين

ومن دشرة طُري كوان ابان ومعنى الطرّي البرج(64) وصلنا داراً معدة للنزول قرب مدينة تسمى شكلانة ، إذ كانت في سفح جبل منكب عن الطريق . وهذه هي عوائدهم في جميع هذه البلاد الأندلسية وغيرها من سائر بلاد العدوة ، فعند كل مسافتين أو ثلاثة مسافات يجعلون فندقاً ، أو داراً معدة لنزول الضيوف والمسافرين ،

---

(64) يقصد بها لفظة طورّي Torre ومعناها البرج .

فإذا وصل المسافر إلى موضع منها ينزله ، ويجد فيه من الطعام ما يشتهيه ، وما تبلغ إليه مقدرته ، كل على قدر وسعه ، ويجد العلف لدوابه والفراش لنفسه ، فيأكل ويستريح ويطعم دوابَه ، إن كان نهاراً . وإن كان ليلاً ، فلا يحتاج إلا إلى الكلام والاستحكام في طلب ما يحبه ويشتهيه .

وعندما يريد الخروج من الفندق أو الدار المعدة لذلك ، تأتيه زوجة الموكل بالموضع ، أو ابنته ، بزمام في يدها وقد حسبت ما عليه[65] من ثمن الطعام والعلف وكراء المسكن والفراش ، فلا يمكن للضيف إلا إعطاء جميع ما تحسبه عليه من غير مناقشة . وصاحب الفندق أو الدار قد تحمَّل ذلك بجعل معلوم للطاغية ، فلا يجد أحد من المسافرين في هذه البلاد ، إن كان سفره قريباً أو بعيداً ، أن يبيت في فلاة من الأرض ، أو يقيل حيث ما أدركه المقيل ، وإنما سفرهم في وقت معلوم بحد معروف ، من كونه إذا ارتحل من الموضع الفلاني ، يعرف مقيله في الموضع الفلاني ، ومبيته كذلك في موضع معلوم . ولا يحمل المسافر مُدَّة سفره زاداً ولا شيئاً من المأكولات ، ولا يحتاج إلا أن يصحب معه مالاً للنفقة ، وملازمهم في النفقة كثيرة لغلاء الأسعار ، دائماً ، فتجد الرجل في بلاد إسبانيا الذي يريد المعيشة من غير تدفق داخل أكل وشرب ويقتصد في معيشته من غير سرف ولا إسراف فلا يكفيه مع اقتصاده ريال واحد .

الخوف من اللصوص

وأما من أحب التأنق في المأكل والمشرب فنفقته كبيرة ومَلازمه كثيرة ، ومع هذه العمارة وكثرة المداشر والقرى والمدن التي في إسبانيا ، لا يقدر أحد أن يسافر وحده في مدة مسافات جبل سير مدنية[66] وجميع بلاد مانشا ، لما فيها من الخوف وكثرة اللصوص .

---

(65) وفي مخطوطة (م) : ما صيَّرته عليه .

(66) لعلها سييرا مرينة (Sierra Morena) (المحرر) .

فلقد كان النصارى الموكلون بنا في طريقنا حيث وصلنا هذه البلاد يستعدون ويتأهبون، ولا يحبون أن يتقدم أحد من أصحابنا ورفقائنا، ولا يتأخر، مخافة من الآفات. وإذا لقينا ثلاثة أناس أو أربعة نسألهم عن مرورهم بالعدة القليلة، فيقولون من مثل هؤلاء يخاف، لأنهم إذا وجدوا غمرة في هذه البلاد المخيفة يفعلون ما يفعله اللصوص، ولا يعرف لهم عين ولا أثر.

وأما المتلصصون فلم يكن منهم هنالك أحد يذكر إلا نادراً، ولقد ورد علينا عندما رحلنا من مدينة مدريد بقرية طُري كوان ابان رجل من قرية تسمى قوصرّا، بينها وبين الطري المذكور أميال، فرحب وسلّم، وذكر أن له مع ضون ألونصو حفيد ملك غرناطة محبة كثيرة، وصحبة أكيدة، وزعم أنه كتب له من مدريد كتاباً يلزمه فيه بمرافقتنا في هذا الموض المخيف، يحضه فيه على ملازمتنا مدة مسيرنا في هذه البلاد التي يتوقعون فيها شيئاً من ذلك.

وكان هذا الرجل المذكور ممن يعدُّ من لصوص هذا الجبل، وله قوة وشجاعة، ذكر أنه لما كان يتلصص بعث له طاغية إسبانيا سرية من ثلاثمائة رام يقبضون عليه، فاختفى لهم في ناحية من هذه الجبال فلم يقدروا عليه. ولما رجعوا عاد إلى داره بقوصرّا، وهو الآن فيها غير خائف على نفسه ولا على ماله، غير أنه يريد أن يأخذ من الطاغية عفواً يأمن به في نفسه، ويجعله في يده وفاراً وأماناً. وأما هو في خاصة نفسه ليس عليه خوف من شيء.

ولقد رأيت غرائبه وخيله راتعة في فدادين من الأرض قرب المدينة ترتع وتسرح، ولقد حدَّث عن نفسه ما عمله في هذه الجبال من أفعال التلصص، ولقد أظهر اليوم رجوعاً عن ذلك، وقال لي: «لو كنت متأهباً للسفر، لقدمت معك إلى مولاي إسماعيل أطلب منه كتاباً أحترم به إلى سلطان إسبانيا، ليكتب لي أماناً تطمئن به نفسي، وإن قدم من هذه البلاد بعد هذا أحدٌ، فإني أصاحبه وأقدم معه».

ولما أحبَّ مرافقتنا التي أتى لسببها، قلنا له: لا نحتاج إليك، ورجوعك إلى دارك من هنا أوفق، وعزمنا على ردّه، فأبى إلا المرافقة والمصاحبة، فتركناه إسعافاً لغرضه وللصحبة التي متّ بها إلى ضون ألونصو، فرافقنا يوماً هو وصاحب له، ورجع عنّا بعد أن ألزمناه الرجوع والإياب إلى مقره.

وبهذه الفنادق المعدّة لهؤلاء[67] الرفاق والمسافرين خيل معدّة بقصد سفراء المخزن ورقاقيصه[68] الذين يقطعون المسافات العديدة في الساعة الواحدة ، وذلك إذا قرب الرقاص من الموضع المذكور ، ويسمونه بلسانهم البينطة[69] يُخرج له فرساً مسرجاً ويلقاه به عند باب البينطة ، وبيده كأس من خمر وبيضتان من بيض الدجاج ، يشرب ذلك ، ويبدل فرسه بالفرس الذي أُحضر له ، ويصحب وكيل الموضع معه رجلاً آخراً راكباً ، أيضاً ، حتى إذا قرب من البينطة الأخرى نفخ في البوق الذي عنده ، المعد للإعلام ، فلا يصل حتى يجد الفرس محضراً مع العادة التي يشرب من خمر وغيره ، فيناول الفرس الذي أتى به الرفيق الذي معه ليرده لصاحبه ، ويأخذ فرساً آخر ، ويصحب معه رجلاً ، وكذلك يفعل في كل مسافتين أو ثلاث ، فيقطع المفاوز النائية والبلاد القاصية في اليوم الواحد .

ولقد كانت ترد علينا من مدينة مدريد ، ونحن مقيمون بمدينة سان لوكار على البحر الكبير ، رسائل الكردينال وأهل ديوان إسبانيا لثلاثة أيام تمر من ساعة تاريخها ، فنقضي العجب من ذلك ، مع أن مسافة ما بينهما أكثر من ثلاثمائة ميل ، وكذلك يفعلون في سائر بلاد العجم . إلا أن الرقاص يحتاج في المسافة الأولى إلى خط يد المتوجه من عنده ، وأنه مرسل إلى البلد الفلانية ، ليعطيه ما يحتاج إليه من مركوب ومرافق .

فإذا أعطاه أول موكل من وكلاء البينطات ، صار ما يعطيه له بمثابة الكفيل والزعيم الضامن ، حذراً من أن يكون هارباً من فعلة فعلها ، أو شبه ذلك من الأمور التي يحذر منها ، وتلحق الوكلاء بسببها عقوبة ، أو تمكنهم في مثلها غرة ، فلا يحتاج بعد المسافة الأولى إلى تعريف ، ولا إلى بحث . ومعلوم عندهم ما يعطى في كراء الفرس والرفيق على كل ساعة .

وقد التزم الوكيل على شبه ذلك من المكوس ومحصولات الطاغية ، فالرقاص

---

(67) بياض في الأصل محل : «لهؤلاء» أضفناها لإتمام المعنى . (المحرر) .

(68) رقاقيص جمع رقاص في العامية المغربية : سعاة البريد . (المحرر) .

(69) لفظة إسبانية قديمة معناها : فندق ، خان ، نزل . (Venta المحرر) .

يعطي ما يجب عليه في كل مسافة ، وصاحب الفندق يعطي ما يجب عليه في تخصيصه بذلك ، لالتزامه إياه على رأس كل سنة . وأكثر محصولات العجم من المكوس وشبهها . ومن هذه الدار القريبة لشكلانة إلى بينطة أخرى معدة للنزول أيضاً تسمى بينطة سان اندريس ينزلها المسافرون على العادة ، وبالقرب منها قرى متصلة ومداشر عامرة .

وقد ورد علينا أهل هذه المداشر رجالاً ونساءً ، وورد حاكمهم وله بنات كبار ذات جمال[70] وأولاد صغار أتى بهم من مسافة ثلاثة أميال ، وهم إلى البداوة أميل منهم إلى الحضارة ، لبعدهم عن القواعد من المدن والحواضر .

ومن هذه البينطة على أربعة أميال موضع فيه وادٍ صغير ، وبينطة أخرى معدة للنزول ، وكنيسة يقصدها النصارى من كل موضع وقريةٍ أو مدينة .

ولهذه الكنيسة بستان عجيب فيه عين ماء عذبة ، وهي في أرض فسيحة على قدر مرأى العين .

وفي هذا الفسيح يعمر سوق مرة في السنة في اليوم الأول من شهر (كذا) فيقصده المسافرون وأهل التجارة والسبب (أي الرزق) من كل أوب ، وينهالون عليه من كل حدب ، فيعثر في وسط هذه البلاد من غير عمارة بناء خمسة عشر يوماً ، ويتفرقون عنه ، فلا يعتمر إلا بعد سنة في اليوم المعلوم من الشهر نفسه ، ويسمونه بلسانهم الفرية[71] ومعناها السوق .

ومن موضع هذا السوق إلى مدينة تسمى : المنبريلية ، وهي مدينة تدل على حضارة قديمة ، وأكثر هذه المدن اليوم تسمى قرى لتبديها وخلوها من معنى المدن وأثرها .

---

(70) في مخطوطة 2 : ذوات جمال .

(71) الفرية لفظة إسبانية معناها : المعرض وتطلق أيضاً على الأسواق التي تقام بالمواسم والأعياد . Feria . (Foire)

وحيث كان النصارى ، دمرهم الله ، لا اعتناء لهم ببناء الأسوار ، وإذا خرب السور أو دثر لا يجددونه ، لذلك لم يبقَ للمدن اسم إلا القرى ، وأرضها أرض فلاحة وحراثة ، وماؤها قليل جداً إلا ما في بساتينها وعراصيها من السواقي ، وبقرب هذه المدينة بقدر ميل مدينة أخرى تسمى :

مانسنارس وأجنتها[72] متصلة بجنينات المنبريلية ، وهي مدينة متوسطة إلا أنها أكبر من المنبريلية وأكثر منها حضارة . فحين أشرفنا عليها لقينا أناساً أعياناً من مدينة تسمى الماكرو على تسعة أميال من مانسنارس ، وهم أصهار النصراني الحلبي[73] الترجمان الوارد من قبل طاغية إسبانيا سفيراً ، وردوا من مدينتهم المذكورة ونزلوا بدار رجل كليريك[74] هو ابن عم لهم . والكليريك عند النصارى هو الطالب الذي قرأ علومهم وليس بافريلي ، إلا أن الكليريك ، أيضاً ، هو بمثابة الفريلي في عدم التزويج ، ولباسه مخالف للباس الفريلية ولباس غيرهم من سائر النصارى ، وهؤلاء الكليريكوس هم الذين يجعلون الميسات[75] ومعناها الصلوات ، ويخدمون في المساجد[76] آلةَ الموسيقى ويقرؤون كتب صلواتهم بألحان وأصوات منتقاة ، ومنهم من يختصي لتحسين الصوت وترقيقه ، وتحسين نغماته ، فلقد رأيت بمدريد عند الطاغية شابين خصيين من الطلبة ، وهما عنده بقصد قراءة الصلوات مع الموسيقى ، بالألحان التي يستحسنوها . وهؤلاء القوم الذين وردوا من الماكرو هم من أعيان المدينة ، ولهم هناك وجاهة ، وورودهم كان بقصد الملاقاة ، فسلّموا علينا ، وانقلبوا بنا إلى دار ابن عمهم

---

(72) قصد : جنائن . (المحرر) .

(73) وفي مخطوطة(أ) : الشامي النصراني الحلبي .

(74) يقصد بها لفظة اكليريكي : نسبة إلى الاكليرس .

(75) جمع ميسة وهو القدّاس . Misas .

(76) قصد : المعابد . (المحرر) .

المذكور .

وقد أعدوا داراً أخرى لنزول النصارى الذين في رفقتنا ، وأنفقوا على ذلك مالاً وافراً . وحين وصلنا المدينة وجدناها مينة مليحة وبطرفها قصبة صغيرة حصينة لها سور شاهق وأبراج ، ويدور بهذا السور سور آخر أقصر منه ، ويدور بالجميع حفير[77] منيع في أحسن ما يكون .

والمدينة بنفسها لا سور لها ، فدخلنا دار الكليريك المذكور ، ففرح بنا فرحاً شديداً ,أرانا جميع ما عنده من الصور وما في معناها . إذ كان معجباً بها ، وكثيراً ما تضرَّع ورغب في أن نساعفه في شرب شيء من الخمر أطنب في شكره ، وزعم أنه قديم عنده وله سنين عديدة . فقلنا له لا يحل ذلك في ديننا ، ولا يسوغ في ملتنا ، فجعل يشفق من شربنا الماء البارد صرفاً ، وبتنا عنده بعد أن أحضر من يقرب إليه من النساء ، كبنات عمه وأخواته حيث كان أعزب ، ومن الغد خرج معنا بنو عمه للتشييع ، إلى أن برزوا خارج المدينة ، ورجعوا إلى ديارهم وبلادهم .

المدينة المسلمة

ومن هذه المدينة المسماة مانسنارس إلى مدينة تسمى مورا ومعناها المسلمة ، وسبب تسميتها بذلك ، والله أعلم ، أنها ربما تأخرت عن جيرانها من المدن بشيء ما في التنصر . وما بين المدينتين من الكروم ما لا يحصى ولا يعد ، فقد سرنا طوال ذلك اليوم بين بساتين الكروم ، إذ لم يكن في هذه النواحي سوى الكروم ، وذلك لقرب المسافة بين أهالي هذه النواحي وبين مدريد ، لقد أكثروا من غرسه ليعصرونه خمراً[78] ويشربونه دائماً في كل حين من أحيانهم . وعند أكلهم أكثر شربهم الخمر ، فقلما تجد من يشرب الماء في جميع هذه البلاد . ومع كثرة استعمالهم الخمر ، فلا تجد أحداً منهم ثملاً ولا مغيب العقل . والذي يشرب منه الكثير حتى يصل منه

---

(77) المقصود : خندق للدفاع . (المحرر) .

(78) وفي مخطوطة (م) : لما يستعملونه من الخمور .

السكر فيزيّف ، ولا يعد عندهم شيء أصلاً ، وهذا الخمر الذي يشربونه ، منهم من يمزجه ، ومنهم من يشرب منه شيئاً قليلاً صرفاً . ولكثرة استعمالهم إياه ، وكثرة عمارة مدريد بأهلها وقُصّادها للسكنى والعمارة والتجارة ، يباع فيها الخمر بأغلى ثمن ، ويعطى عليه مكوس بباب المدينة ثلثا قيمته ، ولا يعبثون بذلك لعدم استغنائهم عنه في سائر أوقاتهم ، ولاستعمالهم إياه جميعاً رجالاً ونساءً ، صبياناً ، ذكوراً وإناثاً ، عموماً وخصوصاً ، رهباناً وقسوساً وشمامسة وفريلية وغيرهم ، بحيث لا يدع أحد شربه ولا يستغني عنه .

وبلاد مورا هذه هي مدينة متوسطة أقرب إلى الصغر ، وأهلها بمثابة أهل مانسنارس من الحضارة ومثلهم .

جسرٌ خشبيٌ على نهر طاخو

وحين خرجنا من مدينة مورا ، بعد ما بتنا بها ليلة ، سرنا نحو خمسة عشر ميلاً ، ووصلنا إلى وادٍ كبير يسمونه وادي طاخوا ، وهو مار بمدينة طليطلة ، وهي على يسار المار من طريقنا هذه بنحو ستة أميال ، وتظهر المدينة من هذا الموضع على بعد مرأى العين ، إذ هي في ربوة من الأرض . وعلى هذا الوادي المذكور ، وبهذا الموضع من الوادي الذي مررنا به ، دار كبيرة للطاغية ينزلها حين صيده بهذا الوادي وحوزه ، إذ عن يمين المارّ من جانبي الوادي غياض وأشجار ملتفة ، وهي ممنوعة محمية بقصد اصطياد الطاغية وقنصه ، فلا يقدر أحد على الدخول إليها ، ولا على الاصطياد بها . وحيث كانت هذه الطريق ، هي المرور عليها لمدينة مدريد وقشتالة وغيرها ، ولم تكن على هذا الوادي قنطرة للعبور ، جعلوا به أخشاباً(79) كبيرة ملصقة بعضها لبعض ، وربطوا بها حبالاً من العدوتين ، فإذا وردت القافلة ، أو الجماعة من الناس ، أو

(79) في الأصل : بياض . وتقديرنا أن المفردة : أخشاب ، كانت موجودة ، وسقطت . (المحرر) .

الكدش ، أو الغليرة[80] ذات الكراريط[81] يقرب المركب إلى شفير الوادي ، فتطأ عليه الدابة من غير تعب ولا مشقة ، ويجذب المركب إنسان واحد من العدوة الأخرى ، فلا يشعر الإنسان – وهو في كدشه أو على دابته – إلا وقد عبر النهر وحصل في العدوة الأخرى بسهولة . وعلى ذلك جعل قليل لا بال له .

وهذا الوادي بهي المنظر ، رحب الفناء ، فسيح الأرجاء ، عليه من البناءات والقرى والأرحية شيء كثير ، وعليه من المزارع ما لا يحصى ، ويُصطاد بهذا الوادي السمك ، إلا أنه قليل جداً .

طريق إلى مدريد

ومن هذا الوادي على مسيرة أميال قرية تسمى بنكص ، وهي قرية بدوية لا حضارة بها ، أهلها الغالب عليهم البداوة وبها كان مبيتنا يوم مرورنا بهذا الوادي ومنها رحلنا يوم الذي دخلنا مدينة مدريد ، إذ بينهما عشرون ميلاً ، وفي ما قبل مدينة مدريد على ستة أميال مدينة كبيرة تسمى خطافي .

وهي كبيرة جداً ، إلا أنها لما كانت قريبة من حاضرة مدريد ، أصبحت مدريد في هذا الزمان هي الحاضرة ، وبها استقر طواغي إسبانيا فانتقلت حضارة هذه المدينة وغيرها من جميع حواضر إسبانيا إلى مدريد . فوصلنا إلى مدينة خطافي هذه عندما انتصف النهار ، فلقينا بها رجلاً من أعيان خدام الطاغية يسمى كرلوص ذو القسطيلي ويلقب بالكندي[82] راكباً في كدش الطاغية نفسه وقد وجّهه للملاقاة ، إذ إن هذا الكندي هو المعين عنده للقاء الوفود الواردة عليه من ممالك أخرى إسلامية وغيرها ،

---

(80) الغليرة : يقصد بها لفظة إسبانية Galera ومعناها العجلة كما استعمل ذات الكراريط ويقصد بها لفظة Carreta .

(81) جمع Carreta ، العربة . (المحرر) .

(82) وفي مخطوطة (م) : القندِ

وهذه هي خطة هذا الكندي لا غـير ، وله عليها من الراتب[83] ثلاثة آلاف ريال في كل سنة . وحين لقينا ترجل وسلم نائباً عن عظيمه ، وأركبنا في الكدش الذي أتى به ، بعد أن رحب وأظهر من البشر ما أظهر ، وسار بنا قاصداً إلى مدريد ، فحين قربنا منها بقدر ميل رأينا خلفاً كثيراً برزوا للملاقاة ، منهم صاحب الكدش والمترجل والفارس ، وغيره .

فوصلنا إلى المدينة وإذا هي على ربوة من الأرض في شفير وادٍ كبير ينحدر من جبال كثيرة الثلوج ، وهي الفاصلة بين هذه البلاد وبين قشتالة المعروفة بقشتالة القديمة . ومدريد هي في قشتالة التي يسمونها قشتالة الجديدة ، وهذا الوادي هو كثير المياه في زمن البرد ، لما يحصل بهذه الجبال المذكورة من الثلوج . ويسمى هذا الوادي مانسنارس وعليه قنطرتان ، إحداهما مبنية أحسن بناء ، والأخرى خربها السيل ، والآن يجمعون الإقامة لبنائها ، وقد بنيت سواريها ، وجعلوا عليها خشباً وثيقة يعبر عليها الكدش والقراريط[84] وغيرها ، وسائر الناس .

فدخلنا المدينة ، وإذا هي مدينة كبيرة جداً ، مليحة البناء ، واسعة الفناء ، فسيحة الأرجاء ، وبها من الخلق عدد كثير .

فلقينا من بها من الأسرى وهم فرحون مسرورون ، معلنون بلفظ الشهادة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والدعاء بالنصر لسيدنا المنصور بالله تعالى ، وصبيان النصارى يقولون مثل ما قالوا[85] ولقد مررنا حين دخولنا على دار الطاغية ، فرأيناه واقفاً في طاق ينظر من وراء الزجاج ، فقيل لنا هو ذاك ، والأسرى معنا على ما هم عليه ، ومرّ بنا في أزقة واسعة كلها مفروشة بالحجارة ، إلى أن وصلنا داراً هي بقرب دار الطاغية ، وهي دار كبيرة معدة لنزول من يرد من بلدان بيدة من غير جنس النصارى ، إذ عوائدهم في ذلك أن ينزلوا عنده ثلاثة أيام ، وينظرون لأنفسهم دياراً يسكنونها حيث كانوا يردون بقصد المقام والسكنى . فإن من عوائد ملوك العجم أن

---

(83) وفي مخطوطة (م) : المراتب .

Carretas (84)

(85) وفي مخطوطة (م) . مثل قولهم .

يبعثوا إلى ملوك أمثالهم مراسيل يسمونهم الانبشادورين[86] يكونون هنالك وسائط بينهم وبين الملوك ، في ما يعرض لبعضهم عند بعض من المخاطبات وغيرها . ومن ورد من غير هذه الأجناس ، ينزل في تلك الدار إلى أن ينصرف ، مثل وفود الترك التي وردت على إسبانيا ، في ما قيل ، منذ أربعين عاماً . زعموا أنها من اسطنبول ، والصحيح أنها كانت من بعد بعض السفهاء الذين يريدون التخليط على ملوك القسطنطينية[87] .

وفد روسي

وفي ما قبل هذا بثلاثة أعوام ورد وفد من بلاد مسكوبيا ، وهي بلاد بعيدة في ناحية القطب الشمالي ، وردوا على عظيم إسبانيا يخطبون من أمه ابنة أخت لها في بلاد ألمانيا ، أراد ملك مسكوبيا تزويجها ، بحيث لم يرغب أهلها في تزويجه إياها ، أسندوا أمرها إلى خالتها ، ودفعوهم إلى إسبانيا . وهذا هو سبب قدوم وفد مسكوبيا إلى هذا الطاغية ، فيما ذكر[88] .

وحين دخلنا هذه الدار وجدناها داراً كبيرة جداً ، وقد شحنت بالفرش والتعاليق وجميع الإقامة ، ووجدنا بها قيماً كان يعمرها ، وهو من خدام الطاغية الموكلين بفراشه ، فأدى إلينا سلام ملكه بعد ترحيب كثير ، وأقمنا هنالك اثني عشر يوماً .

وكان دخولنا لمدريد عشية يوم السبت السابع من شهر ربيع النبوي عام 1102 . وفي مدة اثني عشر يوماً ، كان يرد علينا من قبل الطاغيةِ الكنديُّ الموكل بنا ، وقيِّم الدار ، وأعيان آخرون ، صباحاً ومساء نائبين عن عظيمهم في السلام ، ويقولون : إنه

(86) السفراء

(87) وفي مخطوطة (م) : قسطنطينة .

(88) يذكر كراتشكوفسكي في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي العربي- القسم الثاني» ص 734 إلى أن الغساني الذي ذكر سفارة من «مسكوبيا» زارت أسبانيا قبل مجيئه بثلاثة أعوام ، ربما كان يشير إلى سفارة روسية زارت فرنسا وأسبانيا في عام 1687- 1688 كما يستفاد من مصادر أخرى . (المحرر) .

أراد استراحتكم من تعب الطريق ، وهو يتهيأ لملاقاتكم ، ويستعد لدخولكم عليه استعداداً كثيراً ، ويتأهب تأهباً كبيراً .

وحين كملت اثنا عشر يوماً قدم علينا الكنديُّ الموكل بنا يعلمنا بتهيؤ عظيمه للملاقاة ، وبدأ يستفهمنا عن حال سلامنا ، لنخبره به قبل دخولنا عليه ، لكونه لم يتقدم له قبل ملاقاة مع أحد من أهل ملتنا ، أعزها الله تعالى . فأخبرناه بسلامنا من بعضنا على بعض ، وسلامنا على غير أهل ديننا ، وإنه قول : «السلام على من اتبع الهدى» . من غير زيادة عليها .

فانصرف عنا مخبراً له بذلك ، فقضى العجب من السلام الذي أخبره به من كونه لم يعتد ذلك ، ولم يمكنه إلا قبوله ، حيث عرف تصميمنا على ذلك ، وعزمنا عليه من غير زيادة . فانقلب الكندي المذكور وبيده ورقة مكتوب فيها صفة الدخول من بالباب من المعينين للقائنا ، ومن أمامهم ، لنكون على بصيرة في أمرهم ، وقال إنه يلقاكم الميوردوم(89) ومعناه الوكيل عند الباب الفلاني ، ومعه من الأعيان كذا وكذا ، ومعه من الشلطاظ أهل الوردية(90) كذا وكذا ، وبالباب الفلاني كذا وكذا ، وسيلقاكم عند الباب الفلاني الأعيان من الدوكيس وأمثالهم .

موعد مع الطاغية

ومن الغد ورد علينا في وقت معلوم ، بعد أن تهيأ عظيمه للملاقاة ، وقصد بنا إليه ، فوجدنا أهل المدينة وقد اجتمعوا كلهم نساءً ورجالاً ، فلم نصل دار الطاغية إلا بعد جهد وعناء لكثرة ما اجتمع من الخلق . فحين قربنا من الباب ، لقينا الوكيل الميوردوم ومعه من معه من الأعيان والشلطاظ ، فسلَّم ورحب ودخل بنا الدار ،

---

(89) وفي المخطوطة(م) : الميردوم . Mayordomo .

(90) يقصد بها لفظة إسبانية : كوارْديا Guardia ومعناها الحرس . (والوردية في العربية الدارجة هي المجموعة من الناس التي تعمل بالتناوب مع مجموعة أخرى ، والأصل هي الواردية وهي الجماعة من الناس ، أو الماشية التي ترد الماء- المحرر) .

ويسمونها البلاصيو ، ومعناه المشهور ، فجعلنا نمر بالجماعات من الأعيان والأكابر ، فيسلمون ، ويقف كل عند حده المعلوم ، إلى أن دخلنا قبة كبيرة لقينا ببابها كاتب الديوان الكبير ، وهو رجل كبير السن بلغ منه الكبر إلى أن انحنى ، فلقينا أحسن الملاقاة ، ومعه جماعة من الدوكيس والكنديس ، ودخل بنا قبة أخرى لها باب ، ومن هذه القبة وجدنا الطاغية واقفاً على قدميه ، وقد جعل في عنقه سلسلة من ذهب ، وتلك هي عوائد ملوك العجم ، إذ هي عندهم بمثابة التاج ، وعن يمينه طبلة من ذهب مرصعة ، أعدَّها وصنعها أيام مقامنا بعد وصولنا ، ليجعل عليها البراءة السلطانية ، إجلالاً وتعظيماً لمرسلها أعزه الله تعالى . وعن يمين الطبلة وزير له يسمى القندي اسطابلي[91] وهو وزيره الذي بيده الخارج والداخل والنظر في الدار ، وفي جميع أمور الطاغية الخاصة به وبعياله وداره ، وهو من أعيان أهل الديوان ، وعن يمين الوزير المذكور زوجة الطاغية ومعها من الضامات[92] وبنات الأكابر عدد كثير ، وعن يسار الطاغية وزراء آخرون . فحين دخلنا عليه رحب وهش وبش ولم يقصر في الترحيب والإكرام ، وسأل عن سيدنا المنصور بالله تعالى سؤالاً كثيراً ، وحين ذكره أزال شمريره من على رأسه إجلالاً وتكريماً ، فقلنا له : بخير ، يحمد الله تعالى . وناولناه الكتاب المبارك السلطاني بعد تقبيله ووضعه على الرأس ، فتناوله وقبله وجعله على الطبلة المعدَّة له ، بعد أن رفع أيضاً ما على رأسه .

ثم إنه بدأ يستفهمنا عن أحوالنا في الطريق ، وما لقينا من تعب ومشقة ، فقلنا له خيراً وجازيناه على فعله ، وعلى فعل خدامه الذين تلقونا في طريقنا ، ففرح بذلك وأعجبه . وبعد أن مرَّ بنا الكلام قال : الحمد لله على سلامتكم ، وسنعيد الكلام في ما أتيتم لأجله في وقت آخر . فخرجنا من عنده ، وخرج معنا من كان معه للتشييع قاصدين محل نزولنا وموضع مقامنا .

والطاغية هذا هو رجل صغير السن له نحو ثلاثين عاماً ، وهو أبيض اللون قصير

---

(91) الكندِسطابلي .

(92) الضامات يقصد بها جمع ضاما Dama وهي السيدة .

القامة ، وجهه مائل إلى الطول ، واسع الجبهة يسمى[93] كرلوس سكوند[94] ومعنى سكوند الثاني ، ويعنون به ثاني اسم كارلوس من سلفه ، وأصله من أفلانض بلاد الفلامنك ، وليس هو من نسل طواغي إسبانيا الذين حاربوا المسلمين وتغلبوا على البلاد الأندلسية وقشتالة وغيرها من هذه البلاد . دمر الله جميعهم وأخلى منهم الأرض ، وعمرها بدوام ذكره وتوحيده ، وذلك أن طاغية من الطواغي الأول واسمه فرنند سانطو[95] الذي تغلب على غرناطة ومن بقي بأحوازها من المسلمين ، كان قاطناً بقاعدة إشبيلية ، أعادها الله دار إسلام .

ولما مات هذا الطاغية خلف ولداً يسمى فرنند باسم والده ويلقب كاطولِكُ ، مَلَكَ بعد والده سنين قليلة ، ومات ولم يخلف ولداً ذكراً ، فملكت بعده زوجته زابيل[96] ابنة ملك راغون ، وراغون هي قاعدة من قواعد مدن هذه العدوة ، ودارُ مُلْكٍ . وقد أقامت في ملكها سنين ، وكانت تخرج وتدخل وتركب الفرس وتركض وتتصرف بالرجال .

آثار غزو أميركا!

وفي عهدها وزمانها اكتشف بعض رؤساء البحر من جنس إسبانيا بلاداً من الهند الذي بيدهم اليوم[97] ورأى أهلها فوضى وهم بمثابة الدواب ولا عدّة لهم ، وإنما كانت عدتهم العيدان ، يركِّبون فيها حجراً م حجر الزناد ويقاتلون بها . فحين رآهم على تلك الحالة ، وعرف ما هم عليه من الغرة والبلادة ، رجع إلى إسبانيا مخبراً للملكة زابيل بذلك ، فجهزت له ثلاثة مراكب وأصحبت معه خويلة ومدافع ، فقصد ذلك الموضع

---

(93) وفي مخطوطة مدريد واسمه .

(94) وفي مخطوطة مدريد : شكوند .

(95) سان فرنند San Fernando .

(96) ازابيل Isabel .

(97) يريد اكتشاف أميركا : ورئيس البحر يقصد به كريستوف كولمبس .

الذي عيَّنه ، فنزله ، فحاربه أهل تلك البلاد ، فغلبهم ، وملكهم ، وقبض على ملكهم ، ولم يزالوا يملكون في الهند بلداناً كثيرة ، وأقاليم متسعة يجلبون منها كل سنة ما يغنيهم .

وبحصول هذه البلاد الهندية ومنفعتها وكثرة الأموال التي تجلب منها صار هذا الجنس الاسبنيولي اليوم أكثر النصارى مالاً وأقواهم مدخولاً ، إلا أن الترف[98] والحضارة غلبت عليهم ، فقلما تجد أحداً من هذا الجنس يتاجر أو يسافر للبلدان بقصد التجارة ، كعادة غيرهم من أجناس النصارى ، مثل الفلامنك ، والإنجليز ، والفرنسيس ، والجنوبيين ، وأمثالهم ، وكذلك المهنة[99] التي يتداولها السَقَطَةُ والرعاعُ وأراذلُ القومِ ، يتأبى عنها هذا الجنس ، ويرى لنفسه فضيلة على غيره من الأجناس المسيحيين .

وأكثر من يستعمل هذه الحرف المهينة في بلاد إسبانيا جنس الفرنسيس ، وذلك حيث كانت بلادهم ضيقة المعاش والأرزاق ، صاروا يتقلبون في بلاد إسبانيا ، بقصد الخدمة واقتناء المال وجمعه ، ففي أيام قلائل يجمع أموالاً جمة ، ومنهم من يرغب عن بلاده ويستوطن بهذه البلاد ، وإن كانت غالية الأسعار ، فإن موردها كثير ، وجل هذا الجنس يعد نفسه من أتباع المخزن[100] أو من الجيش ، ويردع نفسه عن خدمة الصناعة ، أو عن السبب[101] والتجارة ، رجاء أن يعدَّ من الكبار ، أو يورثها لخلفه إن لم يدركها .

فإن من عوائدهم ، دمرهم الله ، أن جميع أهل الصناعات والحرف والتجارة ، لا يركب في الحاضرة التي بها الطاغية كدشاً ، وإذا أحب أحد منهم الكبيرة أو التقرب من المخزن ليعد من أتباعه ، يترك هذه الأسباب الذي يعير بها من الحرف ، رجاء أن يلحقها عقبه من بعده . وأما هو في خاصة نفسه فلا يدركها ، ولو سعى فيها ما

---

(98) وفي مخطوطة تطوان : الترفي .

(99) وفي مخطوطة (م) : الحرفة .

(100) ورد شرحها قبلاً . وللتذكير : اصطلاح وضعي مغربي يراد به الحكومة . (المحرر) .

(101) السبب : أو الرزق . وتستعمل في العاميات الشامية بالمعنى نفسه . (المحرر) .

سعى ، إلا إذا كان تاجراً ذا مال كثير ، من التجار الذين لا يرفعون ميزاناً ، ولا يجلسون في دكان ، مثل التجار الكبار الذين لهم المتاجر العظيمة والأموال الجسيمة التي أغنتهم عن البيع والشراء في الحوانيت والأسواق . فإن هذا يلحق الكبيرة مع تركه للتجارة وعدم التفاته إليها أصلاً .

أهل الكبيرة: السراة!

والكبيرة عندهم هو : أن يعمل على كتفه صليباً في ثوبه برقم معلوم عندهم ، وهي درجة كبيرة لا يدركها إلا من له قدم في النصرانية ، ويعد لنفسه فيها سبعة أجداد بإشهاد من نصارى كل زمان ، وإنهم يعرفون أباه وجده ، وسمعوا من غيرهم ومن كبار سنهم أن فلاناً من ذرية فلان هو نصراني ابن نصراني إلى السابع من أجداده ، ليس في أحد منهم لمز ولا شائبة ولا تهمة يهودية أو غيرها ممن هو ليس بمسيحي (102) .

فحينئذ يؤمر بوضع الصليب على كتفه ، بعد أن يعطي عليه أموالاً لأهل الديوان ، وبعدهم للفريلية الذين يعطونه الأذن فيه أيضاً ، ويكون على مذهبهم وطريقتهم الضالة . وهذه العلامة الصليبية لا يلحقها - كما قدمنا - إلا من لهم عراقة أصل في النصرانية ، أو الذين هم من جنس الأندلس وكانوا أكابر قومهم وتنصروا لأغراضهم ، فأعطوا حينئذ تلك العلامة ، وهي دالة على عراقتهم في الأصالة لعهد إسلامهم ، وعلامة على كبيرتهم في هذا الدين الفاسد ، والعياذ بالله (103) .

ولنرجع إلى ذكر التعريف بهذا الطاغية ، ونذكر سلفه ومن أين حصل له ملك

---

(102) يشير الرحالة هنا إلى أجواء الشك التي أحاطت بإيمان المورسكيين ، أو المسلمين المتنصرين ، الذين تعامل ديوان التفتيش معهم بصفتهم مسلمين تقنعوا بالمسيحية . (المحرر) .

(103) يستفاد مما يذكره الغساني أن أحكام ديوان التفتيش كان تنطبق على عامة المورسكيين ، في حين عومل أمراؤهم وكبراؤهم معاملة مختلفة ، وهذا يتناقض مع ما يذكره الرحالة في مكان آخر عندما يذكر أن الملك الإسباني نفسه لم يكن يجرؤ على التوسط لصالح متهم من قبل الديوان حتى لو كان في حاشيته . (المحرر) .

إسبانيا وغيرها ، كبلاد افلانضس وسائر عمالته التي تحت ولايته ، فهو : كارلوص2 سكوند ، بن فيليب ٤ كوارط ، بن فيليب 3 طرسيرو ، بن فيليب 2 سكوند ، بن كرلوص كينطو ، بن فيليب الموصو ،[104] وهذا هو كندي عظيم من أهل فلانضس له بها ذكر وصيت وولاية . وحين تُوفي فرناند كاطوليك القاطن بإشبيلية ، كما قدمنا ذكره ، ولم يخلف ولداً ذكراً يلي ملك أبناء جنسه من بعده ، ملكت بعده زوجته إزابيل ، وكان لإزابيل هذه ابنة تسمى كوانا زوجتها إزابيل من كندي فلانضش المسمى فيليب الموصو ، ومعنى الموصو عندهم الشاب الحسن إذ كان يضرب به المثل عندهم في عصره لحسنه وجماله فصار بسبب ذلك علماً عليه الموص[105] .

ولما ماتت الملكة إزابيل ، وكانت ابنتها من الملك فيرناند متزوجة في فلانضس ، بعثوا إليها لترث ملك سلفها . فقدمت ببعلها فيليب الموصو ولها منه ولد صغير يسمى كرلوص كينطو (الخامس) ويعنون به خامس اسم كرلوص باعتبار من تقدم من سلفه ، فسمي بهذا الاسم وهو أول اسم ملوك إسبانيا من هذا النسل .

وباعتبار أوليته يلقب حفيد حفيده بسكوند الذي معناه الثاني .

فملكت ابنة فرناند ملك إسبانية مع بعلها ونشأ ولدها كرلوص كينطو هذا داهية طاغية من طواغي الكفرة ، ذا بأس ومكر ودهاء وخبث ، لم يوطن نفسه ، منذ نشأ وترعرع وكبر وفطن ، عن دعة ولا راحة ، إلى أن ملك وحكم ، فتقدم إلى تمهيد البلدان وتدويخها في جميع أقطار بلاد الكفرة المسيحية ، وسافر ، وحرك ، وساق الجيوش والمحال براً وبحراً ، فلقد حسبوا سفراته البحرية فكانت تنيف على عشرين مرة .

فشل في الجزائر

وهو الذي تقدم إلى الجزائر بعمارة كبيرة من السفن والأغربة تنيف على ثلاثمائة مركب ، وقد حمل معه في مراكبه آلات البناء وإقامته من جير وأحجار وفعلة

(104) ملوك كاثوليك . انظر عن حياتهم في ملحق تراجم الأعلام . (المحرر) .

(105) فيليب أرموصو Felipe Hewmoso .

وعملة ، وأرسى عليها ليلاً ، فلم يرعهم[106] حين أصبح الحال ، إلا وبرج مطل عليهم في غاية التوثيق والتحصين ، وقد نصب عليه المدافع والأنفاض .

وصار يهدم بذلك جدرانهم ويخرب حيطانهم وديارهم وأسوارهم ، وهم في غاية الضيق والمحنة ، وقد أشرف على أخذهم ، فأبى الله سبحانه إلا نصر دينه القويم ليظهره على الأديان كلها ، فهاج البحر وتلاطمت أمواجه فغرقت جميع مراكبه التي قدم بها ، فلم ينجُ الطاغية إلا في سبعة مراكب بما حملت من القوم ، وقاسى في البحر الشدائد .

فهنالك ذكروا أنه قلع تاجه عن رأسه ، ورمى به إلى البحر ، وقال : «من أراد أن يلبس التاج فليقدم إلى الجزائر ويأخذها .» . وأفلت هو ومن حملته المراكب السبعة التي أفلتت .

وكرلوص كينطو هذا هو الذي حاصر تونس أيضاً في سفرته هذه التي مر فيها الجزائر .

والبرج الذي بناه على الجزائر هو البرج المعروف عندهم اليوم ببرج مولاي حسن ، وهو باقٍ إلى الآن في غاية الإتقان والبناء ، ومشرف على المدينة قريب منها ، على قدر رمية مدفع ، وهو عن يمين الخارج من باب عزون .

ولقد دوخ هذا الطاغية أقطاراً من بلاد الأندلسية ، وغيرها من بلاد فرنسا وألمانيا وبلنسية ، وغيرها . وهو الذي قدَّمنا ذكره إذ حرب ملك الفرنسيس وأسره ، وأتى به إلى مدريد ، وأطلقه بعد ذلك بفداء .

وكان من خبر هذا الطاغية ، أنه لما ملك هذه النواحي من بلاد العدوة ، إلى أن ملك ألمانية وكبر ، وكان له ولد يسمى فيليب سكوند[107] ومعناه الثاني من هذا الاسم باعتبار جده الكندي القادم من فلانضس ولاه ملك إسبانيا وفلانضس وميلان ، وكان لكرلوص أخ يسمى فرنانذُ ولاه ألمانيا ولقبه بالانبرادور ، ومن نسله هذا الطاغية الموجود اليوم أهلكه الله ، وحين وليّ ولده وأخاه ، ترهّب ودخل كنبينطو الفريلية ، وصار من جملتهم وواحداً منهم .

---

(106) وفي مخطوطة (1) فلم يروا .

(107) فيليب الثاني 1537-1598 . (المحرر) .

زعم أنه تزهد وترهب في مدينة تسمى بلانصيا من عمالة قشتالة على أربعة وخمسين ميلاً من مدينة مدريد ، وزوجته إزابيل كانت قبل ترهبه . وهي ابنة ملك البرتغال أخت سباستيان الخارج إلى برنا صحبةً ، مستصرخة ولد مولاي عبد الله .

ولما ملك فيليب 2 سكوندو هذا ، كان طاغية من أخبث أهل زمانه ، وحرك أيضاً إلى البلدان ، وحاصر قاعدة من قواعد مدن الفرنسيس ، ونصب عليها المدافع والانفاض رجاء أن يهدمها ، فزعموا أن كنيسة بالمدينة التي كان حاصرها تنسب إلى راهب يسمى لورينصو[108] حالت بين المدينة وبين رماية المدافع ولم يحدث في المدينة شيئاً ، فحين طال حصاره عليها ، ولم يكن بداً من هدم هذه الكنيسة المانعة له من أن يصيب المدينة ، نذر أن يبني كنيسة أخرى أعظم منها وينسبها إلى اسم لورينصو هذا ، فنصب المدافع قبالة الكنيسة وهدمها وأصاب منها المدينة ؛ وحين رجع بنى الكنيسة التي نذر على نفسه بناءها ، وهي المسماة عندهم بالاسكوريال ، والاسكوريال هذا هو في سفح الجبل القريب من مدريد ، وهو من البناءات الهائلة وسنذكر وصفه في محله إن شاء الله .

وفيليب سكوندو هذا ، فيما زعموا ، أنه كان اجتمع بخاله سباستيان[109] طاغية البرتغال الذي خرج إلى بلاد الغرب في عهد السلطان مولاي عبد الملك ابن السلطان مولاي محمد الشيخ صحبة مستصرخةِ ولد مولاي عبد الله . وكان فيليب هذا لما سمع بخبر خروج خاله إلى برّ المسلمين ، تقدم إليه وتكلم معه في ذلك ، فأشار عليه بالجلوس ، وأن لا يتعب ويورط نفسه في بلاد الغرب ، ويدافعه بما أمكن ، ولا يحمل نفسه على صرخته ، لعدم معرفته بالبلاد ، ولخروجه عن وطنه إلى وطن آخر ليس هو له ، ولا قدرة له على مقاومة المسلمين إذ ذاك ، لوجود الملك بالمغرب .

وزعموا أن المستصرخ[110] كان يستظهر له برسائل من بعض قبائل المغرب ، وأنهم من حيزه وحزبه ، فأبى مع ذلك طاغية البرتغال ، إلا تمادياً على رأيه ، ولم ينصت

---

(108) سان لورنصو San Lorenz .

(109) ضون سباستيان ملك البرتغال Don Sebastian .

(110) يقصد به محمد ولد مولاي عبد الله .

لنصيحة ابن أخته ، ولا إلى قوله ، فقدر الله تعالى للمسلمين في خروجه ذلك غزوة عظيمة لم يعهد بمثلها منذ زمن بعيد ، وفي يوم هذه الغزوة المباركة تُوفي السلطان عبد الملك بمرض كان لزمه في طريقه حين ذهابه لقتال النصارى حين سمع بخروجهم .

والنصارى يذكرون شجاعته وقوته ، ويقولون أنه كان يقاتل بسيفه مع مرضه ، إلى أن غلبه المرض ومُنع من القوة الحاملة له على القتال ، فمات رحمه الله .

وفي ذلك اليوم مات ولد أخيه محمد بن عبد الله قتيلاً ، وقتل سباستيان ، ومات جميع من كان معه من النصارى ، ولم يفلت منهم إلا النزر القليل الذي لا يعد لنزره ولقتله ، وكان عدد النصارى ، على ما هو معروف عندنا ، ثمانين ألفاً .

والنصارى يزعمون أن مبلغ الجيش الذي كان مع سباستيان في خروجه ذلك ثمانية عشر ألفاً .

فمن جنس البرتغال اثنا عشر ألفاً ، ومن الإنكليز ثلاثة آلاف ، أتوه مدة الصلح والمهادنة التي كانت بينه وبينهم ، ومن إسبانيول ثلاثة آلاف أمده بها ابن أخته فيليب سكوندُ .

والصحيح ما هو مقرر عند المسلمين من العدد المذكور ، وبسبب عدم قبول طاغية البرتغال نصيحة ابن أخته وتوريطه نفسه في بلاد الغرب ، ينسبونه إلى الحمق وخفّة العقل . وتلك العزوة المباركة هي سبب ضعف الجنس البرتغالي إلى اليوم ، دمره الله .

وحين قتل سباستيان ، ووقع في جنس البرتغال ما وقع ، لم يكن لطاغيتهم ولد يلي الملك من بعده ، وكان له في ما يزعمون أخوان ، أحدهما كردينال ، والآخر ولي بعده أياماً قلائل ، ومات من غير عقب . فحين انقطع نسل ملوكهم بموت هذين ورث فيليب سكوند ملك البرتغال من جهة أمه إزابيل على طريقة قوانينهم ومذاهبهم في وراثة الملك للمرأة إذا لم يكن ذكر .

وفي زمن فيليب سكوندُ هذا ، ثار من بقي من جنس الأندلس ، بعد تغلب النصارى عليهم بغُرناطة وأحوازها ، إذ كانوا سمعوا بورود مراكب من الجزائر التي أتى بها حبيب رايس[111] ونزل بجوار ألمرْية ، ظناً منهم أنه يمنعهم ، فحمل من قدر عليه

---

(111) وفي مخطوطة 1 جيب رايس .

في مراكبه من أهل المرية وما والاها ، وعبر إلى بلاده ، فعجز الثوار من الأندلس حينئذ عن مقاومة النصارى ، فأوقعوا فيهم السيف ، وتنصر من تنصر منهم رغماً بعد ما هرب من هرب[112] .

وبقوا على ذلك نحواً من أربعين سنة إلى زمن فيليب طرسيرو ولد فيليب سكوندو وهم على حالهم من التنصر والتغلب عليهم .

فزعموا أن ملك الترك كتب حينئذٍ كتاباً إلى وزير فيليب طرسيرو يطلب منه أن يتسبب في إخراج من بهذه العدوة من بقايا الجنس الذي غلب عليه ، ويتخذ عنده بذلك يداً وصحبة ، فاحتال الوزير بأن أشار على مخدومه بإخراج البقايا من الأندلس الذين بينهم وبين دينهم عهد قليل ، وما زالوا إلى الآن جلهم في قيد الحياة ، وعددهم هو أكثر من عدد النصارى : فإننا لا نأمن[113] من ثورتهم مرة أخرى ، فالأولى أن يجلوا من هذه العدوة ، وتحسم مادتهم ، ويعبر بهم البحر ليتفرقوا في البلاد البربرية ، وبقاؤهم في بلادهم التي ربوا فيها محذور[114] . فقبل الطاغية من وزيره ما أشار به عليه ، وأمر بجمعهم وعبورهم البحر ، إلا من كان تنصر بغرضه ، وهم أكثر عدداً ممن تنصر رغماً ، أو اختفى تحت أحد وامتنع بأحد ، ولم يعلم به . وعلى كل حال ، فحيث كانوا عدداً كبيراً لم يكن الاستقصاء في تفتيشهم في جميع العدوة لاختلاطهم ونسيانهم الإسلام ، وجل الخارجين في ذلك العهد من العدوة ، أهل غرناطة وأحوازها من الثائرين ، وكانوا عدداً كثيراً . والنصارى ، بسبب إشارة الوزير على عظيمه بإخراج من خرج بعد تنصرهم ودخولهم دين النصرانية ، يلمزونه باليهودية لعدم نصحه لدينهم ، بإخراج هذا العدد ، بعد أن حسبوا نصارى .

---

(112) يقصد الثورة التي قام بها ابن حميّا ، واسمه الحقيقي فرنندُو دي فلور وكان رئيس عرب غرناطة عندما أهاجوا ثورة على الملك فيليب الثاني . (Aben- Humeya (Fernando0 de Valor) .

(113) وفي مخطوطة أ : ولا نأمن .

(114) يقصد : محظور . (المحرر) .

ولمز بعض النصارى باليهودية كثير ، وبسبب ذلك لهم بمدريد ديوان فيه من علماء ملتهم عدد كثير ، وكلهم من ذوي البين الكثيرة ، يسمون ديوانهم الانكِشيون[115] يبحثون عمن فيه لمز من يهودية ، ولو بأدنى سبب ، فيقبضون ليه ويجعلونه في السجن ، بعد أن يأخذوا ماله وجميع أمتعته وذخائره ، فيقتسمونها بينهم من حينه ، ويتركونه في السجن سنة ، ثم يسألونه حينئذ عما هو ملموز به ، فإذا أنكر يقولون له علامة صدقك هو أن تخبر عمن وشى بك أو اتهمك ، فيعد لهم واحداً واحداً إلى الثالث فإذا كان الواشي الذي وشى به أحد الثلاثة الذين سمَّاهم ، ويقول إن فلاناً كان بيني وبينه عداوة في زمن كذا ، من أجل كذا ، وصدق فيه ظنه وتوهمه ، يجد بيده حجة للخصام والذب عن نفسه ، فيطول خصامه مع هذا الديوان إلى أن يتناسى ما نسب إليه ، ويريد مع ذلك خلاص نفسه فقط ، فهنالك يخرج .

وإن ثبت عليه ما اتهم به أو أقرّ على نفسه ، يلزمونه الخروج عن دين اليهودية والدخول في دين النصرانية ، فإن هو رجع عنها ودخل دين النصرانية ، يخرجونه ويطوِّفونه ، ويعرفون به في الأسواق ، ويجعلون له على كتفه صليباً أصفر يكون ذلك اللون هو إشارة كونه من اليهود ، وعلامة على تنصره ، فيبقى بذلك الصليب ستة أشهر ويزيله ، فيصير حينئذ من جملة النصارى . وإن هو أقر على نفسه باليهودية ، أو ثبتت عليه بإشهاد ولم يرجع عن اعتقاده يحرقونه بالنار من غير قبول شفاعة فيه . وذلك هو السبب في عدم دخول اليهود سائر بلاد إسبانيا والبرتغال ، وهذا الديوان المذكور هو المعين للبحث عن هذه المسألة وأشباهها ممن يطعن في دينهم ، أو يشتمون عليه رائحة شيء مما يعيبه ، ولا يقدر أحد على الطعن فيهم أو يلمزهم بباطل أو شهوة ، فيجدون عليه سبباً ، وللوثوب عليه سلَّماً .

ولا يقدر أحد على فكاك أحد من أيديهم ولو كان الملك بنفسه؟ وإذا لمز أحد

---

(115) الانكسيشيون : هو ديوان التفتيش المشهور La Santa Inquisicion .

بشيء من ذلك ودخل تحت جناح الملك محترماً به ، لا يقدر الملك على احترامه ، ولا على منعه منهم ، حتى إذا كان وزيراً من وزرائه ، أو من خدامه أو قواده ، وشموا عليه رائحة من ذلك ، يقبضون عليه أينما وجدوه ، سواء مع الملك ، أو في كنيسة ، أو في غيرها .

يهود الأندلس

ولقد اتهموا أيام مقامنا بمدريد أحد خواص الطاغية ووزرائه باليهودية فقبضوا عليه وسجنوه بطليطلة وهو باق إلى الآن . وكذلك ، أيضاً ، اتهموا رجلاً آخر ونحن بمدريد ، كان قيماً للطاغية على محصول من محصولاته ، فوثبوا عليه وعلى زوجته وأولاده وجميع عياله وحشمه ، وسجنوا جميعهم ، وأخذوا ماله وجميع ما احتوت عليه داره من أمتعته ، وهم الآن في السجن ، وكان له مال كثير .

ومن أهل هذا الديوان رجل من عند البابا الذي برومة ، يأتي بقصد النيابة عنه في هذا وما يشبهه ، ويسمونه في لسانهم النونسيو(116) .

والمتهمون باليهودية من هذه الأجناس كثيرون ، وأكثرهم من جنس البرتغال(117) ، وجلهم كانوا من اليهود سكان هذه البلاد على عهد الأندلس ، بعهدهم وذمتهم ، فانحازوا عند التغلب على المسلمين إلى ناحية بلاد البرتغال ، واختفوا بالنصرانية هنالك ، وبالبلاد البرتغالية ؛ منهم ، فيما يقال ، عدد كثير أكثرهم من الجنس الإسبانيولي .

مَلك لليلةٍ

وحين مات فيليب طرسيرو المتقدم الذكر ، وكان في عهده قد خرج من بقي بهذه البلاد من بقايا الجنس الأندلسي ، وولي بعده فيليب كوارطو ومعناه الرابع من اسم

---

(116) النونسيو : مثل البابا ، قاصد رسولي Nuncio de S. S .

(117) وردت : البرتكال ، وأوردها الرحالة في غير موضع : البرتغال ، وآثرنا توحيد الاستعمال . (المحرر) .

فيليب ، وكان داهية طاغية من طواغي الكفرة ، دمرهم الله ، ولعهده كان ثار جنس البرتغال ، ودعوا إلى التملك عليهم رجلاً كان يدعى الدوكي بركانصا[118] .

وهو والد طاغية البرتغال اليوم ، وكانت له زوجة أخت دوكي عظماء إسبانيا ، له قدم في الكبيرة يسمى دوكي مدينة صيدونية ، ويزعمون أن جده دون ألونصو دي قزمان كان كبير مدينة طريف حين دخول طارق رحمه الله إلى العدوة ، وما زالوا إلى الآن يلقبون بلقب قزمان .

فحين ألزم أهل البرتغال دوكي براكانصا بالتملك عليهم ، شاور زوجته فيما دعي إليه ، فأشارت عليه بقبول ذلك ، وقالت له : مَلِكٌ ليلة واحدة أحسن من بقائك دوكاً خمسين سنة . فقبل ذلك منهم .

وكان له في ذلك اتفاق مع أخي زوجته ، وهو إذ ذاك ساكن بمدينة سان لوكار . وفيما بين سان لوكار وبلاد البرتغال مدينة تسمى أيا مُنطي ، بها مركيز عظيم من أعيان أهل إسبانيا يُلقب بمركيز أيا مونطي ، دخل معهما في الاتفاق ، ودخل حزبهم أيضاً دوكي آخر يعرف بدوكي ايخرْ .

وكان كل منهم يريد التملك والدعوة لنفسه ، فأحس بهم فيليب كوارطو ، فاستدعى هؤلاء الثلاثة الذين هم من خدامه وأهل عمالته ، وبعثهم إلى مدريد قبل أن يعلموا بما نمي إليه من خبرهم .

فجعل يعذبهم بأنواع العذاب ، ويقررهم ، فإنه كان قد اتصل ببعض رسائل من بعضهم لبعض تدل على ما أزمعوا عليه .

فأما دوكي مدينة صيدونية فأقر سريعاً ، وكانت بينه وبين الطاغية محبة ، فعتقه ونفاه إلى مدينة تسمى بليادوليد[119] وعزله عن ولايته وعمالته ، إذ كان هو القبطان على كوشطة البحر كلها الموالية لبرنا حرسه الله .

وأما الآخران فعذبهما عذاباً شديداً فلم يقرا ، فأخرجهما ومن كان مطلعاً عليهم

---

(118) دوكي دي براكنصا Duque de Braganza .

(119) هي Valladolid مدينة أندلسية . والأصل عربي : بلد الوليد . (المحرر) .

من خدامهما وخدام دوكي صيدونية[120] إلى بلاصة مدريد وقتلهم جميعاً .

فثارت الحرب حينئذ بين البرتغال وبين طاغية إسبانيا نحواً من ستة وعشرين سنة ، إلى أن خمدت بموت فيليب كوارطو ، وكانت وفاته في سنة ست وستين وستة عشر ماية بتاريخهم المسيحي ، وبتاريخنا عام سبعة وسبعين وألف .

وخلص حينئذ ملك البرتغال إليهم ، وكان لفيليب كوارطو طاغية إسبانيا عدة أولاد لكنهم لم يرثوا الملك في قوانينهم ، لأنهم غير شرعيين ، وله زوجة هي ابنة عم الانبرادور من ألمانيا كان جلبها بقصد ولد له أراد تزويجه ، فعند وصولها مدريد مات ولده الذي أراد تزويجه ، ثم ماتت زوجته هو .

فحين بَلَغَتْ خطبها لنفسه وتزوجها ، فولدت له ابنه كرلوص سكوند هذا الطاغية المملَّك[121] اليوم . وحين مات فيليب كوارطو ترك ولده صغيراً ، فملكت أمه ، وكان من خبر أولاده الآخرين الذين ليس لهم ميراث في الملك أن ترهَّب جلهم ، ومنهم الراهب مفتي مالقة ، ويسمونه بلسانهم السوبيسب[122] ومعناه المفتي ، وكان من أولاده آخر يسمى كوان أوسطريا[123] برز ، ونجم ، وظهر عندهم في الشجاعة والرأي والدهاء ، وكان يلي الحروب ، ويتقدم إلى الشرور والفتن ، ويعبّئ المحال مدة تملك زوجة والده ، وفي حال صغر أخيه لأبيه . وحيث ظهر وبرز لم يدع لأحد قولاً ولا رأياً ، وصار يحدث لهم أحكاماً ، ويفعل لهم فعالاً لم يكونوا يعرفونها في ما تقدم ، وكان يضرب على يد أهل الديوان ، وعلى يد الملكة زوجة والده ، وكان يقول إنما أتصرف لأخي إلى أن يكبر ، وإنما أنا أحد خدامه ، فتوهم منه أهل الديوان والمملكة توهماً كبيراً ،فلم يشكُّوا ، مع ذلك ، أنه يريد الملك ويدعي لنفسه .

وكان للملكة رجل يسمى الدويندي[124] اختص بالتصرف لها ، فانكسر عليه

---

(120) هي : مدينة صيدونيا الأندلسية ، وتلفظ بالإسبانية Madina Saidonia(المحرر) .

(121) الحاكم . (المحرر) .

(122) الاوبيسبو O bispoهو الأسقف والارسوبيسبو Arzobispo وهو رئيس أساقفة .

(123) صون خوان دي اوستريا Don Juan de Austria .

(124) هو الأب نيطارد اليسوعي مرشد الملكة .

ذلك وعليها ، فقبض عليه وسجنه في برج منيع في أعلى ربوة من الأرض مطل على قرية تسمى سويقرا ، بينها وبين طليطلة على طريق الآتي منها إلى الأندلسية ثمانية عشر ميلاً ، وهذا البرج في غاية المناعة والتحصن من عهد المسلمين ، ولعلوّ هذا البرج يشرف على بلاد كثيرة ومداشر وقرى من عمالة طليطلة ، ولهذا البرج سوران شاهقان وفي داخله كنيسة كبيرة يعمرها عدد قليل من الفريلية ، ولقد دخلت هذا البرج فرأيت له أثر في توثيق البناء والتحصن ما يدل على اعتناء صانعيه لذلك العهد رحمهم الله .

مكائد أهل البلاط

وحين سجن الدويندي بهذا الموضع المذكور أمر أن لا يخرج منه أبداً . وصار خوان ينظر في أهل الديوان وما هم عليه ، فجعل يتطلع إلى[125] أحكامهم ، وينظر شوراهم وآراءهم وما يزمعون عليه ، فيستجيد ما يراه لائقاً ، ويرد ما يراه مزيفاً ، وينقص للقوم من مراتبهم وأرزاقهم ، ويقول لهم : لم يستحق هذا أن يأخذ هذا ، وعلامَ هذا يأكل جميع هذا ، إلى أن أنكر على الملكة نفسها ما كانت تصرفه في ضرورياتها ، إلى أن بلغ أخوه أربعة عشر سنة ، فأخذه يوماً ومضى به إلى ملكة[126] راغون ، وألبسه التاج وأتى به إلى مدريد ، وجعل يتصرف له نائباً عنه بمثابة الخدم ، وما زال يغلب على أم أخيه إلى أن نفاها من مدريد إلى مدينة طليطلة ، فاستقرت هنالك عاماً واحداً ونصف عام .

ثم مات كوان أوسطريا فرجعت الملكة إلى مقرها ، وأُخرج الدويندي المسجون وتوجه إلى بلاد من بلاد الهند ، وهو اليوم باقٍ بها لهذا العهد ، وله هنالك ولاية كبيرة .

وكبر كرلوص سكوند هذا مع الديوان ، وتزوج ابنة عظيم الفرنسيس ، وماتت عنده

---

(125) فراغ في الأصل . (المحرر) .

(126) وفي مخطوطة 1 : إلى مملكة .

من غير عقب ، فتزوج بعدها ابنة خالته أخت أمه ، وهي ابنة عم الامبرادور الذي بألمانيا ولتزويجه معها الآن سنة ، وإلى الآن لم يولد له .

وهذا الطاغية لم يتقدم إلى موضع من المواضع ، ولا صحب محلة ، ولا برز إلى حرب ، وهو من الحضارة بمكان ، لا يركب فرساً ولا غيره ، وإنما يركب دائماً في كدش مع زوجته في غالب الأيام ، وله خروج إلى متصيداته في كدشه ، ويقصد الكنائس دائماً ويتعبد بجميع متعبداته .

قضية الأسرى

وحين انفصلنا عنه يوم ملاقاتنا معه وناولناه الكتاب السلطاني ، دفعه إلى النصراني الحلبي المترجم ليترجمه ويعجمه ، فلما عجم الكتاب ورأى ما فيه وما أشار به عليه أمير المؤمنين أيده الله ، من إعطاء خمسة آلاف كتاب وخمس مائة أسير ، ثقلت عليه الوطأة العلوية ، ولم يدرِ كيف يتلقى هذه الإشارة ، وعرف أنها عزمة من الملك نصره الله ، ولم يمكنه إلا الاضطراب ، لما أُشرب في قلبه وقلب أهل ديوانه من صيت هذه الإمامة العلوية وعلوّ همتها أبقاه الله بمَنِّه ، ووقعت المشورة منه في ذلك مع أهل ديوانه ، فرأوا أن الإجابة إلى ما دعاهم إليه المولى الإمام ، والامتثال لأمره المطاع ، أعزه الله تعالى ، أولى لهم وأوفق ، وتشاوروا في ذلك أياماً عديدة ، وكانت لنا معه ملاقاة بقصد الرؤية حين يدعون إليها ، وبعد تدوينهم في الأمر السلطاني ، وزعمهم حرق الكتب الإسلامية ، في ما يذكر ببلاد إسبانيا ، قدموا للكلام معنا في ذلك ؛ كاتب الديوان الكبير ، والكردينال الذي هو رأس دينهم وهو خليفة البابا الذي بروما وإليه ينتهي أمر دينهم وديوانهم .

وحيث كان المولى الإمام أدامه الله وأيده جعل لهم في كتابه الشريف فسحة : إن عدموا وجود الكتب ، أو تعذر حالها أن[127] يجعلوا عوضها كمال ألف أسير من المسلمين ، وحاولوا ترك بعض آلاف ، فلم يجدوا له مجالاً ولم يمكنهم إلا المساعفة

---

(127) محلّ «أن» فراغ في الأصل . (المحرر) .

بالامتثال .

وحين قبل منهم المولى الإمام المنصور نصره الله ذلك اشتغلوا بالبحث عن الأسرى وجمعهم ، وكان الطاغية ، في خلال تلك المدة التي كان يوجه إلى الآفاق بقصد جمع المسلمين ، يتعاهدنا ويبحث عن أحوالنا ، ويأمر بخروجنا إلى متنزهاته ومتصيداته ، وبدخولنا إلى «دار» ورؤية ما فيها من المساكن والبيوت والبساتين ، يريد تأنيسنا بذلك ، ولم يدع بمدريد داراً كبيرة من أعيان خدامه وخاصته إلا رأيناها ، ورأينا ما لهم من البساتين والمتنزهات . وحين نلقاه يظهر بشراً وسروراً برؤيتنا ، ولا يقصر في الإكرام وإظهار الترحيب مدة مقامنا عنده .

وبمدينة مدريد من المتنزهات عدد كثير ، فإن للطاغية بها داراً كبيرة يسمونها الرطيرو[128] هي دار سكناه في المصيف : مشتملة على بستان بديع الشكل غاية في حسن جداوله وأنهاره ، وبوسط هذا البستان وادٍ كبير مبني الجوانب أحسن بناء ، وبجانبي الوادي قباب مبنية أحسن بناء للاستظلال في المصيف ، وبه زوارق ومراكب يركبها الطاغية في تنزه ذلك .

التنزلج على الجليد

وهذا الوادي يكثر فيه الجليد في زمن البرد حتى يمر عليه الإنسان ، فتجد النصارى يمرون على الجليد بصنعة ، غير أن أكثر من يمر على الجليد لهم بذلك خبرة من يكون من جنس الفلامنك والإنجليز ، وذلك حيث كانت بلادهم في ناحية الشمال يكثر فيها الثلج والجليد في جميع المواضع لا سيما الأودية ، فقد زعموا أن نساء الفلامنك يمرّنّ على الجليد بأن يجعلن لنعالهن صفائح من حديد ، ويقصدن بلاداً بعيدة صبيحة النهار بقصد التسبب والبيع والشراء ، وفي[129] المساء يرجعن إلى مقرهن .

ولقد رأيت البعض من النصارى يمرون على الجليد بهذا الوادي : بأن يقف الرجل

(128) الرطيرو El Retiro .

(129) محلّ «وفي» فراغ في الأصل . (المحرر) .

على رجل واحدة ويرفع رجله الأخرى ويقيم[130] نفسه مستقيماً بحيث لا يميل شقه إلى أحد الجانبين ، فيمرُّ كالبرق[131] .

وهذا الوادي يدخله في زمن الجليد كثير من الناس بقصد الرؤية والتنزه ، فتجد به من النصارى والأكداش[132] المشحونة بالنساء والرجال ما يضيق بهم البستان المذكور ، فإذا كان زمن المصيف ووقت سكنى الطاغية به لا يدخله إلا من يكون معتاداً الدخول .

وبهذا البستان سارية من رخام عريضة عليها صورة فرس كبير من نحاس أحمر ، والفرس واقف على رجليه الخلفيتين وعليه سرج من نحاس ، وقد ركبت عليه صورة والد هذا الطاغية فيليب كوارطو من نحاس أيضاً ، وهو راكب على الفرس أيضاً وبيده عصا ، وهي من عوائدهم يحبسونها في يدهم ويسمونها الباسطون[133] ، زعموا أنه في زمن هداد[134] (الخيل) يأتون بالفرس الأنثى التي يريدون نتاجها ويوقفونها أمام صورة الفرس ، ويركبون في ذلك الفرس حركات يسمع لها صرير وتصويت مثل تنحنح الفرس ، ويُنَزُّونَ[135] حينئذ فحلاً يرتضونه ويختارونه لكي تنتج الفرس لى شكل تلك الصورة .

كذلك رأينا مثل ذلك أيضاً في دار أخرى للطاغية خارج المدينة ، والدار في بستان على الوادي الذي يمر تحت المدينة على هيئة الأول ، وعليه أيضاً صورة والده فيليب كوارطو .

وله من البساتين والمتنزهات خارج مدينة مدريد مواضع كثيرة مشتملة على قنص

---

(130) وفي مخطوطة 1 :ويقوّم .

(131) وهذا ما يسمونه اليوم : اسكي Ski (Esqui) وقد سبق المؤلف وشرحه بدقة كأمهر المولعين بهذا النوع من الرياضة .

(132) جمع كتشة وهي العربة Coches .

(133) الباسطون .Baston عصا ، قضيب الأناقة .

(134) الهداد : موسم نزوان الخيل . (المحرر) .

(135) يحملون الفحل على السفاد . (المحرر) .

وصيد لا يقدر أحد على الاصطياد بها ولو كان من كان .

فلقد وجه إلينا يوماً مع الكوندي(136) الموكّل بنا ، وقد أمره بإخراجنا إلى موضع الاصطياد والإذن في الصيد ، وهو على ستة أميال من مدينة مدريد ، وبهذا الموضع دار كبيرة يسمونها البرد(137) كان بناها والده وهي دار كبيرة مشرفة على وادي مانسنارس المار بمدريد ، وبهذا الصيد المذكور من الوحوش كالأيل والخنزير والقنين عدد كثير ، إذ لا سبيل لأحد أن يصطاد بجميع ما احترمه الطاغية ، وهو محمي يقصده ولا يأذن فيه لأحد من خاصته ، وزعموا أن إذنه لنا في ذلك خصوصية لم يسمح بها قبل لأحد ، وذكروا أن انباشادور الفرنسيس طلب ذلك منه هو وانباشادور ألمانيا فلم يأذن لهما فيه :

وبهذا المصيد أيضاً من الذئاب أكبر من ذئاب بلادنا ، وهو ذئب كبير أصفر اللون له فتك وقوة ، ولقد حاولنا رؤيته حين مصيدنا هناك فلم نره . ولما خرج الطاغية يوماً إلى الصيد قتل ذئباً منها وأصطحبه معه إلى داره ، وحين وصل داره وجه به إلينا لنعاينه ، إذ عرف أن ذلك النوع ليس في بلادنا . ويسمون ذلك الجنس من الذئاب اللوبو(138) والجنس الصغير الذي في بلادنا يسمونه السُرة(139) ويصفون الجنس الكبير منه بالقوة والفتك ، ولعل هذا الجنس هو الذي يحدثون عنه أنه بأرض مصر ، وهو بمقدار النمر أو يقرب منه .

أسواق مدريد

وهذه المدينة أعني مدريد وإن كانت دار سكنى لبعض سلف هذا الطاغية ، فإنها

(136) الكوندي Conde وردت قبلاً ، وهي من ألقاب الشرف الإسبانية ، وترد أيضاً في النص . كندي ، ويجمعها كونديس . (المحرر) .

(137) البارود · (قصر) El Pardo (Palacio de) .

(138) اللوبو : الذئب Lobo .

(139) السُرّة : الثعلب Zorra .

لم تكن على ما هي عليه اليوم من الحضارة والكبر واتساع الأزقة وانفساحها .

وكانت دار طواغيهم قبل والده وجده مدينة بليا وليد ، وهي على ثلاثة أيام من مدينة مدريد ، وحيث استقر بها جده زادت في العمران والبناء ، وكثرت الدور بكثرة السكان والعمار ، فإن جل أعيان نصارى إسبانيا يسكنون بها مع الطاغية ، ومن بيده بلاد أو مدينة يخلف فيها على يده من يقوم مقامه .

وأسواق هذه المدينة كبيرة منفسحة الأرجاء ، عامرة بأهل البيع والشراء والتجارة ، وأهل الحرف والصنائع رجالاً ونساء . وهذه السوق يقصدها جميع أهل القرى والمداشر التي تقرب من مدريد .

ففي حوزها من القرى عدد كثير ، وأهل هذه القرى يجلبون للمدينة جميع ما يباع بها من أنواع الأطعمة والمأكولات والفواكه ، حتى أن الخبز لا يجعل بمدريد إلا القليل منه ، وجلّ ما يؤكل منه بمدريد يأتي من القرى التي بخارجها ، تجلبه النساء ، فيأتين به راكبات على الدواب ، ويقفن في الأسواق لبيعه على ظهور الدواب ، والبعض منهن يقصدن الديار بتبليغهن إليها الخبز على قدر ما تستحقه الدار ، لأن من عادة النصارى أن لا يخبز أحد منهم بداره ، وجميع مونته إنما هي عالة على السوق من كل شيء . وبالسوق عدة حوانيت لطبخ الطعام وصنعه للغرباء والضيوف والمسافرين الذين ليس لهم موضع معهود ، فيدخل الرجل للحانوت فيتحكم على المرأة التي به ، ويطلب منها الطعام ما يشتهيه ، لحماً ، أو دجاجاً ، أو حوتاً ، أو غيره مما يحبه وتطلبه شهوته ، فيأكل ويشرب ويدفع للمرأة ما يجب عليه في ذلك .

وتجد في هذه السوق من اللحوم البرية والوحشية والطيور ما لا عدد له ، وهي ميتة بغير زكاة ،(140) والبعض منها بالحياة ، لمن يريد أن يجمع الدم ، لأكلهم إياه!(141) .

وكذلك أيضاً تجد بهذه السوق من الفواكه الرطبة واليابسة ما لأحد له ، فإن التفاح والعنب والكمثرى يباع بهذه السوق السنة كلها ، إلى أن تدخل عليه الفاكهة الأخرى من العام المقبل . وجلب هذه الفواكه الرطبة جلّه من جبال غرناطة والرندة ، وإن

---

(140) يقصد أنها لم تذبح بطريقة شرعية . المحرر .

(141) إشارة غريبة من نوعها في نص الغساني . (المحرر) .

كانت مدريد بعيدة عن هذه البلاد المذكورة ، فإن غلاء السعر بها يجلب لها جميع الأشياء من سائر الأقطار . وكذلك ، أيضاً ، تجد بهذه السوق من الحوت الطري الشيء الكثير ، يأتون به من البحر على مسيرة سبعة أيام من بلاد أَلِيقنطي ، ومن ناحية بلاد البرتغال . وبوسط هذه السوق سوق كبيرة مربعة ، وفيها حوانيت كبار ، وعلى الحوانيت من البيوت والغرف والمساكن ست طبقات ، وهي معمورة بالسكان من أهل هذه الأسواق وغيرهم ، فقد زعموا بهذه البلاصة من السكان أربعة عشر ألف متزوج ، وبهذه السوق من أصحاب الحرف والصنائع والتجارة رجالاً ونساءً عدد كثير ، ويسمون هذا الموضع البلاصة ميور(142) ومعناه : السوق الكبيرة ، وبوسط رحبته من النساء لبيع الخمر والخضر والفواكه والحوت(143) واللحم على اختلاف أنواعه شيء كثير .

مصارعة الثيران

وبهذه البلاصة(144) يجعلون أعيادهم ومواسمهم كعيد الثيران وغيره . فإن من عوائدهم إذا كان شهر مايو(145) في العاشر منه ، أو في النصف ، أنهم(146) يختارون ثيراناً فحولاً سماناً ويأتون بهم إلى تلك البلاصة ، ويزينونها بأنواع الفرش من الحرير والديباج ويجلسون في السطوح(147) المطلة على البلاصة ، ويطلقون الثيران في وسط البلاصة واحداً واحداً ، ويدخل إليهم من يدعي الشجاعة ويحب إظهارها راكباً على فرسه ليقاتل الثور بالسيف ، فمنهم من يموت ومنهم من يقتل الثور(148) . وموضع

---

(142) بلاصه مايور : الساحة العمومية أو السوق الكبيرة Plaza Mayor

(143) يطلق المغاربة على كل أنواع السمك : الحوت . (المحرر) .

(144) البلاصة في المغربية الدارجة تعني المكان ، وفي الإسبانية :Plaza mayor السوق العامة . (المحرر) .

(145) وفي مخطوطة (م) : مايُه .

(146) محل «أنهم» بياض في الأصل . (المحرر) .

(147) وفي مخطوطة (م) : في المجالس المطلّة .

(148) يشير إلى مصارعة الثيران Corrida de Toros .

الطاغية في تلك البلاصة معلوم ، ليحضر ذلك هو وزوجته وجميع حشمه ، والناس على اختلاف أعراضهم في الطيقان ، فإن كراءها في ذلك اليوم وحده ، أو في يوم عيد مثله ، يعطى في موضع واحد مثل ما يعطى في السنة كلها . ولقد حضرت هنالك عيداً جعلوه في هذه البلاصة ، نسبوه إلى راهب من رهبانهم يسمونه سان كوان زعموا أنه كان من جنس الفرايلية[149] وحسنت حالته في ما يعتقدونه من دينهم ، ورأوا له ، في ما يخيّل لهم الشيطان ، أمورا تخيلية يسمونها الميلاكروس[150] ومعناها البراهين . وله الآن نحواً من مائة سنة . وفي هذه السنة زعموا أنه ثبت عند البابا أمره ، فأذن في تطويفه ليراه الناس ويعرفونه ، فجعلوا له هذا اليوم ، بعد أن احتفلوا وزينوا كنيسته بأنواع الحرير والديباج ، وألبسوا صورته حللاً فاخرة مرصعة بالدر والياقوت ، وزيّنوا جميع الأزقة من كنيسته إلى البلاصة ، وزينوا البلاصة أيضاً بأنواع الزينة ، وعلقوا بها من اليواقيت والجواهر النفيسة والصلبان الذهبية المرصّعة ما لا يقدر بقيمة ،[151] واحتفل لذلك الطاغية احتفالاً كبيراً ، وأعد لنا مجلساً مقابلاً لمجلسه الذي هو معد له ، وجعل به من أنواع الزينة مثل ما عمل لموضعه ، وبعث إلين يستدعينا لرؤية ذلك ، وقصده تأنيسنا وجبر الخواطر .

فقصدنا ذلك الموضع فوجدنا به من الخلق مختلطين رجالاً ونساءً ما ضاق بهم ذلك الموضع على اتساعه . فبعد أن قاسينا من زحام الخلق ، وكان في جميع الأسواق والأزقة أكثر مما اجتمع منه في البلاصة ، فقصدنا الموضع الذي أعد لنا وصعدنا إليه ، وحيث جلسنا وقابلنا الطاغية ، سلّم علينا وأزال شمريره من على رأسه ، وقعد هو وزوجته وأمه ، وحشمه حوله وسلم سلاماً كثيراً هو ووزراؤه ، واجتازوا بصلبانهم وتصاويرهم وبصورة هذا الفريلي كوانا[152] الذي أذن لهم فيه البابا ، وجعلوا له كنائس

---

(149) هو الراهب خوان (الفريلي) ، ويقصد به الغساني : القديس يوحنا دي ديوس (1495-1550) مؤسس رهبانية أخوة المحبة ، كما استخرج ألفرد البستاني (المحرر) .

(150) ميلاكروس · عجائب ، أمور فائقة الطبيعة Milagros

(151) وفي مخطوطة (م) : مالا قيمة له .

(152) هو القديس يوحنا نفسه مؤسس أخوة المحبة (1495 - 1550) S. Juan de Dios

عديدة في كل مدينة وقرية ، وكذلك أيضاً جعلوا له عيداً على قدر المدينة أو القرية .

والفريلية المنتسبون إليه هم الذين يقومون في كل موضع بأمور المرضى من المعالجة والخدمة وغيرها ، فإنه حيث كان في عهده من الفريلية الذين يخدمون ذلك ، صاروا كلهم يجعلون مارستانات(153) في كنائسه ويقومون بأمور المرضى أتم قيام .

المارستانات

فإن ببلاد إسبانيا من المارستانات ما لا عد له ، فإن في مدريد أربعة عشر مارستاناً في غاية الكبر والنظافة والإقامة : من الفراش والطعام والأشربة والمعاجين ، ومن يقوم بأمر المرضى ، فيجعلون أيضاً للنساء المريضات عجائز يخدمنهن ويقمن بهن ، وللرجال رجالاً . وهم في غاية التحفظ والمعالجة من غير تفريط بشيء يحتاجه المريض قليلاً كان أو كثيراً . فقد دخلتُ منهم عدة ، فرأيت فيهم من الإقامة ماله بال ومال . وفي كل مارستان ، منها مخازن عدة ، مشحون كل واحد منها بما هو معد له من الزيت والخل والمعاجن والأشربة وموضع الطبخ ، فلقد وجدت به من اللحوم ولحم الضأن والدجاج والقنين والحجل ولحم الخنزير وغيره بقصد المرضى ، فإذا دخل الطبيب على المريض وجسَّ يده وعرف حالته يكتب بطاقة(154) يدفعها للقيّم على المرضى وهو يدفعها للقيّمة على الطبخ ويحضرون له ما أمره به الطبيب .

ولقد رأيت عندهم بيتاً آخر فيه حوائج المرضى ، وذلك إذا دخل المريض المارستان يزيلون له جميع ما عليه من الثياب ، ويرفعونهم في البيت المعد لذلك ، ويكتبون عليهم بطاقة بتعريف الحوائج وربّها ، ويلبسونه حوائج أخرى معدة هنالك للمرضى من متاع الحبس الموقف على المارستان ، يجعلون له سريراً عليه لحافان وإزاران

---

(153)المارستان ، والبيمارستان : المشافي ، ازدهرت في عز الدولة الإسلامية ، وقد أنشأها المسلمون في مختلف ، وكانت في بعض الفترات تعالج المرضى النفسيين بوسائل متقدمة كالموسيقى . واليوم يطلق العامة الشوام · المارستان على مستشفى الأمراض العقلية . (المحرر) .

(154) وصف تركيب الأدوية (وصفة) Receta .

ووسادة . وكل ثمانية أيام يغسلون الثياب التي عليه ويجعلون له ثياباً أخرى . فإذا قام من مرضه ألبسوه حوائجه التي أتى بها وينصرف إلى سبيله ، وإن مات يكفّن من وفْر المارستان ، ويبحث عن أهله فيدفعون لهم ثيابه التي تركها هنالك .

ولكل مارستان من هذه طبيبٌ معلوم تعين له دار سكناه قرب المارستان وكراؤها من الوفر . وجميع مونة الطبيب وما يتعلق به وبحشمه من الضروريات ومعيشته كلها من الأوقاف ، ليكون سائر الأوقات حاضراً غير غائب ولا مشتغل بشأن معاشه .

وهذا الجنس الذين هم منسوبون إلى هذا الفريلي سان كوان هم أكثر الناس خدمة للمرضى ولهم في ذلك اعتقاد .

ولقد مرض بعض أصحابنا ونحن مقيمون بمدينة سان لوكار ، وكان هذا الجنس يختلفون إلينا للزيارة سائر الأيام ، فحين رأوا المريض طلبوا منا أن ينقلوه إلى موضعهم ليعالجوه ويقوموا بأمره ، فمنعتهم من ذلك ، فتغيروا وقالوا :

أحببنا الحسنة فما ظننا أن تمنعنا منها .

ورغبوا في ذلك كثيراً ، فلم أطلق لهم في شأنه بطرف ، فلم يزالوا يعودونه حتى برئ .

ويود لهم الإنسان ، باعتقادهم ذلك وحسن أخلاقهم ومسكنتهم[155] أن لو كانوا على الطريقة المستقيمة ، فإنهم أحسن أهل جنسهم أخلاقاً ، وأكثرهم مسكنة ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

بريد الجمعة

وبسوق مدريد ، أيضاً ، موضع معد للرسائل والبراوات[156] الواردة من جميع البلدان والأقاليم والأقطار ، فإن في كل يوم من أيام الجمعة ترد رسائل بلد من

---

(155) المسكنة بالعامية الشائعة في المشرق العربي تعبير عن التذلل والتبسط يصمران غاية . والغساني هنا يستعملها بمعنى اللطف ، والبساطة الحقيقية . (المحرر) .

(156) البراوات : جمع براءة بالاصطلاح المغربي وهي الرسائل .

البلدان ، فمن كان يرتجي ورود براءة يمضي إلى الحوانيت المعدة لذلك ، وينظر هل أتاه شيء أم لا ، فإذا وجد براءة يعطي عليها جعلاً معلوماً : قدر ربع أوقية بلادنا[157] ، وكذلك من يحب بعث رسالته إلى بلاد ، يكتبها أيضاً ويطرحها في الموضع المعلوم ولا يعطي عليها شيئاً ، فإن الذي يتسلمها هو الذي يخلّص كراءها ،[158] هذا فيما قرب من البلاد مسيرة نصف شهر فما دون من جميع البلاد . وأما ما كان من بلاد بعيدة من البلدان مثل إيطاليا وروما ونابولي وفلانضس وفرنسة والإنكلاطيرة وغيرها من البلدان القاصية ، فإن كراء البراءة الواردة من إحدى هذه البلدان هو وزنها من الفضة ، ويتحصل[159] في هذه الرسائل من الأموال شيء كثير .

ولقد ورد في شهر فبراير رقاص إيطاليا ورومة وأتى معه بزنة ثلاثة وخمسين ربعاً من الرسائل فتحصل في ذلك ثلاثة عشر قنطاراً وربع القنطار[160] من الفضة ، وهذه الخطة هي في يد كندي يسمى كندياطي ، زعموا أن الطاغية أعطاها إياه ليعيش بها ، والرقاقيص جميعاً تحت يده ، وعادتهم في ذلك أن يحمل الرقاص القاصد إلى البلاد الفلانية ، جميع ما يتحمل من البراوات إليها ويسافر سفراً عميقاً ، من غير التفات ولا عطلة ، ومهما تراخى أو عطب ، يبدله في بينطة من البينطات المعدة في الطرق للضيوف والرقاقيص كما قدمنا ، بكراء معين والقدر المعلوم عندهم لتبديل المركوب هو تسعة أميال لا يقدر على الزيادة عليها .

فيمضي نصف طريق البلاد التي كان قاصداً إليها ، فيلقى رقّاصها آتياً فيعطي كل واحد منهما ما أتى به من الرسائل للآتي من البلاد الأخرى ، ويرجع كل واحد منهما إلى بلاده التي أتى منها ، ففي كل يوم من الأيام يكون عند الرجل علم جميع البلاد .

---

(157) الأوقية في الأوزان المعربية هي 31 غراما وربع ، والرطل 16 أوقية والقنطار مائة رطل

(158) تخليص الكراء : دفع الرسوم . وفي العامية المغربية . خلّص يخلّصُ خلاصاً : الدفع . (المحرر) .

(159) وفي مخطوطة م : ويتحمّل

(160) هكذا في الأصل ، والصحيح ثلاث عشرة أوقية وربع

وبمدريد شيء آخر زائد في الأخبار عن البراوات ، وذلك إنه إذا كان خبر من بلدان بعيدة نائية ، فإن فيها داراً فيها قالب الكتابة ، وهو على يد رجل واحد قد تحمل لذلك مكساً للطاغية معيناً على رأس كل سنة ، فمهما سمع بخبر أو طرقه خبر ، وبحث عنه ، يجمع من الأخبار ما يجمع ويفرغ عليها قالباً يطبع عليه آلافاً من القراطيس ويبيعها بأقل ثمن ، فتجد الرجل في يده منها شيء كثير ينادي عليها ويقول : من يشتري أخبار البلاد الفلانية والبلاد الفلانية ، فمن أحب الاطلاع على ذلك يشتري منها قرطاساً ، ويسمونها الكاسيطة ، فيطلع الإنسان منها على أخبار كثيرة ، إلا أن فيها من الزيادة والكذب ما تحمل عليه الشهوة النفسانية .

وفاة البابا

ومع الرقاص الوارد من إيطالية وروما ، كما قدمنا ذكره ، ورد خبر موت البابا الذي بروما ،[161] ولم يتولَ أحد آخر مكانه إليهذه الأيام ، ونحن مقيمون بمدينة سان لو كار ورد تولية رجل آخر منزلته . وهذه المنزلة عند عبدة الصليب هي منزلة كبيرة ، بحيث المتولي لها يحدث لهم الديانات والأحكام ، ويشرع لهم الشرائع ، ويأمرهم بفعل ما أحب ، وينهاهم عما كره بوفق غرضه ، فلا يقدرون على مخالفته ، ولا يسعهم إلا الامتثال ، ففي المخالفة له عندهم خروج عن دينهم .

وكيفية تولية هذا البابا هو أنه تحته اثنان وسبعون راهباً من أكابر علمائهم كلهم يلقب بالكردينال ، ودرجة الكردينال عندهم هي أحط منزلة من البابا ، فإذا مات البابا ، دخل كل واحد من الاثنين والسبعين بيته وأغلق عليه بابه ، وقعد يتعبد في زعمه ، بحيث لا يخالط أحداً ، ولا يتكلم مع أحد وإنما يُنازل الطعام الذي يقوت به

(161) هو البابا إسكندر الثامن اعتلى السدة البطرسية سنة 1689 تُوفي سنة 1691 .

نفسه ، ويقيم على ذلك أربعة أشهر ، فإذا انقضت الشهور الأربعة فكر كل واحد منهم في نفسه إلى الرجل من الأحد والسبعين ، يغلب على ظنه أن يرتضيه ويختاره لثقته وأمانته وعلمه وديانته ، فيكتب اسمه في قرطاس صغير ويضعه في صندوق مغلق ، بحيث لا يطلع عليه هو ولا غيره ، وكل واحد من المذكورين يكتب من القراطيس على قدر من يختاره ، ويضع القرطاس في محله المعدّ له ، فإذا انقضت الأيام المعلومة لذلك ، وانقضت الكتابة والاختبار ، اجتمعوا وجعلوا ديواناً ، وفتحوا الصندوق وقرؤوا القراطيس ، فأي اسم من الأسماء وجدوه أكثر تعدداً في القراطيس ، اتفقوا عليه وولوه تلك المنزلة ، بعد أن يأخذوا عليه العهود والمواثيق بالشروط المعلومة عندهم من الأمانة والصدق ، ويأخذ عليه أيضاً هو من العهود ما هو معروفٌ عندهم . وصار هو إذ ذاك عندهم البابا .

ومن عاداتهم أن لا يختاروا إلا من نيف على الثمانين سنة ، والذي صيروه بابا هذه المرة هو أصغر سناً من ذلك فقد زعموا أنه ابن خمس وسبعين سنة(162) وما زالوا يصفونه بصغر السن وقالوا إنه لم يتقدم أحد قبله في سنه .

وقد كانت قبل هذه السنين عادة أخرى وهي : أن لا يختار لتلك المنزلة إلا رجل من أهل إيطالية عمالة روما وأحوازها ، لسبب كان ألجأهم إلى ذلك ، وهو أنهم عثروا على بعضهم كان من جنس الفرنسيس تولى تلك المنزلة وصار يجمع الأموال ويدسها إلى بلاده ، فاتفق رأيهم في ذلك العهد على أن لا يتولى تلك المنزلة أحد من جنس الفرنسيس ولا من جنس الاسبنيول الذين لهم الشوكة والعصبية ، وإنما يتولاها رجل من إيطالية وأحكام روما وعمالتها ، يتولاها رجل من أقارب البابا ، ولا يتصرف أحد غيره في جميع نواحي إيطالية بشيء من الأشياء .

والبابا الذي ولوه هذه السنة ، بعد موت البابا ، هو من بلاد نابولي من حوز إيطالية إلا إنها في يد الاسبنيول ، وقد اتُخذت هذه القاعدة عندهم هذه المرة ، وتولاها من هو من عمالة الاسبنيول .

---

(162) هو البابا اينوسنسيو الثاني عشر 1691-1700 - Inocencio XII .

وهذا البابا هو الذي يفرض عليهم الصيام في بعض الأيام لسبب يؤلّه لهم[163] ويمنعهم من أكل اللحوم يوم الجمعة ويوم السبت ويحدث لهم برأيه ما يستحسنه ، ويمنع أهل الصليب أن يتزوج أحد قريبته ، أو بنت عمه ، أو عمته ، أو بنت خالته أو خاله ، إلا إذا أخذ له إذن من عنده وأحل له ذلك . وعندهم في ذلك إنفاق ومال كثير لمن يحتاج له إذن من عنده في تزويج قريبته ، بما يدفعه للوسائط والطريق من بعد المسافة ، ولا يسهل عليه في ذلك إلا إذا كان ذا جاه ومال ، فإذا كان ذا جاه ومال يجد السبيل للإذن في التزويج ، وقد أذن لهم أيضاً في تزويج القريبة ، إذا وقع بينه وبينها ملاقاة من زنا ، إلى أن ظهر بها حمل وكانت قريبته ، فهذه أطلق لهم فيها الإذن من غير أن يحتاج إلى الوصول إليه .

ابنة دوق تتزوج خالها!

ولقد رأيت بمدريد امرأة صغيرة ذات حسن وجمال ومنصب من أكابر أهل إسبانيا ، وقد تزوجها خالُها ، وهو رجل يسمى دون بيدرو ذي أراغون ، وهو من أبناء ملوك أراغون ، فتزوج ابنة أخته بإذن من البابا ، وكان كبير السن ، فخاف أن يموت من غير عقب ولم يكن عنده من يورثه ، فأخذ الإذن من البابا فتزوج ابنة أخته ، ومات قرب تزويجه منها وخلف لها من الأموال ما يُعجز عن حسابه .

ولقد حاول بعض الأعيان تزويجها بعده فلم ينالوا منها شيئاً ، لكونها من أهل إسبانيا ، وهي ابنة دوكي يسمى دوكي مدينة سليس ، وكان له عند الطاغية منزلة الوزارة والحجابة والدخول عليه في فراشه ، وغير ذلك . وكان له مع ذلك زيادة موروثة ورثها عن سلفه من قديم هو وأبوه وجده ، حيث كانوا من نسل ملوك إسبانيا ، فكان إذا سلّم على الطاغية يقول له : نحن بعدكم . يعني أن له الولاية بعدهم ، إذا انقطع عقبهم ولم يخلفوا من يرث المُلك .

وبقي هو وسلفه على ذلك زمان أسلاف هذا الطاغية وزمانه هو ، إلى ما قبل هذه

---

(163) يقصد لسبب مقدّس . (المحرر) .

السنة بتسعة أعوام ، فيما ذكروا : أن الطاغية خامر عقله وشوش ذهنه ما يسمعه من تلك الكلمة التي تؤلم قلبه ، حيث لم يلد له ، فقال له يوماً :

إن هذه الكلمة التي أسمعها منك كثيراً ما تؤلمني ، وأريد أن تتركها ، ولا تعد لقولها ، ولا إلى الارتقاب إليها ، لا أنت ولا عقبك من بعدك .

فتركها حيث لم تمكنه المخالفة ، وبقي على حال وزارته وتصرفه إلى أن حاول منه الطاغية أمراً أمره به ، وكان الوزير يحب خلافه ، فلم يمتثل لذلك ولا أذعن إليه . فلما رأى منه الطاغية التصميم على خلاف شهوته ، وكان بيد الوزير مفتاح يدخل به على الطاغية أينما كان . فجاء الوزير يوماً على عادته فوجد الباب مغلقاً من داخل ، فحاول فتحه فلم يقدر ، فقرع الباب إلى أن نهض الطاغية وجاء إلى الباب ينظر القارع ، فلما فتح الباب وجد الوزير ، فأغلقه في وجهه ، فرجع الوزير حنقاً إلى داره وقعد بها ، فلم يطل إلى أن مرض بالمرض المسمى عندنا بالنقطة[164] وبقي مريضاً نحو الثمانية أعوام ، ولحق بالسعير في هذه السنة ، ونحن مقيمون بمدريد ، وخلف ولداً هو انباشادور في روما نيابة عن طاغية إسبانيا وواسطة هنالك عند البابا .

إذ من عوائدهم أن يبعثوا سفراء من بعضهم إلى بعض ، كما فعل البابا أيضاً ببعثه رجلاً كبيراً من علماء ملته إلى مدريد يسمونه النونسيو ، هو خليفة البابا فيما قرب من أمور الديوانات والشرائع ، وكذلك بمدريد عدة من الانبشادورين . فإن بها ، اليوم ، انباشادور ألمانيا ، وآخر من إنكلاطيرة .

وقد كان قبلُ قدم من قبل الإنكليز رجل فأقام بمدريد مدة ، فعشق امرأة حمله ما به منها إلى أن تنصر وتبع دين أهل الصليب[165] إذ جنس الإنكليز لا يعبدون صلباً ، فحيث بلغهم تنصره أبدلوه بآخر عوضه ، وبقي هو بمدريد ، تأهل وجعل له الطاغية راتباً يعيش به ، مبلغه اثنا شر ألف ريال عن كل سنة ، ولقد فقد ببلاده جميع ما كان يملكه ، إذ لا طمع له فيه .

وبمدريد أيضاً انباشادور بلنسية والبرتغال ، فهؤلاء مقرّون مستوطنون بأولادهم

---

(164) المقصود إصابة دماغية . (المحرر) .

(165) يقصد أنه انتقل من الأنغليكانية إلى الكاثوليكية . (المحرر) .

ونساءهم ، والغير يقدم بقصد قضاء ما يأتي إليه ويرجع في حاله .

ولقد كان قبل هذه الساعة بمدريد إنباشادور فرنسة ، ولما وقع بين أجناس النصارى ما بينهم اليوم من الفتن والحروب والعداوة ، حسب ما نذكر سببه بعد هذا إن شاء الله ، رجع في حاله إلى مخدومه .

وسبب هذه العداوة التي بينهم اليوم مسألتان : أولهما أن الفرنسيس لما شمخ بأنفه ، واستبد برأيه ، واشتد كلفه على أبناء جنسه ، ودخلته النخوة وكان مجاوراً له إذ ذاك كندي له ولاية وعمالة لم تكن تحت أحد من الملوك ، وإنما ورثها عن سلفه مثل ما لبعضهم من العوائد عند ملوك العجم ، إذ كان له عدة أولاد فإن البكر هو الوارث للملك ، ومن بعده يكون دوكاً على طرف من البلاد ، معيناً معروفاً ، لا ينازع فيه ولا يطمع هو معه في الملك ، إلا إذا انقرض أخوه الوارث من غير عقب ، ووقف الأمر عليه ، فإن في عوائد ميراثهم أن الأخ يرث أخاه إذا لم يكن له ولد ، فإن غيره من نسل أخيه يرث الملك سواء كان حفيداً أو ابن حفيد أو ابن أخت أو بنت أخت .

وكان هذا الدوكي المذكور والياً على طرف ، من البلاد ، وقد كان من غير[166] جنس الفرنسيس ، فأحب الفرنسيس أن يعزله ويعمل غيره مكانه ، وعجز الدوكي عن مقاومة الفرنسيس ، فأنكر البابا عليه ذلك فأبى إلا تمادياً على فعله ، ولم يعمل بقول البابا ولا بإنكاره عليه .

خلاف أوروبي - أوروبي

وحيث كان جميع عبدة الصليب تحت نظر البابا ، وإليه ينتهي جميع كلامهم ، ومن عنده يلتمسون جل أديانهم وأحكامهم ، وعنه يأخذون دينهم المنكّب عن طريق الحق والهدى ، تابعين بذلك سبيل الغي والرَدا[167] ويحدث لهم أدياناً على وفق

(166) وفي مخطوطة م : وليس هو من جنس الفرنسيس

(167) لعله يقصد . الرداءة . (المحرر) .

إرادته وهواه ، ويساعدونه في تلك الأمور[168] ، فكانوا لا يبرمون شيئاً في أمر دينهم إلا عن إذنه ومشورته ، ويوافقونه في ما يلائم أغراضهم من أمر دنياهم ورياستهم .

فحيث وقع الإنكار من البابا على الفرنسيس وخالفه ، وقعت المشاحنة بين البابا والفرنسيس لعدم إنصاته إليه ، ومخالفة إرادته في مثل هذه المسألة ، وخرقه القواعد التي لا سبيل لهم إلى خرقها[169] وإزالة ذوي الأقدار عن مراتبهم وميراثهم ، أدّى ذلك إلى المشاحنة والمنافرة بينهم . وفي أثناء ذلك وقع بين الفرنسيس أيضاً وبين إمبرادور ألمانيا كلام في شأن المهادنة التي بينه وبين ملك الترك ، قوّاه الله ، ودعاه إلى إفساد المهادنة ، ورجوعه عن مواصلته ، فلم يكن من الفرنسيس التفات إلى الانبرادور ، ولا إلى ما دعاه إليه ، فوقع الشقاق بينهما بسبب ذلك .

فحين صار بينهما ما ذكر من الشنآن[170] أنكر الأجناس الآخرون من المسيحية على الفرنسيس تصميمه على خلاف الانبرادور ، وعدم مساعدته إلى ما دعاه إليه من طرح المهادنة . وكان للانبرادور عند الأجناس المسيحية منزلة ومكانة من أجل مقابلته المسلمين دائماً ، واشتغاله بالحرب معهم سائر أوقاته وزمانه ، ومن أجل ذلك يلقب بالانبرادور ، ومن أجل أجناس أخرى يتابعونه في حربه ، فأجمع الأجناس الذين هم إلى نظر البابا ، وكانوا شيعة للانبرادور ، عداوة للفرنسيس ، وكتبوا إليه قائلين له :

إعلم إن تجشمك لهذه الأمور ، وارتكابك لها ، من مخالفتك للبابا الذي نحن جميعاً إلى نظره ، وبتعمدك إلى خرق العوائد من إزالة ذوي الأقدار عن مكانتهم ، خالفت رأس هذا الدين ، وتعمدت مخالفته ، وقد علمت ما في مخالفته ، ومنها أيضاً مهادنتك مع الترك وبقاؤك معهم على المهادنة . وقد علمت ما بينهم وبين الانبرادور من الحروب التي لا يمكنك جحدها ، وفي ديننا ومذاهبنا تجب علينا معونته واتباعه . . فإما أن ترجع عن صلحك مع التُّرك وتصير معنا ومع

---

(168) وفي مخطوطة م : ويساعفونه في الأمور التي قدّر الله تعالى فيها شقاوته .

(169) وفي مخطوطة م : إلى خرمها .

(170) المقصود البغضاء والفرقى . (المحرر) .

الانبرادور حالة واحدة ، وإما أن نضرب الديوان[171] **على عداوتك وحربك .**

وذلك ظناً منهم أنه إن رأى اجتماعهم واتفاقهم كلهم على مقاومته وحربه ، لا يقدر على مقاومتهم ، فيرجع على نفسه باللوم والندامة ، وإن صمم على مخالفتهم ، أجمعوا على عداوته براً وبحراً فيقصمون[172] ظهره ويكسرون شوكته .

فلما رأى ما أجمعوا عليه ، وسوّلت له نفسه مقاومتهم ، وعلم من نفسه ذلك ، كتب لهم قائلاً : إني اطلعت على ما أجمعتم عليه ، وأريد أن توجهوا إلي ذلك بخطوط ملوككم ، لأرى في ذلك رأيي وأستشير فيه نفسي . فأجابوه إلى ذلك ، واتفقوا عليه ، ووجهوا به إليه .

فلما رأى ما أجمعوا عليه وقرأ ما اتفقوا به من حربهم له ، إذا لم يرجع عن مهادنته مع التُّرك ، ويساعف الامبرادور في فساده ويقلع عما كان ارتكبه من مخالفة البابا ، فهم حرب عليه .

فكتب تحت إشهادهم بذلك بخط يده :

هؤلاء الأجناس عدو للفرنسيس ، والفرنسيس عدو لهؤلاء الأجناس ، وبعث به إليهم .

فحيث رأوا ما أجمع عليه من عداوتهم ، لم يكن بد من حربه ، حيث أشهدوا على أنفسهم ذلك . واشتعلت الحرب بينهم بسبب هذا براً وبحراً ، وما زالت إلى الآن في هياج واشتعال .

وهذه الأجناس المذكورة هي : الاسبنيول ، والألمان ، والطليان ، والسوسة التي يسمونها النصارى بسوسية[173] وسابويه . ولم يختلف عن الدخول في حزب هذه الحرب إلا البرتغال ، فقد دعوا طاغيتهم إلى الدخول معهم فأبى ، ولم يدخل لهم حزباً ولا حرباً ، وكذلك جنس الجنويز لم يدخلوا معهم ، وكبيرهم دوكي يسمونه كران دوكي ، ومعناه الدوكي الكبير ، لما تحت يديه من الولايات والعمالات ، غير أنه

---

(171) يريد نحرّض ديوان التفتيش عليك . (المحرر) .

(172) وفي مخطوطة 2 : يقسمون (بالسين) .

(173) سوسة وسوسية : اسوج Suecia .

لم يورط نفسه مع هؤلاء في حرب ، وإنما هو مع الفرنسيس في مهادنة اتفق معه عليها ، بجعل معلوم وسفائن معدودة في البحر ، حيثما يطلبها يجدها . وبقي مع سائر الأجناس في مهادنة . وقد كان جنس الإنجليز والفلامنك قبل هذا أيضاً لم يدخلوا مدخل هؤلاء الأجناس المسيحية في حرب ، لأنهم لم يكونوا معدودين عندهم نصارى ، بسبب اختلاف ما بينهم من عدم المبالغة في اتباع البابا كما يتبعه سائر النصارى عبدة الصليب . والإنجليز والفلامنك هم حالة واحدة ، وهم ينكرون على الصليبيين أموراً وأشياءً ابتدعوها من الضلالة ، وكلهم على سنن ضالة ، نسأل الله السلامة ، وبسبب ذلك يسمي المسيحيون هؤلاء اللنجليز والفلامنك الريكيس[174] ومعناه الروافض .

وحيث كان طاغية الإنكليز تُوفي[175] أثناء عداوة المسيحيين في ما[176] بينهم ولم يخلف ولداً يلي ملك أبناء جنسه من بعده ، وخلف أخاً له يسمى يعقوب ، وكان يعقوب هذا هو وزوجته يعتقدان دين النصرانية خيفة ، من غير أن يعلم بهم أحد من قومهما .

ولما مات أخوه ، وتعين الأمر عليه ، لم يكن له بد من توليته وإنزاله منزلة أخيه ، فدعوه إلى التملك عليهم ، فامتنع وأبى تحيلاً منه ومكراً ، فحيث ألحّوا عليه ، ورأى أن لا سبيل لهم بالتعدي إلى تملك غيره ، لعدم من يستحقه بالميراث ، فقال لهم :

لا أساعدكم[177] إلى ما تدعوني إليه وتطلبونه مني إلا إن عملتم لي غرضاً لاضرر عليكم فيه وهو : أن كل من أحب ديناً يتبعه .

فوافقوه في ذلك ، وساعفوه ، وألبسوه التاج ، وملّكوه ، فلم يرعهم إلا وأصبح هو

---

(174) يقصد لفظة اريخس Herejes هراطقة ، ملحدون : هم الذين أنكروا عقيدة من عقائد الدين المسيحي ورفضوا الخضوع لسلطة البابا .

(175) هو كرلوص الثاني ملك إنكلترا مات سنة 1685 .

(176) محل : «في ما» بياض في الأصل . (المحرر) .

(177) وفي مخطوطة م : لا أساعكم .

وزوجته وقد علقا الصلبان ، وأظهرا افرائلياً[178] من النصارى كان عندهما ، ودخلا الكنيسة وصليا بصلاة النصارى ، وتبعه على ذلك من كان من بطانته عالماً به ، وأحبَّ أن يحمل أبناء جنسه على اتباع دينه الذي أصبح متديناً به .

فحين رأى جنس الإنجليز ما حل بهم من مخالفة ملكهم دينهم ، واتباعه دين أهل الصليب ، خافوا سريان ذلك الداء إلى عامتهم ، فلا يمكنهم حينئذ حسم تلك المادة . فأنكروا على الطاغية ما فعله من التدين ، فدوّنوا ديوانهم مزمعين على قتله ، فحين أحس بذلك منهم ، هرب إلى ملك الفرنسيس هو وزوجته ، واحتمى به ، فأجمع الفرنسيس على نصرته ومحاماته ، كرهاً من الإنجليز ورغماً على أنفهم ، فخاطبوه في ذلك ، وصار بينهم كلام كان الانفصال فيه إلى أن قال لهم :

أنتم أجمعون لي أعداء مثل سائر النصارى فاستعدوا لحربي إلى أن أرد الهارب إلى داره[179] ومملكته بالرغم منكم .

وحيث حل بالإنكليز ما حل بهم من خروج ملكهم ، وتولد الحرب بينهم وبين الفرنسيس ملّكوا عليهم البرينسيبي دورانجي قيّم جنس الفلامنك ، إذ كانوا هم وإياهم متدينين بدين واحد ، في اختلاف ما بينهم وبين أهل الصليب[180] ، ونولى البرينسيبي[181] أمرهم ، ولقبوه بالملك ، وأزمعوا على حرب الفرنسيس براً وبحراً .

---

(178) وردت قبلاً والمقصود : راهب . (المحرر) .

(179) وفي مخطوطة م : إلى أرضه .

(180) يقصد المؤلف بأهل الصليب وعبدة الصليب الكاثوليك فقط كما إنه يستعمل كلمة (النصارى) بهذا المعنى . فالنصارى كلمة تطلق على جميع المسيحيين : من كاتوليك وبروتستنت وأرثوذكس إلى غير ذلك من الطوائف المسيحية وعندما يتكلم عن دين الإنكليز والفلامنك (الهولّنديين) يقصد به المذهب البروتستنتي .

(181) برنسيبي Principe بالإسبانية : أمير . (المحرر) .

وحيث كانت بلاد الفلامنك ولانضة[182] مجاورة لبلاد فلانضس ، وبلاد فلانضس هي بالأصالة من جنس الفلامنك أيضاً ، وكانوا قبلاً على رأيهم ومذهبهم في التدين والاعتقاد ، وحين صارت فلانضس عمالة لجنس الاسبنيول بانتقال الكوندي زوج ابنة فرنندو الذي كان بإشبيلية ، كما قدمناه ، وصارت فلانضس وجميع أحكامها إلى نظر طواغي إسبانيا ، لزمهم ، بما لهم عليهم من الغلبة ، أن يتنصروا ويكونوا على دين حاكمهم . فنهض إليهم ملك الفرنسيس هذه السنة بمحلة أصحبها قبل مع ولده الدلفين[183] أبعده الله ، وأدركه هو بعد ذلك بنفسه ، فخيم على قاعدتها مدينة مونص[184] وحاصرها أياماً قليلة ونصب عليها المدافع والبونبات وضيق بأهلها تضييقاً كثيراً . وكان بها من ادالة الاسبنيول اثنا عشر ألفاً ، فحيث رأوا ما حل بهم من التضيق وخافوا الهلاك أعطوه القيادة ، فملك القاعدة وجميع ما هو محسوب عليها ويضاف إليها من القرى والمدن والعمالات ما ينيف على سبعمائة بين مدن وقرى ، وحين فتحها دخلها في يوم عيد الفصح منتصف شهر أبريل من عامنا هذا ، فترك المحلة صحبة ولده الدلفين ورجع إلى باريز دار مملكته وقاعدة بلاده ، وما زال ولده اليوم مقابلاً للبرنسيبي دورانجي المملّك على جنس الفلامنك والإنجليز ، وذكروا أن عدد جيوش البرينسيبي خمسة وسبعون ألفاً ولهم عمارة في البحر مقابلة لعمارة الفرنسيس ، وزعموا أن عمارة الإنجليز هزمت عمارة الفرنسيس وأفسدت لهم أربعين سفينة ، وقد حارب الفرنسيس أيضاً الاسبنيول براً وبحراً ، ففي البر حاصر

---

(182) هولاندة Holanda .

(183) الدلفين Delfin والأصل بالفرنسية Le Dauphın لقب كان يطلق على الإبن البكر من أبناء ملوك فرنسا . (المحرر) .

(184) استولى الفرنسيون على مدينة مونص في 9 أبريل سنة 1961 .

مدينة كطلونيا في عمالة برسلونة[185] وقباله محلة لجنس الاسبنيول ولي أمرها دوكي مدينة صيدونية الملقب بقزمان ، وقد كانوا أيام مقامنا بمدريد يخافون عليه من الفرنسيس فأمدوه بجيش قليل لا بال له وكانوا ينتظرون ما يكون بينهما ، فزعموا أن في هذا الشهر خيم عليها ونصب عليها وعلى المدينة برسلونة المدافع والبونبات وهدم منها عدة دور ، فنهض أهل برسلونة إلى من ببلادهم من جنس الفرنسيس وأمروا بالخروج من هو أعزب ، وأن لا يُترَك إلا من هو متأهل ، وحين فعلت سفن الفرنسيس ببرسلونة ما فعلت تقدمت إلى مدينة تسمى أَلِقَنْتي[186] فهدمت أيضاً منها بالبونبات ما ينيف على ست مائة دار .

فأحاط أهل ألقنتي بمن معهم أيضاً من الفرنسيس وقتلوهم بحيث لم يفلت منهم أحد ، فزعموا أن من قتل منهم بألقنتي ثلاثة آلاف نفس .

وحين سمع الاسبنيول بتقدم عمارة الفرنسيس إلى ألقنتي وبرسلونة وكانت عمارته قد ذهبت إلى البحر الكبير بقصد البحث عن سفن الهند[187] لبطء إخبارها عنهم وفوات وقت قدومها بعادتها ، فوجهوا من استرجع العمارة لتتقدم نحو بلاد ألقنتي وبرسلونة لمحاربة عمارة الفرنسيس ، فلم تصل العمارة إلا وقد هدم الفرنسيس ما هدم وعمل ما عمل ورجع ، فلم يدركوا بتلك الناحية أحداً من عمارة الفرنسيس .

وللفرنسيس أيضاً حروب أخرى مع أهل بنيسيا[188] وإيطاليا وألمانيا وسابوية[189] فإن بلاد سابوية هي في يد دوكي يسمى دوكي سابوية كان دخل في حزب أهل الصليب في العداوة التي نشأت بينهم وبين الفرنسيس .

وفي هذه السنة تقدمت محلة الفرنسيس نحو سابوية وضايقت أهلها تضييقاً كثيراً وملكت جميع بلاد سابوية ومدنها وقُراها حتى لم يبقَ للدوكي القيم عليها إلا المدينة

---

(185) هكذا في الأصل ، والصحيح : برسلونة من عمالة كطالونيا .

(186) أَلِقَنْطِي Alicante .

(187) يقصد أميركا ، التي كانت تسمى منذ اكتشافها وحتى زيارة الغساني ببلاد هند الغرب . (المحرر)

(188) فنيسيا Venecia .

(189) سابويا Saboya .

التي هو محاصر بها اليوم وما زالت المحلة محيطة به ومحاصرة له .

وبسبب محاربة الفرنسيس للانبرادور حسب ما تقدم ذكر الأسباب المثيرة لها ينسبون له المعونة لملك الترك قوّاه الله ويزعمون أنه يمده بما يحتاجه من الأمور الحربية مثل المدافع وغيرها ، وبسبب مقام انباشادور للفرنسيس ببلاد اسطنبول يزعمون أنه يمده ، والصحيح هو : أن أهل فرنسا أهل أسباب وتجارة وجل تجارتهم إنما هي في الناحية الاسطنبولية ولأهل الأسباب والتجارة عند طاغية الفرنسيس دمره الله منزلة ومكانة إذ كانوا هذه السنين هم أهل ديوانه وجل بطانته فكان يساعفهم في ما يؤول إلى منفعتهم من الأسباب والتجارة التي يعود نفعها عليه ويحصل له بسببها من الأموال ما يحل بخلاف غيره من الأجناس ، مثل هذا الجنس الاسبنيولي فإن التاجر عندهم لا يعد شيئاً ، وبسبب ذلك قل التجار من جنس الاسبنيول ، ولا تجد أحداً منهم مسافراً في بلد بقصد التجارة إلا ما كان في بلاد الهند .

وأكثر من بإسبانيا من المتسببين والتجار هم من الإنجليز والفلامنك والجنويز[190] وغيرهم ، فديوان الفرنسيس مع التجار من قومه هو بسبب ما يراه من المنفعة في ذلك وإلا فالترك يطلبون القوة والمعونة من الله تعالى لا كما يزعم هؤلاء الجهال أهل اللالة . لأن انتقال الفرنسيس للانبرادور وحربه معه للترك بسبب استخلاص في السنة الفارطة مدينة ابن الأغراض[191] وما حولها ، والله تعالى ناصر دينه .

والذي ورد هذه الساعة من الأخبار عن ملك الترك أيده الله أنه جمع جموعاً كثيرة ، وأنه لا يثني العنان بحول الله وقوته دون مدينة باينا[192] التي هي قاعدة ألمانيا ومحط سريره ولقد أخرجوا في أخبارهم التي يكتبونها على عوائدهم في هذا الشهر : أن وزير السلطان سليمان برز بمحلته وبها مائة ألف مقاتل وخمسة وعشرون ألف مقاتل ، وأن جيش التتار قدم في ميعاد محلة الترك بثمانين ألف مقاتل ، وقد

---

(190)الجنويون ، من جنوة . (المحرر) .

(191) ابن الأغراض ، ابن الأكراد : بلغراد Belgrado قد استرجع السلطان سليمان مدينة بلغراد من دوق بافاريا وافتتحها عنوة سنة 1691 .

(192) فيينا Viena .

صادف وصولهم الموضع المعتاد لمحلة القبطان من خدام الانبرادور مخيماً بموضع من المواضع ومعه ستة آلاف مقاتل ، فحارب التتار محلة القبطان المذكور فأسروا من قومه أربعة آلاف شخص[193] وقتلوا عدة ولم يفلت من الباقين إلا النزر الذي لا يُعَدُّ لقتله ، ومع الترك محلة لكنديّ يسمونه التاكلي كان قبل هذا تحت ملك الترك بذمة وعهد ، فجذب بعد ذلك لرأسه ، فلما وقع بمدينة ابن الأغراض ما وقع رجع التاكلي إلى نصرة السلطان سليمان أيده الله ، وفعل لجنس أهل الصليب أفاعيل نوهوا به في تاريخهم بسببها .

ولقد ذكروا أن الانبرادور كثيراً ما حاول أن يثني التاكلي عن ملك الترك فلم يقدر ، ثم بعد ذلك أغار بعد أصحاب الانبرادور على قوم التاكلي ، فأسروا منهم عدة وكان فيمن أسروا زوجة التاكلي وبعض أولاده ، فأزمع الانبرادور على قتلهم رجاء أن يثنيه ، فلم يفعل . فحينئذ حبس الانبرادور زوجة التاكلي ومن أسر معها[194] وما زالت إلى الآن عنده ، وازداد بذلك التاكلي جرأة وتمادياً على أهل الصليب .

وما زال الانبرادور ، قبحه الله ، يستغيث بأهل الصليب ويجعل بينه وبينهم المهادنة ممن والى بلاد الترك ليكونوا له معونة باشتغال المسلمين قوّاهم الله مثل جنس يسمى بولونيا[195] فإن بولونيا هذه جنس من أجناس النصارى ولهم عمالات وبلاد موالية لبلاد الترك ، ولهم طاغية هو في حرب مع الترك أيضاً .

وزعموا أن الانبرادور كان يريد أن يُدخل معه في حرب الترك جنس مسكوبيا وهم في بلاد من ناحية الشمال ، فحاول منهم ذلك إلى أن أجابوه . ثم وقع بينهم ما أوجب المنافرة والوحشة . ويزعمون أن طائفة من التتار قد وقع بينهم وبين إخوانهم منافرة وهم تحت عهد طاغية مسكوبيا بذمة ، ويزعمون أن لهم عدداً كثيراً أخلى الله الأرض من جميعهم وعمَّرها بدوام ذكره وتوحيده ، ونصر دينه القويم .

---

(193) وفي مخطوطة م : رأس .

(194) سُجِنَت زوجة التاكلي وأولادها في موبكَكْس Munkacs زمن الحصار 1685- 1688 إلى أن أُطلِقَ سبيلهم .

(195) بولونيا Polonia .

وللجنس الاسبنيول عادة فيمن يريد الكبيرة ولم يظهر له من أين يدركها ، أو لم تكن له يد عند المخزن[196] يلحق بها ما يعيش به ويكفيه عن معاطاته الأسباب وغيرها بأن يقصد بلاد ألمانيا ، على بعدها ، ويحضر هنالك الحرب مع المسلمين ، أعزهم الله ، ويجعل بيده إشهاداً وبينات تثبت له خدمته ونصيحته وبذل مجهوده ، وحين يرجع إلى بلاد إسبانيا يستظهر بالإشهاد الذي بيده ويدلي بحجة الخدمة وصدق النية فيما كان إليه ، فيدرك بذلك من الكبيرة ما هو له أهل ، أو مثل ما يدرك أمثاله الذين لهم يد أو لهم حجة يطلبون لها ذلك . وهي عوائد الشلطاظ الذين منهم يحبون الكبيرة .

وإن كان من نسل أعيان أهل بلاده ، وكان لوالده لقب من ألقاب الكبيرة مثل الدوكي ، والكوندي ، أو المركيس ، ومن دونهم في المنزلة ، ولم يكن لهم ميراث يرث به كبيرة والده ، يتقدم إلى محلة من المحال وأكثرها بلاد ألمانيا ، فيحضر هنالك حرباً أو لم يحضره ، فحين ينقلب يأتي في يده بإشهاد من رئيس المحلة بأنه حضر معه حرب كذا في موضع كذا وأبلى بلاءً حسناً ، وفعل وفعل ، سواء فعل ذلك أم لا ، فيطلب منزلة أو راتباً يتسع به حاله[197] لأن من عوائدهم في الميراث إنما هو للبكر من الولد ذكراً كان أو أنثى ، فإذا مات أحد الأعيان من الملقبين بهذا اللقب يورّث ذلك للبكر بجميع متروكه ، بحيث لا يرث غيره معه من إخوانه شيئاً ولو كانوا بعدد كثير ، وليس لهم إلا ما يمنحهم والدهم في حياته بعطية أو هبة أو صداق يصدقه للبنت ، لأن من عاداتهم إعطاء الصداق مع البنت .

فإذا كانت البنت هي الوارثة لكبيرة والدها وصادف تزويجها بعض من له لقب من ألقاب كبيرتهم مثل لقبها أو أكبر منه يتولى جميع ميراثها وتصير تلقب هي بلقب الزوج إذا صادف تزويجها بعض أولاد الأكابر ممن ليس له لقب ولم يكن وارثاً لأبيه يحصل هو بتزويجه إياها على كبيرتها ويصير ملقباً بلقبها ، ومن أجل ذلك يتعطل تزويج بعضهم ممن ليس بوارث لتشوقه إلى تزويج ابنة أحد الأعيان ممن لها ميراث ،

---

(196) تقدّم شرحه . (المحرر) .

(197) تفيد هذه الإشارة بانتشار الفساد الإداري والرشوة لدى فئة القادة والعسكريين الإسبان . (المحرر) .

وأما إذا لم يكن لها ميراث فعادتها في الصداق[198] هو أن يمنحها والدها مائة ألف ريال لا يزيدها على ذلك بتقدير من الطاغية[199] .

الأميرة والمتبارزون

ولهم في الميراث عادات ليست جارية على قانون واحد في ميراث الكبيرة ، مثل ما لوزير من وزراء طاغية إسبانيا يسمى كندي اسطابلي ، مع أنه معروف عندهم في الكبيرة ، وذلك أن عادته الموروثة من عهد أسلافه إذا مات ولم يخلف ولداً ذكراً فإن ميراثه وكبيرته لا يرثه أحد من ذوي قرابته ، وإنما يرثه رجل أجنبي من حدامه : الأول منهم . فالأول ، فإذا مات ، ينظر إلى خدامه الأسبق والأقدم في الخدمة فبتولى جميع منزلته وكبيرته من وزارة وغيرها .

وإذا اختلف في أي خدّامه الأقدم والأسبق يعين ساعة معروفة . ويخرج من داره من معروف عندهم بالأمانة والثقة في دينهم ، فحين يخرجون أول مأربهم يدعونه ويولونه تلك المنزلة ، سواء كان من ذوي الاقتدار أو من سائر الناس ، فيأخذونه

(198) يراد في الصداق عند النصارى البائنة La Dote والفرق بين الصداق والبائنة هو أن الصداف شرعي إلزامي والبائنة اختيارية يتفق عليها وتدفعها المرأة للرجل ، بعكس الصداق الذي بلتزم الرحل شرعياً بدفعه للمرأة والبائنة بمعناها العام . هو ما يكون مع العروس من مال وجهاز عند زفافها .

(199) الريال عند الاسبنيول هو جزء من عشرين من الدورو والدورو هو الريال المصطلح عليه عند أم أخرى بكونه خمسين فرنكاً أو خُمس اللويز الذهبي فيكون الصداق أعلاه هو عشرون ألف دورو من قسمة مائة ألف على 5 يخرج 20 ألفاً الريال عند الاسبنيول هو جزء من عشرين مس الدورو والدورو هو الريال المصطلح عليه عند أم أخرى بكونه خمسين فرنكاً أو خُمس اللويز الذهبي فيكون الصداق أعلاه هو عشرون ألف دورو من قسمة مائة ألف على 5 يخرج 20 ألفاً هكذا في الأصل والصحيح : فيكون الصداق أعلاه خمسة آلاف دورو من قسمة مائة ألف على عشرين يخرح خمسة آلاف . ط وهذه القطعة التي بين قوسين ساقطة من مخطوطة مدريد . فلا شك أن هذا التعديل وهذه العملية الحسابية من تعالبق النسّاخ ، فإن (الفرنك) لم يكن معروفاً ولا مستعملاً في عهد المؤلف .

ويذهبون به إلى طاغيتهم ، فيجثو أمام الطاغية ساعة ، وبعد ساعة يأمره بالوقوف عن يمينه موضع الوزير المُتوفى ، ثم يأمره بعد ذلك بتغطية رأسه وقد نولى تلك المنزلة ، واحتوى على جميع أمتعته وأملاكه وبلدانه وعمالته . لأن من عادة هؤلاء الأكابر الذين عند العجم لهم في يدهم ولايات ومدن ورثوها حين تغلبهم على هذه البلاد وأعطوها تلك الساعة ، فلا تنزع من يد أحد من خلف ذلك السلف الذي ولي شيئاً منها .

ولهذا الكندي بنت ولد أخ ، لكنهم لا يرثون منه شيئاً لخلوهم عن عادة الميراث ، وله ولد ابن زنى فإنه لا يرثه ، وهو حاكم قالص اليوم .

ولهم عادة أخرى عند رجل يدعى البرينسيبي ببرسلونة من ناحية قطلونيا مات وخلف ابنة من أجمل أهل زمانها ، وخلف لها من الأموال والأمتعة والذخائر والضياع والمدن والقرى ما لا يحصى . وفي ميراثها منه جميع مختلفه وعهد أن لا يتزوجها إلا من غلب وقهر أترابه ، يحضها بعد المحاربة . وحين تُوفي والدها وشاع خبر ميراثها في سائر أجناس أهل الصليب ، ورد جميع أولاد الأكابر والأعيان من كل فجّ يطلبون البراز[200] أمامها ، ويروم كل واحد منهم أن ينالها . وأجل ذلك عندهم ستة أشهر ، فحين يأتي الرجل الذي يريد البراز مع الغير ينزل خارج المدينة ، بعد أن يمر عليها وتراه وتصرفه ، ويتواعدون ليوم معلوم فيخرجون إلى موضع المبارزة ، ويركب كل واحد من المتبارزين فرسه بعد أن يستعد ويلبس من الحديد والدروع ما يقدر عليه ويجعل في يده قناة ، مركّباً في رأس حربتها حجارة من اليمنط[201] بحيث تحبس في الحديد ويزهق عنه ، ويقصد كل واحد منها صاحبه ويضع القناة في صدره ويتدافعان ، فأيهما أذرا[202] صاحبه عن فرسه صار هو الغالب إلى أن يغلب فينزل ناحية ، وتصير حينئذ المرأة هي التي تنفق عليه إلى أن ينتهي أمد الأجل المذكور ، ولا يبقى من يقوم لذلك القصد . فحينئذ يخرج المنعزلون أيضاً من جميع من غلب ، ويتبارز رجل مع

---

(200) البرار هنا : المبارزة . (المحرر) .

(201) ديامنط . Diamante الماس .

(202) درا : فرّق . والمقصود رماه عن فرسه . (المحرر) .

آخر . فأي ذلك العدد المنعزل غلب أيضاً صارت له الزوجة بالميراث الذي لها .

ولقد زعموا أنه ورد من الأعيان جماعة وتبارزوا وكان بينهم شاب ابن عم طاغية الفرنسيس أعجبها حين رأته وبعثت إليه هدية وضيافة لم تكن من عادتها توجيهها لأحد في اليوم الذي يقدم فيه ووقع بقلبها منه ما وقع .

فإن مثل هذه المسألة وأشباهها من الأمور الجارية على غير قانون واحد هي عوائدهم في الميراث ، كل وما يراه برأيه قبل موته .

عادات في الميراث

وللرجل عندهم النظر في جميع ميراثه ومتاعه وماله ، إن أحب أن يعطيه لأجنبي أو أجنبية ويخلي أولاده من الميراث ، فلا حرج عليه في ذلك . وإذا ورث متاعه الغير ، أو ورثه الغير بمصاهرة بأن يتزوج أحد ابنته ، بعض من له لقب الكبيرة ، وكانت هي التي ورثت والدها وليس لزوجها لقب ، أو كان له لقب دون لقب زوجته ، صار هو يدعى بلقب والد الزوجة ويحتوي على جميع ذخائره وأمتعته ، وأولاد الرجل المورث يلقبون غير لقب والدهم .

ومن أجل ميراث النساء على هذه الصورة صار هذا الجنس الاسبانيولي يتوقع تولية الفرنسيس عليهم بإحدى الأمرين : إما بالميراث إذا لم يولد لطاغيتهم :

وذلك أن طاغية الفرنسيس كان تزوج ابنة فيليب كوارطو أخت هذا الطاغية[203] لأبيه فولدت منه ولداً يسمى الدلفين[204] ظهر له من المكر والخبث أكثر مما لوالده ، فإذا مات هذا الطاغية كرلوص سكوند ولم يخلف من يلي ملك إسبانيا من نسله صار ملكها لولد طاغية الفرنسيس بالميراث من قبل أمه[205] .

(203) هي ماريا تاريزا ولدت سنة 1683 .

(204) وردت قبلاً : والمقصود هنا ابن لويس الرابع عشر وماريا تاريزا ولد سنة 1661 . (المحرر) .

(205) صدقت تكهنات الوزير ، فبعد موت كرلوص الثاني اعتلى عرش أسبانيا حفيد ملك فرنسا فلبب دي انجو باسم فليب الخامس وذلك بعد حرب طاحنة تعرف بحرب الميراث .

وإما بما يظهر لهم اليوم من حربه معهم ، وتقدمه بنفسه إلى المحال والحرب ، وعجز طاغيتهم عن التقدم بنفسه وعدم نهوضه في جميع زمانه إلى حرب وقتال . وبسبب هذين الأمرين وتوقعهم ولايته عليهم ، صاروا يتعلمون لسان الفرنسيس ، ويعلمونه أولادهم في المحافل والمحاضر من غير مبالاة بطاغيتهم ولا اكتراث .

وما وقع هذه السنة من الفتك بالفرنسيس وقتلهم إياه يثير بينهم من الحنق ما يشغلهم ويضرم نيران العداوة بينهم .

وقد كانوا فيما قبل موت البابا المُتوفى هذا العام يزعمون أنه كان يحاول صلحاً بينهم ثم مات . إلا أن الفرنسيس حيث كان وقع بينه وبين البابا ما تقدم من المنافرة صار يحدث لنفسه أحكاماً وأموراً دون البابا .

وسبب مخالفة الفلامنك والإنجليز لأديان الصليب في ما قيل أن بعض الفريلية كان وقع له مع البابا تنافر ومشاحنة أدى ذلك إلى أن سجنهم سنين . وحيث وقع لهم السراح نفروا من البابا وانحازوا إلى طاغية الفرنسيس ، وصاروا يحدثون له من الديانات ما يوافق هوا ،ه إلى أن جوّزوا له تزويج امرأة كان عشقها وأحلّوا له أخذها مع زوجته الملكة(206) وقد كان البابا نهاه عن ذلك ومنعه من التزويج مدة حياة زوجته . فخالف البابا في ذلك وعمل ما اشتهاه لنفسه(207) ودعاه إليه قلبه ، مع أنه لا يحل لهم في دينهم تزويج أكثر من امرأة واحدة .

وهذا البابا المذكور لا يقدرون أهل الصليب على مخالفته في شيء قلّ أو جلّ حيث كان يحدث لهم الديانات والأحكام والأكل في أيام الصيام وغير ذلك مما هو مخالف فيه لنصارى المشرق ، وإن كانوا كلهم على ضلال ، قبحهم الله وأخلى منهم الأرض .

---

(206) هذه الحادثة التاريخية وقعت لملك الإنكليز انريكوس الثامن الذي انشق عن الكنيسة الكاتوليكية وأسس المذهب الانكليكاني الانجيلي (البروتستنت الانكليكان) فقد نسبها المؤلف خطأ إلى ملك فرنسا .

(207) وفي مخطوطة مدريد : وعمل ما اشتهته نفسه .

وذلك أنه في صيامهم يأكلون اليوم كله ويزعمون الصوم كما شهدناهم وذلك أنه في آخر شهر فبراير[208] يجعلون أعياداً ومواسم ، يحتالون فيها للصوم ، فإذا كان أول يوم من شهر مارس فهو أول يوم من أيام صيامهم وهي ستة وأربعون يوماً المفروضة على بني إسرائيل ، والستة أيام الزائدة هي كل يوم أحد دخل في هذه الأيام التي هي أيام الصوم ، فيتحصل في ذلك ستة وأربعون يوماً ، وهذا الصوم الذي يصومونه ليس هو بإمساك عن أكل أو شرب أو جماع ، وإنما هو إمساك عن أكل اللحم في ما يزعمون ، إلا من كان من الإيمان منهم أو من به عذر من مرض ، فإنه يأكل اللحم بأمر من البابا ، وغيرهم من العموم يأكل الحوت[209] في جميع أيام الصوم ، وقد أحدث لهم أيضاً فيما أحلّه لهم أكل بيض الدجاج في أيام الصوم ، بعد أن يأخذوا الإذن من الفريلية ، ويعطي على ذلك جعلاً معلوماً قدر ثمن ريال عن كل نفس صغيرة أو كبيرة ، فيحصل من ذلك مالاً كثيراً ، للطاغية فيه الثلث يصرفه على سفنه البحرية ، فتجد الرجل المسكين الذي لا يملك درهماً يتطلب في الأسواق ليجمع ما يشتري به البولِيَة[210] وهي الإذن في أكل البيض وأكلهم في أيام الصوم هو سائر اليوم ، فإذا انتبه النصراني من نومه وقت الضحى أو بعده يشرب كأساً أو كأسين من الشكلاط مع ما يقدر عليه من البشكتو[211] وهو خبز معجون بالسكر وصفرة البيض ، فإذا انتصف النهار ومرت بعده ساعة يأكلون أكلاً ذريعاً ، فمن كان من الأعيان الذي لا حرج عليه أو اعتذر بمرض يأكل من اللحوم ما شاء ، ومن لم يكن من الأعيان أو

---

(208) وفي مخطوطة مدريد : فبرير .

(209) وردت قبلاً . ويقصد بها كل أنواع السمك .(المحرر) .

(210) البوليةَ (البولا) (La Bola) التفسيح : الإذن الكنائسي الذي يسمح لحامله الأكل في الأصوام المفروضة لعذر يقدمه .

(211) وفي مخطوطة مدريد : البشكوتشوا Bizcocho .

نوى الصوم في عزمه يأكل لحم الحوت والبيض وغيره ، ويشرب من الخمر ما شاء صرفاً أو ممزوجاً ، ومتى عطش يشرب على اختياره ، حتى إذا انتصف الليل يأكل من الطعام ما خفّ قدر نصف رطل في زعمه ، ويبيت إلى الغد . وحين انتباهه من نومه يشرب على العادة وهكذا سائر أيام الصوم . إلا أن الفريلية لهم إذن في الأكل أيام الصوم قبل انتصاف النهار بنصف ساعة ، وعذرهم في ذلك أنهم يبيتون من الليل في تعب التهجد والعبادة في زعمهم ، وغير الفريلية لا يأكل إلا بعد انتصاف النهار .

ولهم في أيام الصوم يوم زائد على يوم الأحد في استماع الكفر والدخول إلى الكنائس ، وهو يوم الجمعة رجالاً ونساءً ، وعندهم من القربات[212] أن يمشي الإنسان ذلك اليوم راجلاً ، فينزل من على فرسه ومن كدشه ويتمشى ساعة ، ومتى عطش شرب . يستمرون على صومهم ، على الوصف المذكور ، إلى أن تمرَّ ثمانية وثلاثون يوماً ، فتدخل عندهم الأعياد التي جمعوها في هذا الصوم ، حسبما يزعمون وقوع ذلك للمسيح في اعتقادهم . فإذا كان اليوم التاسع والثلاثون كان عندهم عيد الشعانين .

عيد الشعانين

وعيد الشعانين هو يوم دخول المسيح بيت المقدس ، على ما في إنجيلهم المتداول بينهم ؛ وإن المسيح لما دخل بيت المقدس في ذلك اليوم خرج جميع بني إسرائيل لملاقاته وقد فرشوا الطرق والسكك بالجريد وورق الأشجار : وفيه كان بنو إسرائيل يطلبون عليه شهادة ليمسكوه ويقتلوه ، فآمن به في ذلك اليوم جمع كثير ، على ما هو مذكور في إنجيلهم ، فلم يمكنهم إمساكه ولا الإنكار عليه في ذلك اليوم لكثرة من آمن به . فأعد النصارى ذلك اليوم عيداً يجتمعون فيه إلى الكنيسة ويخطبون ويذكرون شأنه وما وقع له ، ويخرجون الصليب ويطوفونه في الأزقة وفي يد كل واحد من

(212) المقصود هنا : الطقس ، والعادة . (المحرر) .

الحاضرين جريدة من النخل أو عود من عيدان[213] الزيتون أو غيره من الأشجار الرطبة اللينة كالرند وما أشبهه ، ويردونه إلى موضعه .

ولقد رأيت الطاغية ذلك اليوم وقد دخل كنيسة في داره وسمع بها من الكفر ، والعياذ بالله ، ما ألقاه عليه وعلى الحاضرين القسيس قيّم الكنيسة ، وخرج بعد ذلك هو وجمع القسوس والرهبان السوبيسبو[214] ومعناه المفتي والنوسي[215] الذي هو خليفة البابا ، وقد ألبسوا الرهبان ثياباً فاخرة من الحلل المرصعة وفي يد كل واحد منهم جريدة من نخل ، وقد حملوا صليباً من فضة أمامهم ، وعلى الصليب صورة مغطاة بكسوة من حرير ، وبين أيديهم جماعة من الفريلية الصغار الذين يحسنون الغناء ومعهم آلة الطرب من الموسيقة وشبهها ، وفي يد الفريلية ورقات يقرؤونها بألحانهم ، وخلف هؤلاء الفريلية أكابرهم وخلفهم الأعيان من خواص الطاغية ، وهو خلفهم وفي يده جريدة من نخل قد غشوها بالأزهار ، فطافوا به دار الطاغية وردوه إلى موضعه بالكنيسة ، وكذلك يجعلون في كل كنيسة من كنائسهم ، فتلقى ذلك اليوم وبعده جميع النصارى وبيد كل واحد جريدة من نخل أو عود من الزيتون أو غيره من سائر الأشجار .

وفي ذلك اليوم حيث حضر الطاغية عيد الشعانين ولم تحضر معه زوجته ، بعث إلينا يعتذر عن عدم خروجها وحضورها لمرض منعها عن الخروج .

وكان لنا بذلك علم ، فاعتذر لنا من ناب عنه في الاعتذار ، ومن الغد أيضاً يجتمعون في الكنائس ويخطبون ويذكرون ما وقع للمسيح بعد ما وقع للشعانين مع بني إسرائيل حيث كانوا يتألبون عليه ويتشاورون في قبضه وقتله .

---

(213) وفي مخطوطة مدريد : من أعواد

(214) السوبيسبو : الأرسوبيسبو Arzobispo رئيس الأساقفة

(215) النوسي : يقصد النونسيو Nuncio ممثل البابا ، القاصد الرسولي .

فإذا كان اليوم الرابع والأربعون كان عيد الفطر من الصوم وهو المسمى بالفصح . وفي هذا اليوم عيد الفصح ، يجعل الطاغية طعاماً معداً للمساكين ويدعو ثلاثة عشر رجلاً من الفقراء ويخلي لهم بيته ويجلسهم في مراتبهم ويأتي السوبيبسبو المفتي والنوسي خليفة البابا ويحضران مع الطاغية في تناوله[216] الطعام للفقراء المذكورين بيده ، ويتصرف بين أيديهم في تقديم الأواني وتخليفها ورفعها مثل الخادم الذي يناول مخدومه ، حتى يدفع لكل واحد من الفقراء الثلاثة عشر ثلاثين آنية من الطعام ليس فيها من اللحم شيء لعدم أكلهم اللحم في أيام الصوم . وإن كان اليوم يوم فطر من الصوم فإنهم أدخلوه الستة الزائدة على الأربعين كما قدمناه ، وإنما يطعمهم الحوت على أنواعه ويكمل عدد الثلاثين آنية بأنواع الفواكه الرطبة واليابسة ، حتى يطعمهم جميعاً ويناولهم الشراب والخمر ، فإذا فرغوا من الطعام جاء رئيس الكنيسة وحبس في يده الطست ، والنوسي خليفة البابا الماء ، والطاغية يغسل أقدام هؤلاء الفقراء جميعاً وينشفها بمناديل معدة لذلك[217] وعند فراغه من تنشيف أقدامهم يقبل قدم كل واحد منهم ويعطيه كسوة ودراهم وينصرفون بجميع ما دفع لهم وبالطعام الذي فضل بأوانيه ، فتجدهم يبيعون ذلك في الأزقة بزحام لاعتقادهم أن[218] في ذلك الطعام بركة . وكذلك تجعل زوجته وأمه ، فكل واحدة منهما تطعم ثلاث عشرة امرأة من الفقراء ، على وصف طعام الفقراء الذين أطعمهم الطاغية .

وهذا الغسل في زعمهم ، على ما في إنجيلهم ، هو قربة[219] وسنّة فعلها المسيح في ما يرونه يوم الفصح ، وذلك أنه لما كان يوم الفصح وأحبَّ المسيح أن يفطر من

---

(216) يقصد : مناولتهم الطعام . (المحرر) .

(217) يشير إلى رتبة خميس الغسل والعشاء السري

(218) موضع : «أن» فراغ في الأصل . (المحرر) .

(219) القربة ، والقرب ، والقربات : مايتقرب به إلى الله . وهو ما قصده المؤلف . (المحرر)

صومه ، قال له تلامذته :

أين تريد أن نعد لك لتأكل؟

فقال لهم : اذهبوا إلى الموضع الفلاني - سماه لهم- حتى يلقاكم رجل يحمل جرة ماء فاتبعوه إلى الموضع الذي يدخل إليه ، وقولوا لرب الدار إن المعلم يريد أن يأكل الفصح عندك .

فذهبوا ووجدوا الرجل الذي يحمل جرة الماء ، فتبعوه إلى الموضع الذي وصفه لهم وقالوا لرب الدار : إن المعلم يقول لك : أعد له الفصح ليأكله عندك .

فهيأ ذلك الرجل الفصح ، وأتى المسيح مع تلامذته وهم ثلاثة عشر رجلاً ، فأكل معهم الفصح . ولما فرغ من الأكل قام على قدميه وأخذ منشفة شدَّ بها وسطه وجعل يغسل أقدام أصحابه واحداً واحداً ، ولما انتهى إلى سمعان الصفا(220) قال له :

أنت تغسل لي قدمي؟

فقال له المسيح : إن الذي أصنعه لست تعرفه الآن ، ولكنك ستعرفه في ما بعد .

فقال له سمعان : لست بغاسل لي قدمي إلى الأبد .

فقال له المسيح : الحق أقول لك إن لم أغسلهما فليس لك معي نصيب .

فقال له حينئذ سمعان : يا سيدي لست تغسل لي قدمي فقط ، بل ويدي ورأسي .

فقال له المسيح : فإذا كنت أنا معلمكم قد غسلت أرجلكم فأنتم أحرى أن يغسل بعضكم أقدام بعض ، وإنما أعملت لكم هذا مثلاً لأني كما صنعتُ بكم تصنعون أيضاً .

فهذا هو السبب الذي لأجله تُغسل أقدام هؤلاء الفقراء ، وكذلك يجعل الأعيانُ والأكابر من له وجاهة ومال .

---

(220) المقصود : سمعان الصفا (الصخر) ابن يونا 10 ق .م : أحد تلامذة السيد المسيح وهو الذي أطلق عليه هذا اللقب عندما قال له ما معناه : أنت الصخرة وعليك أبني كنيستي . (المحرر) .

يهوذا الاسخريوطي

وقد زعموا أيضاً أن المسيح لما كان يأكل مع تلامذته الفصح قال لهم : إن أحدكم هو الذي يُسلمني الليلة .

فجعل كل واحد منهم يتبرأ ويحلف ، وكان بين التلامذة الثلاثة عشر رجل يُسمى يهوذا الأسخر يوطي ، زعموا أنه كان من التلاميذ ووسوس له الشيطان أن اتَّفَقَ مع اليهود المتألبين على المسيح ، وباعه لهم بثلاثين من الفضة ، وأسلمه لهم ليلة قُبض عليه إذ كان في البستان يصلي ليلاً ، وأتى يهوذا هذا مع الحرس الذين أتوا لقبضه .

الطواف

ولما كان العيد ، خرج سائر النصارى والقسيسون والرهبان ، والخصوص منهم والعموم ، وأخرجوا جميع ما عندهم من الصلبان الصور التي يعبدونها ، وطافوا بها في جميع أزقة المدينة ، وقد حملوا من الشموع الموقدة نهاراً ما لا عدَّ له . ولا يقدر أحد أن يترفع عن حمل الشموع والمشي أمام الصلبان والصور ، ويقصدون بذلك من كنيسة إلى أخرى ، مظهرين مع ذلك حزناً وترحاً . وإنه في زعمهم كذلك فُعِلَ بالمصلوب ، فيمرّون بصورة المسيح في بستان يصلي ، وقد نزلت[221] عليه صورة ملاك في يده كأس المنية وهو يتلقاها بيده . ثم يمرون بصورة أخرى ومعها من الحرس طائفة زاعمين أنهم كذلك تألَّبوا على المسيح ، ثم يمرون بالصورة وقد حمل صليبه على كتفه ، ثم يمرون به مصلوباً ، ثم يمرون به بعد ذلك في نعش محمولاً بعد أن نزل من الصليب .

فمن النصارى من يمثل نفسه بذلك المصلوب فيغطي وجهه زاعماً أنه يختفي ولا يعرف إلا أن خلفه خادم له ، أو صاحب ، يحفظه لئلا يلحقه غشيان من كثرة الجلد الذي يجلد ظهره ، فتجد الدم منحدراً على رجليه . وبعضهم يصلب نفسه وجسده ،

(221) في الأصل . نزل (المحرر) .

فيربط يده ورأسه على عمود من حديد ، ويمرّ كذلك في الأزقة أيام البرستسيون[222] وقد غطى وجهه لئلا يعرف . ومن الغد أيضاً يخرجون بصورة المصلوب وقد صلب ، ويمرّون بعد ذلك به وقد أنزل من الصليب ، ثم يمرّون به وقد دفن في القبر ، ويقرؤون مع ذلك ألحاناً محزنة ، فيدخلون الكنيسة ويخفونه ويطفون[223] المصابيح والشموع ، ويعلقون على الكنيسة ثياباً سوداً ويغلقون أبواب الكنائس ، ولا يضرب ناقوس ، ولا يركبون كدشاً ولا فرساً مدة أيام البرستسيون ، وإنما مشيهم في جميع الأيام المذكورة على أرجلهم خصوصاً وعموماً . وقد ذكروا : إن أكوان أوسطريا أخا هذا الطاغية المتقدم الذكر هو الذي منعهم من الركوب أيام البرستسيون . ومن الغد ، وهو اليوم الثالث من الفصح ، عند منتصف النهار يفتحون الكنائس ويشعلون ويوقدون الشموع ويزيلون المعلقات السود ويبدلونها بألوان أخرى ، ويضربون النواقيس ، ويفرحون ، ويطبعون قراطيس صغاراً فيها صور ، زاعمين أنها صور الملائكة . ويكتبون بين الصور حروفاً بالكلدانية ، وهي (ألوليا)[224] ومعناها : افرحوا افرحوا . فحين تضرب النواقيس تتطاير القراطيس منهم ويتلقونها ويتهادونها بينهم فرحين مسرورين ، في ظنهم بشرى رفعه ، لاعتقادهم الفاسد : صلب المسيح ودفنه ورفعه من القبر . [وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً[225]] : [بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً[226]] .

ولقد اغتر هؤلاء الضلال بما هم عليه مصممون من الاعتقاد الفاسد والضلال البين ، والتنكب عن النهج القويم والمحجة البيضاء ، ودلاهم[227] الشيطان بغرور ، وأضلهم عن سواء السبيل . فلقد تصمموا على الكفر ، ونهج بهم البابا – قبح الله

---

(222) البرستسيون يريد البروسيسيون Procesion هو الزياح (التطواف) .

(223) يطفئون . (المحرر) .

(224) هللويا .

(225) قرآن كريم : سورة النساء آية 157

(226) قرآن كريم : سورة النساء آية 158

(227) بتشديد اللام : أي أغواهم . [فدلاهما بغرور] الأعراف (22) . (المحرر) .

سعيه – منهجاً جائراً عن الطريق ، هو ومن تبعه من أبناء جنسه الذين على مذهبه ، وطريقه مما يسري منهم إلى العامة من الداء العضال ، والمادة التي لا يحسمها إلا السيف . فإن من عامتهم من إذا تكلم معه ويسمع عن الدين وما عليه المسلمون من النهج المستقيم ، يصغي إلى ذلك ويشكره ويستحسنه ولا يأنف من سماعه ، كما شاهدناه منهم مراراً[228] .

والمردة ، من طلبتهم ورهبانهم ، هم أشد عداوة وأكثر قساوة ، وأكبر الأشقياء تصميماً على الكفر ، والعياذ بالله . فلقد لقينا من طلبتهم والفريلية الذين يدينون بهم جماعة ، وتكلمنا معهم في أمور ما يدعونه من الدعوة في المسيح ، تعالى الله عن قولهم ، فوجدناهم أفسد الناس اعتقاداً وأكثرهم تصميماً ، ولقد وجدت بمدريد راهباً من رهبانهم ورد من البلاد المشرقية يتكلم باللسان العربي[229] وله خبرة ببعض أديان المشارقة من المسلمين لمخالطته معهم وسكناه بين أظهرهم ، فتجاولنا في الكلام إلى أن قلت له : ما تقول في المسيح؟

قال : إنه من الله .

فقلت : من هذه ، إن قلت إنه كالبعض من الكل جزأته والباري جلّ شأنه لا يتجزأ ، وإن قلت إنه كالولد من الوالد أوجبت ثانياً من الأولاد وثالثاً ورابعاً إلى ما لا نهاية له ، وإن قلت ، على سبيل الاستحالة ، أوجبت فساداً ، والباري جل شأنه لا يستحيل ولا ينتقل من حال إلى حال . فلم يبقَ إلا أن يكون على سبيل الخلق من الخالق وهو الحق الذي لا شك فيه .

فصمم الكافر – أخزاه الله – على ما عليه اعتقادهم واعتقاد البابا دمرهم الله من اعتقادهم الاستحالة ، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

---

(228) يستفاد من متن الرحلة أن الغساني خاض في مناقشات فكرية ودينية مع المسيحيين ، لاسيما الموريسكبين المتنصرين ، ووجد لديهم تفهماً وتقديراً واحتراماً للدين الإسلامي ، وللعادات والتقاليد الإسلامية التي مابرحت تظهر هنا وهناك في سلوك العديد من هؤلاء المغلوبين على أمرهم منذ سقوط مملكة غرناطة سنة 1492 وأفول شمس الإسلام في الأندلس (المحرر) .

(229) لم نتوفق إلى معرفة اسم هذا الكاهن .

فصل حذفه ألفرد البستاني[230]

. . . فمع ذلك ، فإن فيهم رجالاً حسنة أخلاقهم يود لهم الإنسان أن لو كانوا على طريق مستقيم نسأل الله العافية[231] .

كما شاهدت[232] في الكنيسة الكبيرة المسماة بالاسكوريال رجلاً كبيراً مسناً حسن السمعة والأخلاق ، يظهر من البشاشة والبشر وحسن الملاقاة ما لا يعبر عنه ، وهو رجل كان كبير تلك الكنيسة ، وإليه مرجع كلامها وأمرها وأحكامها وأحكام الداشر[233] التي حوالي الكنيسة ، والقرى المحسوبة عليها والمصافة إليها ، فترك تلك الرياسة وزعم أنه رغب عن الدنيا وزهد فيها ، وودع الكبيرة وحبها ، وأسند ذلك إلى تلميذ له يدعى دون ألونصو ، وكان هذا الفريلي القائم اليوم على الاسكوريال يظهر من البشر والسرور وحسن الخطاب والملاقاة شيئاً كثيراً ، ولم يزل يتعاهدنا بعد المعرفة مدة مقامنا بمدريد بالزيارة ، حين يقدم على الطاغية ، بمنزلة كبيرة . وكانت ترد علينا رسائله من الاسكوريال .

---

(230) حذف محقق المخطوط ألفرد بستاني هنا فصلاً منه لأسباب عقائدية ، وأشار إلى ذلك بقوله : وهنا مقطع من فصل مؤلف من ثلاث صفحات أُثبت في مخطوطة مدريد كُتب على الهوامش في مخطوطة تطوان :(فقد وصف فيه المؤلف بصورة مشوهة ارتداد (شاوول) بولس الرسول وتكلم عن أعمال الرسل الإنجيليين ، وتعرض إلى سر تجدد السيد المسيح وإلى سلطة البابا الروحية وما يسه من الشرائع والأحكام ، ذكر بعض مناظراته مع الرهبان في مدريد ، وتكلم عن طريقة الرهبان والكهنة في استعمالهم سر الاعتراف ، وأورد بعض أخبار ملفقة لا فائدة من ذكرها . (المحرر) .

(231) الفقرة هذه هي ما تبقى من الفصل المحذوف المشار إليه في الحاشية السابقة . (المحرر) .

(232) في الأصل : شاهدته . (المحرر) .

(233) لعلها الدواشر : جمع دشرة . تقدّم شرحها . (المحرر) .

وهذا الاسكوريال هو عبارة عن الكنيسة المتقدم ذكر سبب بنائها في عهد بانيها فيليب سكوند ، إذ كان حاصر مدينة من مدن الفرنسيس ونصب عليها المدافع والبونبات ، وكانت قبالة المدافع كنيسة لراهب يسمى لونصو الريال ، فنذر أن يبني كنيسة أعظم منها ، فهدمها وأصاب المدينة . وحين رجع بنى الكنيسة التي نذر بناءها في سفح الجبل الفاصل بين قشتالة الجديدة وقشتالة القديمة ، وهي على أحد وعشرين ميلاً من مدينة مدريد ، وبناء هذه الكنيسة وما اشتملت عليه من دار الطاغية وتوابعها كله من الحجارة الصلبة الشبيهة بالرخام ، منقولة من الجبل المطل على الكنيسة ، وهي حجارة كبيرة هائلة جداً .

زعموا أنهم جعلوا ساعة البنيان قنطرة كبيرة متصلة من موضع الكنيسة إلى رأس الجبل ، وكلها من خشب لتسحب القراريط الحاملة للحجارة على هذه القنطرة المذكورة ، وتوضع الحجارة في موضعها من غير تكلف لحمل الحجارة ، ليكون ذلك بسهولة ، وإلا فهذه الحجارة هائلة جداً ، ولم يكن لهذه القنطرة المذكورة بقاء أثر يدل عليها ، إلا أنهم ذكرواأنها كانت كلها من خشب فلا يمكن بقاؤها .

وهذا الجبل المذكور هو في غاية العلو والارتفاع ، وقدر ما بين الكنيسة ورأس الجبل في صعود ما يقرب من مسافة . . .[234] وهذا الاسكوريال هو في غاية الضخامة والعلو وارتفاع السمك في الجو ، وله من الناحية الغربية ثلاثة أبواب : فالباب الوسط هو باب الكنيسة وما اشتملت عليه ، وفوق الباب صورة من حجارة زعموا أنها صورة الراهب لُرينصو الريال الذي بُنيت الكنيسة باسمه . والباب الذي عن يمينها ويسارها : هما بابان لدارين كبيرتين لقراءة الطلبة الصغار من الفريلية الذين يتعلمون ويقرؤون علومهم وقراءاتهم ، ولكل طائفة منهم علامة من ملف أزرق وأحمر على كتفه ، على قدر ما بلغ إليه علمه من فنونهم .

(234) نقص في الأصل . (المحرر) .

وأول قراءاتهم الفلسفة وما في معناها ، وفي هاتين الدارين من المتعلمين عدد كثير يقصدون التعليم من جميع نواحي مدريد وغيرها ، إلا أن الموضع المصدر عندهم للتعليم وكماله بزعمهم هي مدينة أخرى يسمونها صالامنكة(235) على ثلاثة أميال(236) من مدينة مدريد ، فإن من المعروف عندهم أن من لم يكمل علومه وقراءته ويحصل دراية ذلك بمدينة صالامنكة ، فلا يعد عندهم بمحصل .

وجل قراءتهم في حال الصغر ما يلقونه عليهم معلموهم من الكفريات حتى يتدربوا على ذلك ويكون نصب أعينهم . ومن بعد ذلك يتعلمون الحساب ، وبعده الهندسة بلسان اللاتين . واللاتين(237) عندهم هو بمثابة علم النحو عند العرب فلم يفهمه(238) جميع النصارى ممن لم يحصله في حال صغره ، فتجد صغار النصارى يقصد بهم آباؤهم المواضع المعدة للقراءة مثل الاسكوريال وصالامنكة وما أشبههما .

والباب الكبير الوسط الذي يدخل إلى الكنيسة هو باب كبير هائل جداً ، به من النقوش والصنائع شيء كثير ، ويقابل الداخل من الباب صحن كبير متسع ، وعلى الصحن سواري كبار جداً ، وعلى كل سارية منها صورة كبيرة من حجارة ، ولقد لبست الصور كساوي من جنس الصورة ، زعموا أن جميع هذه الصور من حجارة واحدة ، وعدد التصاوير خمس ، زعموا أنهم ملوك ملكوا بني إسرائيل ، ومكتوب على الصورة الأولى : هذا داود النبي . وعلى رأسه تاج من نحاس مموه بالذهب زنته(239) خمسة أرباع وفي يده الآلة التي أحدثها ، ويزعمون أنها هي التي كان يقرأ بها الزبور ويسمونه الأربة(240) وهذه الأربة هي آلة كبيرة من خشب تقرب من قدر قامة الإنسان ولها من الأوتار نحو الستة والأربعين ، وهي حسنة النغم لمن يحسن جسّها

. Salaanca (235)

(236) هكذا في الأصل ، وهذا خطأ ، فإن ما بين مدريد وصلامنكة ما يقرب من مائة وأربعين كيلو مترا .

(237) وفي مخطوطة مدريد : اللاطين

(238) وردت في الأصل : يفهموه . (المحرر) .

(239) في الأصل : زينته . (المحرر) .

(240) أَرْبَة : Harpe, Aιpa, آلة طرب شبيهة بالقانون

ونقرها .

وهذه الأجناس من النصارى يستعملونها كثيراً ويعلمونها نساءَهم وأولادهم وبناتهم ، فقلما تجد داراً إلا وجميع أهلها يحسنون نقر الأربة ، ينقرونها إكراماً لمن يدخل عندهم ، وأكثر من يستعملها بنات الأكابر والأعيان وأبناؤهم ، وكذلك يستعملونها في كنائسهم وبيعهم ومواضع كفرياتهم ، وهي أكثر ما يستعملونها من ضرب آلات الطرب . وأما الآلة المسماة عندنا بالعود فلا معرفة لهم بها ، وإنما يعرفون آلة أخرى تقرب منها الانكيطارة(241) وهي أصغر من العود بقليل وأوتارها تزيد على أوتار العود بوترين . والأربة هي أحسن شكلاً من سائر أنواع الطرب ، وعلى يمين الصورة المكتوب عليها اسم داود النبي صورة أخرى مكتوب عليها : هذا سليمان ابن داود ، عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام . وعلى رأسه تاج من نحاس مُموه بالذهب فيه خمسة أرباع ، وبيده عصا من نحاس مموهة بالذهب أيضاً زنتها ثلاثة أرباع ، وعلى يمينه ثلاث صور أخرى مثل هذه الصورة ومكتوب على كل واحدة اسم ملك من الملوك العظام الذين ملكوا لذلك العهد . وبداخل الصحن بلاط كبير متسع ، بطرفه من الناحية اليمنى مدارس كبيرة لسكنى طلبتهم والفريلية ، وعدد المدارس أربعة عشر مدرسة ، كل واحدة من العدد المذكور مشتملة على بيوت عديدة وغرف فوقها ، وفي كل واحدة من المدارس المذكورة سقاية ماء وخضر وخصة كبيرة وسواري عديدة نحو العشرين سارية ، وكل مدرسة تدخل إلى أخرى . وعن يسار الداخل من الصحن إلى الكنيسة في ما يقابل باب المدارس باب يدخل منه إلى دار الطاغية ، وهي دار كبيرة مبنية كلها مع جدرانها وسقفها من حجارة الكنيسة ، وعلى صفة بنائها من الضخامة وارتفاع السمك وعلوه على قدر الكنيسة .

ولهذه الدار ثلاثة أبواب : واحد من داخل الكنيسة ، والآخر من خارج الكنيسة ، والثالث من داخل البستان المجاور للكنيسة . ومن عادة الطاغية أن يسكن في تلك

---

(241) الانكطارة (الكيطاره La guitarra) ، أشهر الآلات الموسيقية في إسبانيا ، اشتقت من آلة العود التي أدخلها المسلمون إلى الأندلس على يدي زرياب ت حوالي 845 وهو أكبر موسيقيي الأندلس ، أضاف إلى العود متراً خامساً . (المحرر) .

الدار شهراً واحداً في زمن المصيف لبرودة ذلك الموضع من كونه في سفح الجبل ، والكنيسة بنفسها هي كنيسة كبيرة ذات سواري وبلاطات ، ويقابل الداخل إليها صورة المصلوب التي يتعبدون بها وهي من فضة مموهة بالذهب .

وبوسط الكنيسة قبة عالية السمك والجو ، وهي في غاية الإتقان والصناعة ، مرتفعة على أربع سَوارٍ عظام ، سعة كل ربع من أرباع السارية نحو اثني عشر ذراعاً ، وفي كل ربع منها مجلس مفروش بالحرير والديباج يقعد عليه الفريلي ساعة تعبده وصلاته .

وفي داخل هذه الكنيسة من القناديل الفضية والذهبية والنحاسية المموهة بالذهب عدد كثير ، وبداخل هذه الكنيسة من أنواع الجواهر والذخائر والنفائس الموقوفة ، ما لا قيمة له ، وبأعلى هذه الكنيسة موضع صلواتهم التي يقرؤون فيها الألحان ويسمونه الميسة وبها آلة الموسيقى التي يسمونها أوركان[242] وهي آلة كبيرة ذات قنانيط وجحاب[243] كبار من رصاص مموهة تُسْمِعُ أصواتاً عجيبة . وقراءتهم في هذه المواضع وأشباهها بهذه الآلة يزعمون أنه زبور داود عليه السلام والتوراة المنزلة على موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وتدينهم بالتوراة في زعمهم هي العشر كلمات[244] التي هم مشتركون فيها مع اليهود ، ويزعمون المحافظة عليها ، وهي : النهي عن القتل والسرقة والزنى والدماء والأموال الخ .

وفي هذه الكنيسة من الفريلية الكبار الذين يعملون الميسات[245] والصلوات مائتان ومن غيرهم الصغار عدد كثير ، وفي أعلى هذه الكنيسة تسع منارات كبار عالية السمك والجو ، وفي كل واحدة منها ماكانات[246] لمعرفة الساعات ، والنواقيس الكبار التي تضرب في الأوقات ، عدد كثير ، يسمع لها[247] صوت على أميال يضرب

---

(242) الأركان : الارغن Organo .

(243) قنانيط وجحاب : مما يستعمل إنشاء آلة الأرغن . (المحرر) .

(244) الوصايا العشر .

(245) وردت قبلاً ، وللتذكير : جمع ميسة Misa وهو القداس . (المحرر) .

(246) المَعَنَة والماكنة : هي الساعة عند عامة المغرب (آلة) .

(247) في الأصل : لهم . (المحرر) .

على نوع من أنواع الموسيقى ، وعلى يمين الكنيسة خزائن كتبهم وعلومهم وأديانهم ، والذخائر التي هي موقوفة على الكنيسة من عهد بانيها إلى هلم جرا . . بحيث لا يقدر أحد على التصرف فيها إلا بالزيادة عليها . وإلى هذه الخزانة كانوا نقلوا خزائن كتب المسلمين من قرطبة وإشبيلية وغيرهما ، وزعموا أنها احترقت بالنار جميعاً فيما قبل الآن منعشرة أعوام . وقد رأينا موضع الحرق في تلك الخزائن وقد أثر فيها وفي الكنيسة أثراً كبيراً ، وما زال الطاغية إلى الآن مهتماً بترقيع ما أفسدته النار . ولولا ما بهذه الكنيسة من سقف الحجارة وعدم الخشب التي تسوغ النار بإحراقه لأتت على آخرها ، ومع ذلك فقد صعدت النار إلى رأس منار من منارات الكنيسة وهدمت من أعلى المنار حجارة كبيرة سقطت إلى البستان المحيط بالكنيسة ، وهي حجارة كبيرة يعجز الآن عن رجوعها إلى محلها .

ويجاور الكنيسة ، أيضاً ، من ناحية الشمال موضع لدفن أسلاف هذا الطاغية من عهد والد باني الكنيسة كرلوص كينطو[248] الذي كان ترهب ، إلى فيليب كوارطو[249] والد هذا ، ومدفنهم في قبة في غور من الأرض ينزل إليها بدرج عديدة من رخام أحمر في غاية الإتقان وحسن الصنعة ، ومقابرهم هي صناديق من رخام مموهة بالذهب وقد رُفع كل صندوق منها بين سارية وعلى كل واحد منها اسم الطاغية المدفون به ، وعدد من دفن بذلك الموضع خمس طواغ[250] ونساؤهم ، كذلك إذ عادتهم أن لا يدفن بهذه المقبرة إلا الطاغية الذي يخلف منّ يلي الملك بعده . وأما من يمت منهم من غير عقب أو لم يكن له ميراث للملك فإن هؤلاء لهم مدفن آخر غير هذا ، وليس هو مثله وهو مجاور له أيضاً وهذه هي عوائدهم في الدفن .

ويدور بجميع هذه الكنيسة جميع ما تحتاجه الكنيسة من الأمور التي يحتاجها السكان والعمار من آلات الأقوات ، مثل الرحى لطحن أقواتهم وموضع الطبخ ودار الدبغ وغير ذلك من جميع ما يكون بالحواضر . وبها من المخازن والديار المعدة

---

(248) كارلوس الخامس 1500-1558 (المحرر) .

(249) فيليب الرابع 1605-1665 . (المحرر) .

(250) تجمع العرب الطاغية : طغاة ، وطاغون . وهو ما قصده المؤلف . (المحرر) .

للمعاجين الطبية والأدهان والأشربة والمياه شيء كثير ، ويدور بجميع ذلك بستان كبير مشتمل على جداول وأنهار وأشجار بشكل عجيب وهو إلى نظر الفريلية . ويدور بجميع هذه الكنيسة وبستانها موضع مصيد الطاغية وقنصه ، يحيط به صور من حجارة في غاية الاتساع ، زعموا أنه في دائرته مقدار ثلاثة وثلاثين فرسخاً ، وعلى مقدار كل مسافتين منها موضع فيه دار وبستان ليتقبل فيه الطاغية حين صيده . وقد دخلت البعض منها حين وصولنا إلى الاسكوريال إذ استدعانا الطاغية إلى رؤيته حيث كان معجباً به .

وهذا الاسكوريال عندهم هو من الأمور التي يعدونها في بلادهم من الأمور الهائلة ، إذ ليس عندهم كنيسة أخرى على شكلها من بناءاتهم أعظم منها .

المساجد الإسلامية

وأما المساجد الإسلامية فلا ينكرون عظمتها ولا ضخامتها مثل مسجد طليطلة وقرطبة وإشبيلية الشهيري الذكر البعيدي الصيت . وقد مر ذكر مسجد قرطبة في محله وسنذكر مسجدي طليطلة وإشبيلية(251) في محلهما إن شاء الله إذ كانت رؤيتنا لهما عند رجوعنا من مدينة مدريد ، حيث كان الطاغية مدة مقامنا عنده يحب تأنيسنا ، ويريد جلب الخواطر منا بالأمور التي يعلم أنها عنده بمكانة من رؤية منتزهاته ومصايده وقنصه وبستانه وأعياده وداره ، وبيوتها وغرفها وخزانة عدته وسلاحه وغير ذلك ، فلم يزل يتعاهدنا ويدعونا إلى رؤية ما ذكر وأشباهه .

فلقد عمل بداره أعياداً دعانا إلى حضورها في داره التي يسكن بها ثلاث ليال متوالية ، وقد أعد لنا مجلساً في قبة مرتفعة لا يسامتها غيره وجميع الأعيان والأكابر والدوكيس والكنديس(252) وغيرهم من خواصه حضور ، ويخرج بعد ذلك هو وأمه

---

(251) لم يف الوزير بوعده ، فقد ذكر مسجد طليطلة ولم يذكر مسجد إشبيلية الذي وعد بوصفه في محله

(252) تقدم شرحهما . وللتذكير : الدوكيس والكنديس : جمع دوكي وكندي بالإسبانية Condes، Duques (المحرر) .

وزوجته وبين يديه بنات الأكابر والأعيان وقد حملوا بين يديه من الشموع عدة ، فإذا وصلوا إلى محل جلوسه وقابل المجلس الذي نحن فيه ، يستقبلنا ويزيل ما على رأسه على هيئة سلامهم ، ويقعد هو وزوجته عن شماله ، وأمه عن شمالها ، ويأتي أهل الطرب من نساء ورجال ، فيعملون ما هو من عوائدهم في طربهم وغنائهم إلى أن ينتصف الليل ، فحين يفرغون ويريدون الانصراف يقوم الطاغية أولاً ويزيل ما على رأسه أيضاً ، بعد أن يرفع رأسه إلى مقعدنا ، وينصرف كل واحد إلى مقره وموضعه ، وكان يسأل بعد ذلك من كان يتصرف بين أيدينا من خدامه ، ويبحث عن حال انشراحنا ، ولا يريد أن يغيب عنه شيء من أمورنا ، وسؤاله عنا كل يوم .

ومن جملة متنزهاته ومتصيداته التي يقصدها كل عام في شهر إبريل فيقيم بها قريباً من شهر هو وعياله والخصوص من خواص أصحابه وخدامه موضع يسمى أرانخويس(253) ، وحين انصرف إليه في هذه السنة على عادته وكان عمل أمراً ما نحن بصدده بيد وزيره ورأس ديوانه الكردينال ، فكنا نتكلم معه ونحثه على سفرنا ونستعجله ونعزمه ، وكان الطاغية يريد وفودنا عليه حيث هو في أرانخويس قاصداً بذلك تفرجنا ورؤيتنا ، إذ هو عنده من أحسن متنزهاته ، فوجه إلينا يوماً رئيس كتاب الديوان يقول أن طاغيته يريد منكم الوصول إليه حيث ، هو لتشرحوا خواطركم(254) بما هنالك من البساتين والصيد ، فأجبناه عن ذلك بتشوقنا إلى سفرنا ، ولم يبقَ لنا أرب في متفرج ولا متنزه لبطئنا عن الرجوع إلى بلادنا ، ومرادنا هو التشييع ، إذ فيه جل مرامنا ومنتهى قصدنا ، فانصرف عنا وكتب إليه بجوابنا إليه . فبعد يومين رجع إلينا بأمر عظيمه ، يقول له فيه وصولنا إليه حيث هو لقصد التنزه والتشييع ، حيث صحبنا من القلق ما أنهاه إليه هو وغيره من خدامه الموكلين بنا ، وقد أمر الكوندي الموكل بنا مع الترجمان الحلبي النصراني بمصاحبتنا إلى حيث هو ، إذ لا يمكن لأحد الوصول حيث هو من غير إذن ولا مشورة .

---

(253) Aranjuez

(254)من الانشراح . (المحرر) .

العودة

20 أكتوبر 1691

الخروج من مدريد والرجوع إلى المغرب

فانصرفنا ضحوة اليوم الذي خرجنا من مدينة مدريد وسرنا تسعة أميال دخلنا فيها ثلاث قرى : الأولى على مسافة من المدينة تسمى بيردي بلسانهم ومعناها الخضراء ، لما اشتملت عليه من الغروس والبساتين ، وهي قرية صغيرة قريبة من الحضارة . وبعدها بمسافة أخرى قرية تسمى البنطة وهي أكبر من الأولى . وبعدها قرية تسمى بلد المورو ، وهي أكبر من القريتين المذكورتين ، فوجدنا بها داراً معدة للنزول فنزلنا فيها إلى أن اجتاز الحر ، وركبنا عشية اليوم فسرنا تسعة أميال أخرى وأشرفنا على المنزه المسمى أرانخويس الذي قصدنا إليه ، فلقينا بالقرب منه خيلاً بعثها الطاغية للملاقاة والسلام علينا ، وقالوا إنه ظن قدومكم عليه وسط النهار ، وقد أعدّ لكم فرجةً ترونها عند وصولكم ، وحيث أبطأ عنه خبركم بعث من يتلقاكم .

فكان وصولنا قرب الليل ، ولم يكن معنا شيء دون المبيت ، فأنزلونا داراً مشرفة على جميع ذلك المنتزه تنتسب لوزيره الكردينال ، وبتنا بها تلك الليلة بعد أن أتانا من خدامه من رحَّب وسلَّم وناب عنه في البشر وحسن الترحيب .

ومن الغد بعث إلينا ، فدخلنا بستاناً له هنالك ، وقد حفَّ به اديان كبيران ومجمعها يسمى وادي طاخوا ، وهو المار بمدينة طليطلة من هذا الموضع بعد مروره بنحو

مسيرة يوم . وهذا البستان هو غاية في جداوله واتساقه ونظم أشجاره ، وقد اشتمل على أزهار وأنوار ودواليب وصهاريج وبرك مياه على كلّ صفٍّ ، وبه مقاعد في غاية الإتقان والحسن مطلة على الوادي من كلا الجانبين ، ومن هذا البستان دخلنا على الطاغية في دار له بعد أن بعث لملاقاتنا جماعة من خواصه ، وحين دخلنا عليه وجدناه قائماً على قدميه وعن شماله زوجته ومعها جماعة من بنات الأعيان ، وعن يمينه وزيره وبين يديه خواصه وخدامه ، فسلمنا عليه بسلامنا المعتاد من قول : السلام على من اتبع الهدى . ورحب وسلم على عادته ووجدناه بيده براءة كتبها لسيدنا المنصور بالله فقبّلها ودفعها إلينا ، بعد أن استخبرنا عن أحوالنا وعن القلق الذي بلغه عنا ، فأظهرنا له من العذر ما فهم منا كوننا لم يمكننا البطء عن سيدنا نصره الله ، فقال : حيث أظهرتم العذر لا نلزمكم مقاماً بعد أن أحببتم الانصراف ، ونوبوا عنا في السلام اللائق بالمقام الشريف ، ونحن نرجو الخير في الأسرى الذين عنده ، وكل ما يعرض لمقامه العالي(255) عندنا نقضيه حباً وكرامة إجلالاً لمنصبه . وسأل الترجمان : هل لهم غرض نسرع لقضائه؟ فأظهرنا من الإعراض عن ذلك ما هو لائق بالمنصب الإسلامي والحمد لله .

وانصرفنا من عنده ، بعد أن شيَّعنا ودفع لنا الكتاب الذي كتبه لمقام سيدنا المنصور بالله ، وبعد ذلك ألحقنا بعض خواصه يستفهمنا هل لنا غرض بالمقام بذلك المنتزه أياماً بقصد الاصطياد والتنزه ، فأجبناه بتطاير قلوبنا إلى وطننا ، وأن لا تمكننا الإقامة بعد ذلك اليوم ساعة ، وكان هو يريد الرجوع إلى مدريد من الغد فبعث إلينا عشية ذلك اليوم ومن صبيحة الغد القيّمين على ذلك الموضع ، وعلى القنص وخرجنا معهم إلى القنص ، فإذا فيه من الأيل والقنين(256) شيء كثير ، فساعفناه في ذلك لغرضه ، ومن الغد رجعنا إلى مدينة مدريد بقصد التأهب للسفر والاستعداد .

---

(255) وفي مخطوطة مدريد : العلي

(256) قنين : للوعل عندما يتصب على مرتفع جبلي . وللشاعر الأخزر الحمابي : والرحل يقتن اقتنان الأعصم . والقنةأيضاً . أعلى الجبل (المحرر) .

وكان خروجنا من مدريد في اليوم الأول من رمضان المبارك من عامنا هذا[257] وقد أمر الطاغية من أَصْحَبَ معنا من خدامه بمرورنا على مدينة طليطلة لنشاهد مسجدها الجامع ، الذي هو من عجائب الدنيا في بناءه وذكره وبعد صيته . فبتنا يوم خروجنا من مدريد بقرية يقال لها وشْقة[258] وكانت من حواضر العدوة التي لها ذكر ودار علم ونباهة ، وهي اليوم قرية متبدية وبها من أثر البناء القديم الإسلامي بعض أثر ، مثل الباب الذي كان يدخل إليها منه حين كانت في عهد عمارها من أهل الإسلام مدينة ، وأما اليوم فالتبدي أقرب إليها من التحضر وبينها وبين طليطلة أحد وعشرون ميلاً .

طُلَيْطُلَة

وطليطلة مدينة كبيرة قاعدة من قواعد مدن العدوة ، ودار ملك قديم ، وهي على ربوة من الأرض في حافة مطلة على الوادي المسمى طاخوا ، وهو الوادي المار بأرانخويس المنتزه المتقدم الذكر ، وقد أحاط هذا الوادي بالحافة التي عليها المدينة من ثلاثة أرباعها والربع الموالي للبر هو الآتي من طريق مدريد .

وأسوار هذه المدينة وحيطانها وأزقتها باقية على حالها من عهد عمارتها من المسلمين ، وأثرها أثر الحضارة إلا أن أكثر أزقتها ضيقة جداً ودورها باقية على حالها من البناء الإسلامي وتفصيله ، والنقش في السقف والحيطان بالكتابة العربية . ومسجدها الجامع من عجائب الدنيا ، إذ هو مسجد كبير مبني كله من الحجارة الصلبة القريبة الشبه بالرخام وسقفه مقبوة[259] من الحجارة ، وهو في غاية ارتفاع السمك وعلوه في الجو وسواريه في غاية الضخامة والصناعة العجيبة والنقوش ، وقد أحدث النصارى في هذا المسجد من جوانبه زيادة في الوسط بشبابيك من نحاس

---

(257) عام 1102 هـ

(258) وشقة (ويسكا Illescas) .

(259) أي بنيت على شكل القبة . (المحرر) .

أصفر وفيها من تصاويرهم وصلبانهم وآلة الموسيقى المسماة عندهم أوركان التي يضربون بها وقت صلواتهم مع الكتب التي يقرؤونها في الصلوات شيء كثير ، وقد جعلوا أمام هذا الشباك صورة المصلوب وهو من ذهب يقابلونها في صلواتهم ، وأمام المصلوب مصابيح كثيرة من ذهب وفضة توقد ليلاً ونهاراً مع شموع كثيرة كبيرة .

وأبواب هذا المسجد في غاية الإتقان والصناعة وقد زادوا فوقها من الصور ما هو من عوائدهم التي لا يمكنهم تركها ، ومن الزيادة المحدثة في جوانب هذا المسجد بيوت كثيرة كبيرة مشتملة على خزائن من الأموال كثيرة ، فيها من الذخائر والأحجار الملونة مثل الياقوت الأحمر والأبيض والأصفر والزمرد ، والتيجان المرصعة بالدر الفاخر والأحجار النفيسة التي لها بال ولا تقوّم بمال .

ومع هذه الذخائر تاج كبير من ذهب ومعه سواران من ذهب زعموا أن ذلك من عهد المسلمين رحمهم الله . وعن يمين هذه الخزائن خزانة فيها كتاب كبير مكتوب بماء الذهب زعموا أنه كتاب التوراة ، وهو عندهم في غاية الحفظ والصون والاعتناء لا يخرج من موضعه الذي به .

وذكروا أن فيليب كوارطو (الرابع) الذي هو والد هذا الطاغية أحب إخراجه من هنالك وأن يكون عنده بعد أن أعطاهم فيه مدينة كبيرة بخراجها وجميع منافعها ، فلم يعطوه فيه كلاماً لظنهم به .

وعن يمين هذه الخزانة أيضاً خزانة أخرى فيها صندوق كبير مرصع مشحون بالحوائج الفاخرة من الذهب المرصعة مثل الهوايات والقلائد والسلاسل والخواتم الثمينة ، وعن يمينه صومعة من فضة تزيد على قامة الإنسان وداخلها وجامورها من الذهب المرصع بالأحجار النفيسة الملونة . وقد عمل هذا المنار على شكل منار مسجد طليطلة وعلى هيئته ومثاله وهو عندهم زينة يخرجونه في أعيادهم مع الصلبان التي يطوفونها في الأزقة على عوائدهم في الابرستسيون[260] وما أشبهها ، وهذا المنار الذي بهذا المسجد أعاده الله للإسلام وعمل هذا على شكله هو من أعاجيب البناءات صناعة وعلواً فقد اشتمل على ثلاث مائة درجة منها مائتان إلى موضع التأذين ومائة

---

(260) يريد : البروسيشيون (تقدم شرحه) .

إلى رأس الجامور وفي موضع التأذين جعل أعداء الله تعالى من النواقيس الكبار تسعة نواقيس كبار جداً دائرة كل ناقوس منها ستة وثلاثون شبراً في غلظ حرفه ثلاثة أرباع ، الذراع وبناء هذا المنار كله من الحجارة الصلبة التي تشبه الرخام من جنس الحجارة التي بني المسجد منها نسأل الله تعالى أن يعيده لتوحيده وذكره ، وفي حوالي هذه الخزائن أيضاً من الخزائن المشحونة بالقناديل الذهبية والفضية والصلبان المرصعة والثياب التي يلبسها الفريلية وأكابر القسوس والشمامس والرهبان التي طرزت بالجوهر النفيس شيء كثير ، وهؤلاء الرهبان الذين في هذه الكنيسة ه جميعاً إلى نظر الكردينال الذي هو اليوم أكبر كردينال عند المسيحية وهو الذي تحت البابا كما تقدم التنبيه عليه وعلى البابا ، وحيث كانت طليطلة هي من قواعد مدن إسبانيا ودار ملك قديم كان الكردينال الذي يتولى أمر كنيستها هو أكبر سائر من يلقب بالكردينال عند عبدة الصليب ، وهذا الكردينال الموجود اليوم هو رأس ديوان إسبانيا وإليه ينتهي جميع أمرهم في دينهم المنكب وفي أمر دنياهم ومشورتهم وأحكامهم كلها إليه ، وكلامه هو مع الطاغية وعن رأيه يصدر كتاب الديوان جميعاً .

وفي طليطلة أثر القصبة التي كان يسكنها الملوك قبل هذا وقد أحدث من سكنها بعد التغلب الأخير عليها ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

مخرج
أخبار فتح الأندلس
طارق بن زياد وفتح طليطلة

وقاعدة طليطلة هي كانت دار ملوك العجم من الأول هي وإشبيلية وإليها كان قصد طارق رحمه الله بوجهته حين دخل العدوة بعد مروره بقرطبة ولم يعرج على غيرها حتى انتهى إليها ووجد بها من الآثار التي تدل على مكانتها من الخزائن والأموال ما لا حصر له ، ومن جملة ذلك المائدة المشهورة ، إلا أن بعض أهل التاريخ يزعم أن المائدة لم تكن بمدينة طليطلة وأنها كانت بموضع آخر قريب من طليطلة يسمى وادي الحجارة ، وإن طارقاً رحمه الله لما فتح طليطلة خرج إلى الموضع المعروف

بوادي الحجارة قرب الفج الذي كان يُنسب إليه خلف الجبل حتى بلغ مدينة المائدة وسُميت بذلك لوجودها بها وهي المنسوبة إلى سليمان بن داود عليهما السلام . وقيل إنها كانت من زبرجدة خضراء حافاتها منها وأرجلها وإنها كان لها ثلاث مائة وخمس وستون رجلاً والله أعلم ، وقيل فيها إنها كانت من ذهب مرصعة وهو الأقرب ، قال :

فلما تيقن طارق أن موسى بن نصير لاحق به وإنه سيسمع خبرها ويطلبه عنها قلع رجلاً من أرجلها ليستظهر به عند أمير المؤمنين الوليد إذ ادّعى موسى أنه فتح البلد وأصاب المائدة .

ثم انصرف من مدينة المائدة إلى طليطلة وقيل إنه أدرب في وجهته هذه من طليطلة واقتحم أرض جليقية[261] وبلغ إلى مدينة استرقة[262] ثم انصرف إلى طليطلة وذلك في سنة ثلاث وتسعين من الهجرة فلم يزل بها حتى وافاه موسى بن نصير مولاه .

ودخول موسى إلى العدوة كان في سنة ثلاث وتسعين ، ودخل معه ثمانية عشر ألفاً من قريش والعرب ووجوه الناس فطلب دليلاً من العجم يدل به إلى المدن التي لم يفتحها طارق ووعده على ذلك بالهباء والجزاء فدل به إلى قلعة زعواق من عمل إشبيلية فبدأ بها ، وكان طارق لم يعرج عليها ثم صار منها إلى لبلة[263] ثم إلى باجة[264] ثم إلى اكشونبة[265] على سيف البحر فافتتحها أجمع سلماً ثم خرج من ذلك القطر على الفج المنسوب إليه من حوز القنت فانقطع إليه أهل ذلك الموضع فأقرهم على حالهم فسموا موالي موسى ، ثم سار حتى انتهى إلى طليطلة .

فلما بلغ وادي المعرض اعترض جيوشه ، فسمى الوادي بذلك فعرف من معه ، فلما قرب من طليطلة خرج إليه طارق بن زياد ونزل بين يديه إعظاماً له فغض موسى

---

(261) جليقية Galicia

(262) استرقة Astorga

(263) لبلة Niebla

(264) باجة Bejar

(265) اكشونبة (اكشبونة) Ocsonoba

منه علانية وأظهر ما بنفسه عليه وقنعه السوط ووبخه على استبداده عليه وإنما كان أمره أن لا يمعن ، فاعتذر طارق إليه وخضع له وقال إنما أنا مولاك وقائد من قوادك ما فتحته وأصبته فإنما هو منسوب إليك واستلطفه حتى رضي عنه وأحضره المائدة التي كان أصابها في المغانم ، وقيل إنها كانت من ذهب منظومة بالدر والياقوت والزمرد وهي التي يزعم الناس أنها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ، ولم تكن كذلك فأتاه بها ناقصة الرجل وكان قد اختلعها طارق ، فسأله موسى عنها فقال له هكذا أصبتها وأحضره ما صار عنده من الخمس وكان عظيماً فزاد رضاه عنه وأمره بالتمادي والمضي إلى الثغر .

وبقي موسى بطليطلة حتى ضحّى بها سنة دخوله ، وقال عبد الملك بن حبيب يرفعه إلى علي ابن رباح التابعي الداخل مع موسى وكان من خيار التابعين : أنه لما اتصل بموسى أن طارقاً فتح ما فتح من بلاد الأندلس حسده وعزّ ذلك عليه وغضب عليه فعبر حتى تجاوز قرطبة التي كانت أكبر قواعد ملوك العجم وأشهرها مع قربها من الساحل ، وكان خروجه من إفريقية في رجب سنة ثلاث وتسعين ، فعبر إلى الأندلس في شهر رمضان منها ، فقيل إن عبوره كان من مدينة تونس وقيل من جبل القردة المعروف بجبل موسى من قرب سبتة .

لقاء طارق وموسى

فلما التقى موسى بطارق عتب عليه ثم ترضاه فرضي عنه ووجد عنده من السبي والذهب والفضة والجوهر ما لم يفتح مثله على المسلمين في غزوة قط ، قال ولقد كان الرجلان من الداخلين مع طارق رحمه الله يجدان الطنفسة منسوجة بقضبان الذهب والفضة منظومة بالجوهر والياقوت والزمرد فلا يستطيعان حملها ولا يتفقان عليها فيأتيان بالفأس فيضربان وسطها حتى ينقطع ويأخذ كل واحد منهما شقاً منها على غير مبالغة ولا تحقيق في قسمها والناس مشتغلون في كل جهة بمثل ذلك .

وقال عبد الملك بن حبيب عن الليث بن سعد : إن إنساناً جاء إلى موسى لما وصل إلى ناحية طليطلة فقال له ابعث معي أدلك على كنز ، فبعث معه رجالاً فوقف

بهم على موضع وقال لهم اكشفوا هاهنا فظهروا على كنز كبير مترع بالجوهر والياقوت والزمرد والزبرجد ، فحين رأوه بهتوا وأرسلوا إلى موسى ليحضر .

وقال عبد الملك بن حبيب أيضاً كان ورود موسى بن نصير أولاً إلى إفريقية إذ عقد له عليها عبد الملك بن مروان قبل توصيله إلى الأندلس في البربر وكان أصاب فيهم سبياً عظيماً بعث إلى عبد الملك بخمسة منهم فكان ذلك عشرين ألفاً ، ثم غزاهم غزوة ثانية فحصل منهم في خمس أمير المؤمنين عشرين ألفاً أيضاً فأعجب عبد الملك بذلك ، فكان يكتب إليه يؤكد عليه في ذلك وفي موالاة غزوهم وفتح ما وراءهم حتى فتح الله عليهم الأندلس في أيام أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك .

قال الرازي : قال عبد الملك بن حبيب : دخل الأندلس مع الأمير موسى بن نُصير رجل واحد من أصاغر الصحابة رضي الله عنهم وهو : المنيذر الإفريقي لم ينسب بأكثره من الإفريقي إذ كان يسكن إفريقية ، وروى عنه أبو عبد الرحمن الحبُلي قال : حدثني المنيذر وكان صاحباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

إنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من قال رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً فأنا زعيم له فلآخذن بيده فلأدخلنه الجنة .

والذي دخل الأندلس من التابعين على اختلاف الرواية : موسى بن نُصير البكري وعلي بن رباح اللخمي وحيوة بن رجاء التميمي وأبو عبد الرمن عبد الله بن يزيد الأنصاري الحُبلي وحنش بن عبد الله بن عمر بن حنظلة السبائي وهو الصنعاني نسبة إلى صنعاء الشام ويكنى ابا رشدين وكان من خيار التابعين ، وكان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالكوفة وتُوفي بسرقسطة ودُفن عند باب اليهود بقرب المدينة ، وكان قبره معروفاً عندهم مشهوراً .

وقفل سائر التابعين بقفول موسى بن نُصير وبعده ، وهؤلاء المسلمون لا اختلاف في دخولهم مع موسى ومشاهدتهم معه المغانم والمقاسم في السبي والمتاع والأرضين والرباع ، وخروج بعضهم معه وبعده والمختلف في دخوله منهم مع موسى حيوة بن رجاء التميمي في أقل الروايات ، وأبو سعيد الصدفي[266] أكثر الروايات ، وروي عن

(266) في بعض النسخ : الصرفي

عمرو بن العاص فاختلفت الروايات في التابعين الداخلين فمنهم من قال : إنهم أربعة . وهو الذي لا اختلاف فيه ، ومنهم من قال : خمسة بالصدفي المختلف فيه .

قال محمد بن مرين : وجدتُ في خزانة بإشبيلية سنة إحدى وسبعين وأربع مائة ، أيام الراضي ابن المعتمد سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازي سمّاه بكتاب الرايات ذكر فيه دخول الأمير موسى بن نُصير وكم راية دخلت الأندلس معه من قريش والعرب فعدها نيّفاً وعشرين راية منها رايتان لموسى بن نصير عقد له أحدهما الأمير عبد الملك على إفريقية أيضاً وما يفتحه وراءها إلى المغرب وراية ثالثة لابنه عبد العزيز الداخل معه وسائر الرايات لمن دخل معه من قريش ومن قواد العرب ووجوه العمال وذكر فيه سائر البيوتات ممن دخل دون راية .

وقال فيه إن موسى بن نصير أجاز بمن معه من العرب من جبل القردة وهو الموضع المعروف اليوم بمرسى موسى إلى جهة الخضراء يرومون التوغل في الأندلس فأقاموا فيها أياماً مريحين ومصلحين من شأنهم ، وحين عزم على الحركة منها جمع حوله رايات الأعراب ووجوه الكتائب وتفاوضوا في الرأي وكيف يكون دخولهم فاتفق رأيهم على المشي إلى إشبيلية وأن يبدوا بغزو ما بقي من غربها إلى أقصى سائر البحر اكشبونة وافتتاحه ، فقيل أن اجتماعهم لهذا المشهد الكريم كان في الموضع الذي كان مسجد الرايات في الجزيرة الخضراء . وأنه باجتماع الرايات في ذلك اليوم سمي وبها سمى الرازي كتابه ، وقال أن موسى ابن نصير رحمه الله لم يبرح موضعه ولا فارق مشهده حتى أمر بتخطيط الموضع واتخاذه مسجداً ، قال محمد فمشوا على رأيهم وفتحوا غرب الأندلس إلى أقصى اكشبونة .

وحين تم افتتاح المسلمين قسمها موسى بن نُصير البكري التابعي بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سبيها ومتاعها وسائر مغانمها وأخرج من أرضها ورباعها الخمس ، كما أخرجه من سبيها ومتاعها واختار من خيار السبي وصغاره مائة ألف وحملهم إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من كبل وسبي ووخش الرقيق في الخمس من الأرضين يعمرونها ليثلث مال المسلمين وهم أهل البسائط وكانوا يعرفون الأخماس وأولادهم بنو الأخمس .

قال : وأما سائر النصارى الذين كانوا في المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فأقرهم

موسى بن نُصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال لأنهم صالحوا على جزء منها مع أداء الجزية في أرض الثمرة وأرض الزرع على ما فعله خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم بيهود خيبر في نخيلهم وأرضيهم ، قال : فلم يبقَ بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم وأصبحت ملكاً لهم إلا قسّم موسى بن نصير بينهم أراضيها إلا ثلاثة بلاد وهي شنترين وقلنبرية في الغرب وشية في الشرق وسائر البلاد خُمست وقُسمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نُصير وهم حنش الصنعاني والحُبلي وابن رباح ، ثم توارث الأراضي الأبناء عن الآباء والذي ذكره الناس والعلماء من أرض[267] وأرض العنوة بالأندلس فإنما هو مال الخمس هو أرض العنوة وما صولحوا عليه فهو حال الشمل من أرض وشجر لا سائر أموال الناس .

وقال بعض علماء السلف بأمر الأندلس : أن أكثرها إنما فتح صلحاً إلا الأقل من مواضع معروفة وأنه لما هزم لذريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد إلا أذعنوا إلى الصلح ولذلك بقي الروم فيها على أرضهم وأموالهم يبيعون ويباع منهم ، ولما وصل خبر فتحها إلى أمير المؤمنين الوليد ووفد عليه موسى وجماعة من المستفتحين الأندلس معه يستأذنونه في إخلائها والرحيل عنها إلى أوطانهم فقربهم وآنسهم وأقطعهم الإقطاعات فيها وأقرهم على[268] ولم يجعل لهم سبيلاً إلى الخروج منها ولا أوسعهم عذراً في إخلائها وردهم إليها وإلى جيرانهم بجوابه .

فلما ولي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة زاد اعتناؤه بها وأنزلها عن عمال إفريقية وأفرد لها عاملاً ، فبعث إليه السمح بن مالك[269] عاملاً فوردها في جند سوى جندها الأول فأراد النزول معهم في أموالهم ومشاركتهم فيما بين أيديهم فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا إليه ذلك ورغبوا إليه في

---

(267) ناقص كلمة في الأصل

(268) ناقص كلمة في الأصل

(269) هو أمير الأندلس السمح بن مالك الخولاني ثم الحياوي وليَ الأندلس في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز سنة 100 ، قُتلَ في موقعة ضد الإسبان سنة 103 (يوم التروية) .

الرجوع إلى بلادهم وادالتهم بمن ورد معه فمنعهم من ذلك وأنسهم وعقد لهم وأشهد في عقدهم على إقرارهم في أموالهم وأقطع الواردين مع إقطاعات غيرها وقال : هذه الثغور الهندية لولا إقطاعات عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجند فيها لم يسدها فكيف بتلك الناحية ، فإنا نستخير الله في إجلاء المسلمين عنها ، ثم إنه لم ينفذ ذلك ليبلغ الكتاب أجله ، وفي رواية أخرى أن ابن نُصير قسّم وخمّس بعض البلاد وأعجلته حركته منها وإن سأل أمير المؤمنين الوليد فيه عن استيفاء ذلك ، فلما ولاها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني أمره أن يخمّس ما بقي منها ففعل ذلك وأخرج إلى جهات من تولاه وأنفذه في كل ناحية ، قال : ثم وردت طائفة أخرى من الذين فتحوا الأندلس مع موسى بن نصير وطارق بن زياد مولاة على الوليد بن عبد الملك فأقرهم على ما قسم بينهم وسجّل لهم به وأقطع من دخل الأندلس بعدهم من الخمس إقطاعات كثيرة وقال عبد الملك بن حبيب : لما ولي الأندلس السمح بن مالك الخولاني سنة مائة في خلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه دخل معه الأندلس جيش من العرب فأرادوا النزول مع الأولين والمشاركة معهم في رباعهم وأموالهم ، فشخصت منهم طائفة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأخبروه بما صنع موسى بن نصير من قسم الأرض بعد إخراج الخمس وإقرار الوليد لهم على ذلك واستظهروا بسجلاته التي سجلها لهم فأقرهم أمير المؤمنين عمر ابن عبد العزيز على ما أرهم عليه الوليد بن عبد الملك وعلى ما قسمه بينهم موسى بن نُصير وأمضى لهم ذلك من أمره وسجل لهم بمثله وكتب لهم إلى السمح بن مالك بالوقوف عند عهده وإمضاء ما أمر لهم به ، وانصرفوا إلى من تخلفوه مسرورين ومبشرين بما لقوه من فضله وعدله ، وكتب إلى السمح أن يقطع الجند الذين دخلوا معه من الأخماس ، قال غيره من العلماء لم تزل أموال الأخماس بالأندلس معلومة معمورة لبيت مال المسلمين مدة الأمراء فيها ثم في دول الأيمة من بني أُمية تعمر بأسمائهم أيضاً إلى أن ثار الرؤساء في كل وجهة وكثرت الفتن فعمرت(270) تلك بطول المدة واختلاف الدول والولاة ، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

---

(270) ينقص كلمة في الأصل

وقال الرازي عن عبد الملك بن حبيب : وفي مستهل سنة أربع وتسعين دخل موسى رحمه الله إلى بلاد افرنجة فأوغل فيه حتى انتهى إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات ،[271] فأصاب فيها صنماً عظيماً قائماً على سارية مكتوب عليها بالنقر كتابة عربية قُرئت فإذا هي : يا بنيّ[272] انتهيتم فارجعوا ، ذلك ، وقال ما هذا إلا المعنى كبير وانصرف بالناس قافلاً حتى احتل قرطبة فضحّى فيها أضحى هذه السنة المؤرخة ، قال واتصل بأمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك تلوّم الأمير موسى بن نُصير بالمسلمين في الأندلس وتقحمه بهم أرض العدو من غير مؤامرة فأقلقه ذلك وبعث مولاه مغيثاً إليه وأمره أن يعنفه ويقفله إلى إفريقية ، فقدم مغيث على موسى وهو في قرطبة فوهبه موسى الموضع الذي ينسب إليه في عهد المسلمين وهو بلاط مغيث بجميع أرضه من أرض الخمس وغزا مغيث إلى جليقية فاستبطأ الوليد قدوم موسى واستقصر مغيثاً فبعث رسولاً آخر يُعرف بأبي نصر إلى الأندلس وأمره أن يتوكل بموسى بن نصير حتى يصدره إليه ، فورد عليه في صدر سنة خمس ، قال غيره وقد جاء في أثر أن موسى بن نُصير خمّس قرطبة وخرج في خمسه البطحاء التي بقبليها ، التي هي اليوم مقبرة .

فلما ولّى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه السمح بن مالك الأندلس أمره أن يجعلها مقبرة للمسلمين ، وكان السمح بن مالك هذا من خيار أهل زمانه ثقة وعدالة . روى أحمد الرازي في تاريخه وهي رواية أخرى في صحة تخميس الأندلس ، قال عبد الملك بن حبيب يرفعه إلى بعض التابعين الداخلبن بالأندلس ، قال : كان الخلفاء من بني أمية إذا وردت عليهم الجبايات استقدموا مع جباية كل موضع عشرة رجال من وجوه رجالها وخيارهم فلا بدخل بيت المال من الجباية لا دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا إله إلا هو ما فيها دينار ولا درهم أخذ إلا بحقه وأنه فضل أعطيات أهل البلد من العيال والذرية ، قال : فأتى وفد إفريفية بخراجها في آخر أيام سليمان ، قال : فلما أمروا أن يحلفوا حلف ثمانية ونكل رجلان

(271) بياض فى الأصل

(272) نصف سطر بياض في الأصل

وهما : إسماعيل بن عبيد الله مولى بني مخزوم والسمح بن مالك الخولاني ، فأعجب عمر بن عبد العزيز بفعلهما ، فلما ولي الخلافة ضمهما إلى نفسه فاختبر منهما ديناً وخيراً فولى إسماعيل بن عبيد الله إفريقية ، وولى السمح بن مالك الأندلس وأمره أن يخمّس ما بقي من أرضها وعقارها ويخرج منها خمس الله تعالى ويقر القرى بأيدي أربابها ، وأن يكتب إليه بصفة الأندلس وبحرها وأنهارها وهيئة مجازها ، قال وكان رأيه أن يقفل أهلها منها لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين .

قال : فقدم السمح الأندلس وعزلها عن أفريقية بأمر أمير المؤمنين عمر ، وميّز أرض العنوة من أرض الصلح ليصح الخمس فينزل القسم بتخميس قرطبة وأخرج البعوث بمثل[273] وأخرجت البطحاء المعروفة بمصلى بقبلي قرطبة في الخمس ، فلما أكمل السمح ما أراد خاطب أمير المؤمنين بما عمله في أرض العدوة وأرض الشمل وهي التي فتحت صلحاً فإن أهلها صُولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض منها مثالثة ومرابعة كيف ما كان طيب الأرض وغلتها ، حسبما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيبر ، ويستأذنه في بناء القنطرة من صخر السور فإنه كان لا يُعرف يومئذ في جهة قرطبة مقطع صخر ، فورد جواب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بأن يجعل البطحاء التي حصلت في الخمس بقبلي قرطبة مقبرة وأن تبنى القنطرة من صخر السور ويجبر ما تثلّم منه باللِّبن ، فصارت البطحاء المذكورة مقبرة للمسلمين من يومئذ من خبّاسة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، قال : وكذلك القنطرة من بنيانه أيضاً .

ومن بعض فضائل التابعين المشاهدين لفتح الأندلس مع موسى بن نصير على ما حكى بعض الرواة أنهم لما غزوا إفرنجة وصاروا من غزاتهم تولى حنش بن عبد الله وأبو عبد الرحمن الحُبلي تأسيس جامع قرطبة وتجديده بالبناء وقوّما محرابه وأسساه بأيديهما .

وورد في الأثر إنها روضة من رياض الجنة بقيت إلى[274] بني أمية ، وبنى بنياناً آخر لم يهدم المحراب ومشى على حمر خشب إلى أن وقف في موضعه اليوم تبركاً به لما توليا بنيانه بأيديهما رحمة الله عليهما ، فهو كذلك إلى اليوم ، قال : ولما أكمل

---

(273) ينقص كلمة في الأصل

(274) بياض في الأصل

هذان التابعان بناء الجامع على ما تقدم انصرفوا مع أميرهم موسى بن نُصير واجتمعوا في جبل المائدة على النهر بقبلي طليطلة ودعوا لأهل الأندلس . وقد جاءت في فضلهم وإجابة دعوتهم آثار كثيرة منها أن موسى بن نُصير حاصر حصناً من حصون شرق الأندلس بضعاً وعشرين ليلة ولحّ في قتاله فلم يقدر عليه لمنعته وحصانته فلما طال عليه ذلك نادى في الناس قال : فظنَّنا أن قد بلغته مادة عن العدو وأنه يريد التحول عنه فأصبحنا على تعبئة ، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إني متقدم أمام الصفوف فإذا رأيتموني قد كبرت وحملت فكبروا واحملوا . فقال الناس : سبحان الله إن هذه لغفلة يأمرنا أن نحمل على الحصن وما لا سبيل إليه وأين المجال؟

قال : فتقدم أمام الصفوف حيث يرى الناس ورفع يديه إلى السماء وأقبل على الدعاء والرغبة والتضرع والبكاء ونحن وقوف ننتظر وقوفه وتكبيره ثم كبر وحمل إلى سور الحصن وكبر الناس معه وحملوا فانهارت ناحية من سور الحصن التي تليه من الحصن وجالت الخيل على هدمه وفتحه الله عز وجل على أوليائه وعبيده المسلمين قال : ومنها أنه قال : قاتل حصناً آخر كان فيه للعدو عدد ظاهر وعدة ظاهرة فاقتتلوا قتالاً شديداً وجال المسلمون جولة عظيمة ، فأمر موسى بن نصير بسرادقه فكشط عن نسائه وبناته ليبرزهن وأقبل على الدعاء وحمى المسلمون والتحم القتال ففتحه الله تعالى عليه وكان يغزوا بأهل بيته ، يرى أن ذلك أقرب لإجابة دعوتــه .

هذه نبذة من أخبار رجوع موسى بن نُصير إلى المشرق

ففي صدر سنة خمس وتسعين ورد أبو نصر رسول أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك الموجه في طلب الأمير موسى بن نصير فأمره بالرحيل وخرج من قرطبة معه ومع طارق ومن معه من التابعين وكل من أراد الرجوع والتخلف عن الأندلس ، وترك معه حبيب بن عقبة ابن نافع الفهري مؤازراً له وأقام معهما بالأندلس كل من أراد سكناها في مواضعه التي كانوا اختطوها واستوطنوها ، وقفل معه الرسولان مغيث وأبو نصر حتى احتلوا إشبيلية فأقر موسى فيها ابنه المستخلف على الأندلس لاتصالها

بالبحر نظراً لقربها من مكان الحجاز وركب موسى البحر مع جماعة القفّال فمضى لسبيله راجعاً إلى المشرق وهو متلهف على ما فاته من الجهاد ، متأسف لما لحقه من الإزعاج ، وذلك في شهر رمضان منه يعني خروجه من إشبيلية .

قال عبد الملك بن حبيب يرفعه إلى أبي نعيم التجيبي : لمّا خرج موسى بن نُصير من قرطبة بعد أن وصل إليه رسول أمير المؤمنين الوليد وأخذ بعنان دابته يخرجه من الأندلس على ما أمره به .

قال : فلما فج الماء من وراء شقندة انبعث موسى إلى قرطبة راجعاً تحته بغلة شهباء ومعه التابعون ووجوه الناس حتى بلغ الفج وأطل على قرطبة ، فوقف وقال : يا قرطبة حبذا أنتِ ما أطيبك وأطيب ليلكِ ونهارك ما أحسن اعتدال هوائك ، ثم رد وجه دابته على طريقه وخرج من إشبيلية بعد أن صام وعيَّد فيها عيد الفطر .

وقال عبد الملك توجه موسى بن نُصير يريد المشرق فطوى القيروان ولم يدخلها وضحى أضحي هذه السنة بقصر الماء على ميل منها ، وكان الناس قد قحطوا وأجدبوا جدباً شديداً فخرج موسى بالناس واستسقى وخطب في الناس فلما فرغ من خطبته قيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين قال : ليس هذا اليوم ذلك ، فسقوا سقياً كثيراً؟

قال : ثم مضى إلى أمير المؤمنين ومعه طارق وكل ما أصاب من الأموال والجواهر والغنائم وخيار الشيء نساءً وصبياناً والمائدة قيل إنها قومت بمائتي ألف دينار بما فيها من الجوهر .

قال : وذكر بعض أهل الأخبار في أمر المائدة أنها سيقت من بيت المقدس في الزمن الأول وذلك أن أول من احتل قاعدة الأندلس واختطها وملكها أشبان بن طوبال بن يافث بن نوح عليه السلام ، وبه عُرفت الأندلس إصبانيا ، وأنهم كانوا أكثر من مائة ملك ملكوا على تاريخ أربعة آلاف سنة من هبوط آدم عليه السلام ، وعلى تاريخ ألف سنة من الطوفان وهو أول ملك اليونان فيها : وإن اليهود لما ادعت قتل عيسى بن مريم عليه السلام حميت النصرانية حيث كانت ، فكاتب ملكها وكان صاحب الأندلس منهم يسمى بطرش وقيل هرقلش فآلى أن يلقي من زبل الأندلس في بيت المقدس ، فغزا من الأندلس واحتمل كثيراً من الزبل ، وغزا أيضاً ملك روما وملك أرمينية وتحركوا على موعد واحتل جميعهم بيت المقدس وحاربوا من كان فيه

حتى غلبوا عليه وقتلوا من اليهود مائة ألف وسبوا مائة ألف وفرقوا في الآفاق مائة ألف ، واقتسموا ما وجدوا في البيت من الفوائد والغرائب النفيسة ، فخرج في سهم ملك الأندلس يومئذٍ المائدة ، وإنها التي وجدت بجهة طليطلة وخرج في سهم ملك روما حلة آدم وعصى موسى عليهما السلام وخرج في سهم ملك أرمينية ياقوتة ذي القرنين وقيل أيضاً إنها الياقوتة التي أصابها موسى بن نُصير مع الفيلة في ماردة وإنها وقعت في يد ملك الأندلس مع المائدة فأصابها موسى في طليطلة وماردة كانت تضيء منها . وحمل جميع ذلك إلى أمير المؤمنين الوليد .

قال : وفيما رواه عبد الملك بن حبيب السلمي أن نحت نصر[275] حشد جميع أقطار الأرض لحرب بيت المقدس فكان فيما حشد ملك الأندلس ، فحضر الغارة ووقعت في سهمه مائدة سليمان فجاء بها إلى الأندلس .

قال : ثم دخلت سنة ست وتسعين ففيها لحق موسى بن نُصير بجميع مغانم الأندلس بحضرة أمير المؤمنين الوليد قبل وفاته بشهرين أو نحوهما ، فأحضر موسى بين يديه جميع ما يحمله وقدم المائدة فأهداها إليه وادّعى أنه أصابها ، فكذبه طارق وقال : بل أنا أصبتها ، والدليل على ذلك هذه الرجل الناقصة منها معي ، ثم أخرجها فصدقه الوليد وقبل قوله وأعظم جائزته وأقام موسى قبل الوليد حتى تُوفي .

قال : فلما مات أمير المؤمنين الوليد وولي أمير المؤمنين سليمان أخوه أخذ موسى بن نُصير ومن كان معه من عمال المغرب بما بلغه من إقطاعاتهم لقرى الأخماس وما علوا فيه من الحال ، فغرموا وأُغرِمَ موسى مائة ألف طلبة . . .

بها مائة ألف فاستجار بيزيد بن المهلب ، وكان سليمان بن عبد الملك يجد على موسى بن نُصير أبداً ويسميه الشيخ الكذّاب من أجل ما ادّعى أنه أصاب المائدة وكان ذلك مما يعاب به سليمان ، فإن موسى لم يكن كذاباً ولا كذب في قوله أنه أصاب المائدة فإن كان هو لم يشاهد أمرها فإنما أصابها عامله ومولاه والموجّه لذلك بسعيه وأمره ، كما أن فتح الأندلس إنما ينسب إليه .

---

(275) في سنة 685 ق .م . أغار نبوخذ نصر ، أو بخت نصر ، على أورشليم فأحرقها وجلا أهل يهودا إلى بابل . حسب الرواية التوراتية . (المحرر) .

ملاحق الكتاب

ملحق (1)

مقدمة ألفرد البستاني

هذه هي رحلة الوزير في افتكاك الأسير، نزفّها بكراً إلى قرّاء العربية وإلى المعجبين بها من مستعربي الإسبان، وإلى محبي البحث والتنقيب من أعلام الأمتين.

لقد كنا كتبنا لشهور خلت في مجلة موريتانيا بحثاً مستوفياً عن هذا الأثر التاريخي النفيس، الذي كان ولا يزال مدفوناً في بطون بعض خزائن الكتب القديمة.

فطلب منا كثير من أرباب البحث وعشّاق التاريخ أن نستخلص هذا المخطوط وننشره بنصه الكامل، بعد درس وشرح وتمحيص، إيضاحاً لبعض القضايا التاريخية.

فلبينا نداء الواجب الثقافي الذي يحتّمه علينا "معهد الجنرال فرنكو" الذي أُنشئ للقيام بمثل هذه الأعمال الجليلة خدمة للثقافة العالية.

وقد اعتمدنا في طبعتنا هذه على ثلاث مخطوطات: مخطوطة تطوان، وقد أشرنا إليها برقم (1) وأحياناً بحرف (ت) ومخطوطة بني بوزين، من قبائل الأخماس العليا في شمال المغرب، وأشرنا إليها برقم (2) ومخطوطة مكتبة مدريد الأهلية، وقد أشرنا إليها بحرف (م) وكان جل اعتمادنا على المخطوطة رقم (2).

وقد ذيلنا هذه الطبعة بجداول وفهارس جغرافية وتاريخية على أسماء المدن والقرى والأماكن والأعلام الوارد ذكرها بهذه الرحلة مع ما يقابلها باللغة الإسبانية.

وقد شرحنا الكلمات الأجنبية والدخيلة والتعابير الأعجمية التي سمعها المؤلف فرواها على علاتها وأثبتها على أعجميتها، وكذلك شرحنا الألفاظ والتعابير الوضعية المصطلح عليها في المغرب.

لغة الرحلة وأسلوب المؤلف

أما الرحلة فإنشاؤها مضطرب، وتعابيرها ركيكة، تظهر عامية أحياناً، فقد نهج

المؤلف بأسلوبه نهج كتاب الدواوين في ذلك العصر ، فسار مع تيار عقلية عصره ووضعية محيطه .

هفوات المؤلف

وقع الكاتب المؤلف في هفوات تاريخية ، وأغلاط هامة ، في تعليقه وشرحه العقائد والقضايا الدينية ، فقد سطّر أموراً مشوهة عن النصرانية وتعاليمها ، وعن طرق ومذاهب الرهبانيات وقوانينها . ودون سفسطات مضحكة ، نظن أن بعضها من تلاعب النسّاخ ، لما فيها من تحريف وتصحيف .

فقد توخينا الأمانة والصدق في النشر والترجمة ، محافظة على قيمة أصول المخطوط التاريخية ، فلم نصحح شيئاً من أغلاط المؤلف[1] إنما أشرنا أحياناً إلى بعض الهفوات التاريخية الهامة ، ونقحنا بعض تعابير وألفاظ كان قد شوهها وحرّفها النساخ . كما أن المؤلف قد خلط ، في ابتداء روايته عن فتح الأندلس ، بين طارق بن زياد الطنجي وطريف بن مالك النخعي ، وذلك ، أيضاً ، أن حادثة الخلاف التي وقعت بين البابا وإنريكوس الثامن ملك إنكلترا ، وانشقاق هذا الأخير عن الكنيسة الكاثوليكية ، وتأسيسه للمذهب الأنكليكاني البروتستانتي ، وزواجه من امرأة عشقها ، فأخذها مع زوجته الأولى رغم تهديدات البابا ، قد نسبها المؤلف إلى مَلك فرنسا ، كما ذكر في شرحه لقضية تأسيس المذاهب الإنجيلية ، إلى غير ذلك من النقاط التاريخية الهامة التي أشرنا إليها .

---

(1) آثرنا تدقيق النص ، بما في ذلك تصويب الأغلاط الإملائية والأخطاء النحوية ، وشرح المفردات التي تحتاج إلى شرح ، وسد الثغرات في حدود الممكن ، بما لا يخل بالسياق العام ، أو يبدل بلغة المؤلف ، وقد أشرنا إلى ذلك في الهوامش التي أضفناها لتسهيل النص على القارىء . (المحرر) .

قيمة المخطوط التاريخية

إن لهذا المخطوط النفيس قيمته التاريخية ، لما فيه من صدق لهجة وأمانة وسذاجة ، في وصف ما شاهده الوزير المؤلف من مرافق الحياة والعمران والحضارة في البلاد الإسبانية ، وما لاحظه من عادات ذلك الشعب ومدنيته ، وما سمعه واختبره في تلك البلاد من تطور سياسة الأمم وتحوير أنظمة الدول ، وما لقيه من الإكرام والاحترام وحسن الضيافة ، وما عمله لتوطيد الصلات ، وتبادل المصالح المشتركة ، وتأمين حسن الجوار بين إسبانيا والمغرب ، وإبرام المعاهدات بين ملوك الدولتين العظيمتين .

فقد أتحفنا الوزير بملاحظات دقيقة واستنتاجات قيمة ، ورسم لنا صورة مصغرة طبيعية عن إسبانيا في عهد كرلوص الثاني ، ربما كانت من أقرب الرسوم إلى الحقيقة المجنحة ، وأفضل ما كتب عن إسبانيا في ذلك الزمن .

وقد بيّن المؤلف ، من ناحية أخرى ، ما كان للمغرب من عظمة ومجد وسؤدد ، وما كان لسلاطينه العظماء من جلال الملك والأبهة والشهرة الواسعة ، وما كان عليه مولاي إسماعيل من دهاء وحزم ، وعظمة وبطش ، وقوة وسعة ملك ، وما كان له من فضل عميم ، وسعي مشكور في افتكاك ما بقي من أسرى المسلمين بإسبانيا ، وجلب كل الوسائل الفعّالة التي تؤول إلى ما فيه عظمة وخير الإمبراطورية المغربية .

بين رحلة الغسّاني ورحلة الغزّال

لقد خلط كثير من مؤرخي العرب والفرنج بين سفارة الغسَّاني ، وسفارة الغزَّال ، ورحلتهما إلى إسبانيا ، فقد نسبوا خطأ هذه الرحلة إلى الفقيه الكاتب أحمد بن المهدي بن الغزال المُتوفى عام 1191هـ

فإن رحلة الغزال المعروفة بالرحلة الإسبانية كانت في عام 1711م ، أواخر عام 1179هـ ، في عهد مولاي محمد بن عبد الله سلطان المغرب ، وكرلوص الثالث ملك إسبانيا .

فقد كتب حضرة البحّاثة المعروف والكاتب الإسباني القدير ضون طوماس غرسيا فيكيراس بحثاً قيّماً حول هذه الرحلة وزيارة الغزال لمدينة شريش .

أما «رحلة الوزير في افتكاك الأسير» فكانت في عهد مولاي إسماعيل وكرلوص الثاني عام 1102هـ- 1690 ، 1691م ، فكانت ولا تزال مطمح أنظار البحّاثة .

فالمستعرب الفرنسي المسيو سوفير نقل إلى لغته سنة 1884 ترجمة مختصرة لهذه الرحلة تحت عنوان : «رحلة سفيرمغربي إلى إسبانيا» وقد اعتمد على مخطوطة مكتبة مدريد الأهلية رقم 5304 (مبتورة الأول) وعلى مخطوطة المستعرب الإسباني السنيور كاينكوس ، التي هي نسخة عن الأولى . وقد ذكر في توطئته أن صاحب الرحلة لا يزال مجهولاً .

كما أن تعليق مكتبة مدريد الأهلية على هذه الرحلة لا يخلو من الخطأ الفاضح . فقد سُجِلَت المخطوطة تحت عنوان : «رحلة سفير إلى إسبانيا ، بعثه مولاي إسماعيل إلى كرلوص الثاني سنة 1680 2682 .» . فحقيقة تاريخ الرحلة أوائل عام 1102هـ ، موافق 1690-1691 . فإن الحوادث الهامة التي ذكرها المؤلف والأحداث التي حدثت وهو في إسبانيا ، وقعت بين عامي 1690 و1691م 2011هـ :كوفاة البابا اسكندر الثامن سنة 1691 ، وانتخاب البابا أنوسنسيوس الثاني عشر النابولي سنة 1691 ، واستيلاء الفرنسيين على مدينة مونص سنة 1691 ، واسترجاع الأتراك مدينة بلغراد 1690 ، إلى غير ذلك من الحوادث والأحداث التاريخية الهامة ، التي تثبت تاريخ الرحلة التي وضعناها تأييداً للتاريخ الذي وضعه المؤلف ، والذي ردد ذكره في رحلته عدة مرات .

كما أن المستشرق المعروف والبحّاثة القدير السيد درنبورغ لم يتعرض في كتابه «تعاليق نقدية على المخطوطات العربية في مكتبة مدريد الأهلية» إلى رحلة الغساني ، إنما تكلم مطولاً عن رحلة الفقيه أحمد بن المهدي الغزّال؟ . . .

وقد كتب أيضاً البحّاثة الفرنسي المسيو هنري بيرس درساً قيماً وبحثاً هاماً حول سفارة الغسّاني ومهمته في إسبانيا ، في كتابه المعنون . «إسبانيا بنظر الرحّالة المسلمين من سنة 1610 إلى 1930» .

فقد أعطانا في بحثه فكرة عامة وصورة مجملة عن قيمة الرحلة التاريخية ، وعن

نباهة الوزير ، وما كان عليه من حسن الشعور والفطنة والانتباه الحسّاس ، والملاحظات الدقيقة التي رافقته في جميع أسفاره . غير أن البحّاثة الفاضل قد سجل بعض نقاط وتعاليق مشوهة ، لو أنه طالع بإمعان الأصل العربي لكان تجنب السرعة في أحكامه ، وأظهر نقده المخلص ، كتأييده لمتانة وقوة إنشاء الوزير ، إلى غير ذلك . . .فإننا نعتقد أنه لم يطّلع على النصوص العربية الأصلية ، بل اكتفى بالترجمة التي وضعها بالفرنسية المسيو سوفير ، وتعاليق غيره من البحّاثة والكَتَبَة .

ثم إن الكاتب يتساءل : ما حل بالأسرى المسلمين بعد مجيء السفير إلى المغرب ، هل اصطحبهم معه أم تركهم يأتون لحالهم ، أم التزم الإسبان نقلهم إلى سبتة أو إلى أحد الشواطئ المغربية؟ هذا ما ستجيبنا عليه الأيام المقبلة المتأثرة بقوة تنقيب الباحثين ، المرتبطة بين طي التاريخ ونشره .

غير أن لدينا بعض الظهائر الإسماعيلية(2) تفتح أمامنا كوة من نور ، ننظر منها إلى هذه العقدة التي تكتنفها غيوم ملبدة ، تارة تنقشع عنها ، فيظهر ضوء بعيد يحاول أن يسلط أشعته الضعيفة لإنارة شبح السبيل المؤدي إلى باب الحقيقة ، وطوراً تتجمع متلبدة ، فتمنعنا من تمييزها تماماً وصدق الحكم عليها .

غير أننا نعتقد ببقاء الأسرى في إسبانيا بعد مجيء السفير إلى المغرب ، حسب ما تفيد بعض الظهائر ، وهذا أيضاً من الأسباب التي أوجبت تأليف سفارات أخرى بعد سفارة الغسّاني .

أما إشارة الغساني إلى مكتبة الاسكوريال ، وقوله إن معظم كتبها جُلبَت من إشبيلية وقرطبة ، لا يعني أنه كان جاهلاً بحقيقة قضية مكتبة مولاي زيدان(3) كما ذكر البحّاثة الفاضل .

فإن كُتُباً كثيرة نقلت من قرطبة وإشبيلية إلى العاصمة ، فكان للاسكوريال النصيب الأوفر منها . وإننا لا ننكر أن أُسس مكتبة الاسكوريال العربية ، وقوامها وشهرتها الواسعة ، هي مكتبة مولاي زيدان التي حُجِزَت في البحر سنة 1612م ثم

---

(2) نسبة إلى مولاي اسماعيل . (المحرر) .

(3) هي المكتبة التي نهبها القراصنة الاسبان خلال رحلة للسلطان المذكور بين آسفي وأغادير . (المحرر) .

جُلِبَت إلى مدريد في عهد فيليب الثالث .

فإن إهمال الوزير لهذه الحقيقة ، وتسليمه لحادثة حرق الكتب ، عائدة إلى بعض أسباب تجنب الوزير ذكرها . . .

ونحن ، بدورنا ، لا نسلّم بأن سفارة الغساني ومهمته الدبلوماسية ، وسبب رحلته إلى إسبانيا ، كان غايتها افتكاك الأسرى وجلب الكتب فقط ، بل كان هناك بعض الأمور الخطيرة لم يُشِر إليها الوزير ، رغم ما ذكره في مقدمته . فإنه رجع إلى وطنه والحكومة الإسبانية تفتش عن الأسرى؟ . . .

وبينما نحن في معترك البحث وميدان الدرس ، فوق مائدة التشريح في المختبر العقلي ، نحلل مقاييس ومقادير عقدة هذه القضية ، فإذا بالوزير المؤرخ يتقدم إلينا بمجموعة تاريخية كلها عبر ، فترك لنا ملاحظات دقيقة ، ودروساً قيمة ، في حياة الأمم الاجتماعية والتاريخية ، ولم يهمل الاقتصادية والدينية منها ، وقد رسم لنا بريشته الساذجة البريئة الطبيعية لوحة رمزية ؛ لها تشبحاتها الغامضة ، وتموجاتها الساحرة ، وقيمتها الفكرية ، في عالم البحث والتنقيب والتفكير .

وتتميماً لفائدة بحثنا التاريخي قد ألحقنا بهذه المقدمة ترجمة مختصرة لحياة مولاي إسماعيل ولوزيره وسفيره الغساني صاحب الرحلة .

ولنأمل أن تؤخذ أعمالنا هذه بعين الإنصاف والتشجيع .

والله الموفق . للصواب ، ولوحده العصمة ، وهو حسبنا ، ونعم الوكيل

مدريد – تطوان في 3 نوفمبر سنة 1939 .

ملحق (2)

رحلة الغسّاني
أغناطيوس كراتشكوفسكي

وأبو عبدالله محمد الوزير الغساني من أسرة أصلها من الأندلس ولكنها استقرت بمراكش ، وكان يعمل كاتباً ببلاط الشرفاء العلويين بمكناس في عهد مولاي اسماعيل الطويل الأمد (1083هـ- 1139هـ=1673-1727) ؛ وقد اكتسب الشهرة كخبير بأسماء الكتب (bibliograph) وخطاط وناثر فني . وفي عام 1689 عندما استرجع الشريف مدينة العرائش من الأسبان ووقعت حاميتهم في يده فكر في أن يعرض على ملك أسبانيا استبدال الحامية بخمسمائة أسير مراكشي ممن كانوا في الأسر بأسبانيا وخمسة آلاف كتاب من الاسكوريال ، ووقع اختياره على الوزير الغساني ليضطلع بهذه المهمة . ومن العسير القول بصورة محددة عما إذا كانت تلك هي حقاً أهداف الرحلة ، إلا أن الرحّالة على أية حال يتحدث عن ذلك كثيراً خلال وصفه لرحلته . وهو في الواقع يتكلم عن وجود أسرى مراكشيين بقادس وقرطبة ومدريد ، لكنه لا يذكر شيئاً عن ترحيلهم إلى أرض الوطن ؛ أما المخطوطات فقد كان للمراكشيين فكرة مضطربة بعض الشيء بصددها ، وهم كانوا على علم بأن الأسبان نقلوا إلى مكتبة الإسكوريال "خزائن من قرطبة وإشبيلية وغيرهما . ومن المعلوم أن مجموعة الإسكوريال ترجع في الواقع إلى عهد متأخر وتمثل في جوهرها قسماً من مكتبة مولاي الشريف زيدان (1012- 1038هـ=1603-1628) التي سطا عليها القراصنة أثناء رحلة للشريف من آسفي إلى أغادير ، وعندما علم المراكشيون بخبر الحريق الذي تعرضت له مكتبة الإسكوريال في عام 1671 لم يصروا كثيراً على استرداد المخطوطات ، بل عرضوا أن يستبدلوها بخمسمائة أسير آخر . ونظراً لأن وصف الرحلة لا يذكر شيئاً عما تم بصدد هذا العرض ، فإن بعض البحاثة يميل إلى الافتراض بأن هدفي الرحلة المشار إليهما لم يكونا إلا ذراً للرماد في العيون ، وأن الهدف الحقيقي كان على أغلب الظن محاولة عقد معاهدة صلح بين الطرفين . وعلى أية حال فقد

رأى المؤلف من الضروري أن يظهر اهتمامه بالهدف الأول للرحلة بأن يعنوَن كتابه «رحلة الوزير في افتكاك الأسير» . ومما يؤسف له أن جميع المخطوطات المعروفة حتى الآن ليست كاملة وتنقطع في وصف طريق العودة عند طليطلة ؛ واعتماداً على إحداها قدّم لنا سوفير Sauvaire ترجمة مختصرة للكتاب .

خرجت السفارة من سبتة في الخامس عشر من المحرم سنة 1102هـ=19 أكتوبر 1690 متجهة إلى جبل طارق ، ومرت في طريقها على طريف وقادس وشريش و«ايشكا» Ecija وقرطبة ولينارس Linares ومانسنارس Manzanares ومورا Mora حتى بلغت مدريد في اليوم السابع من ربيع الثاني من نفس العام = 8 يناير 1691 . ثم غادرت مدريد في طريق الرجعة في أول رمضان =29 مايو إلى طليطلة ، وينقطع بعد هذا وصف الطريق بانقطاع المخطوطة .

هذا ويكشف الرحّالة عن قوة ملاحظة وانتباه غريبين بالنسبة لعصره ، كما وأن سعة أفقه وما اتسم به من روح التسامح الشديد الغريب بالنسبة لمراكشي من عصره قد سمح له بأن يتجاذب أطراف الحيدث بيسر مع رجال الدين الذين كانوا يلعبون دوراً خطيراً في أسبانيا لذلك العهد ، وأيضاً مع بقايا العرب المتنصرين . ومن الطريف في هذا الصدد أن نشير إلى محادثاته الطويلة في محلة اندوخر Andujar قرب قرطبة مع «أولاد السراج» ، وهم أحفاد بني سراج المشهورين الذي انتقلوا إليها من غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر . وهو يولي نفس القدر من الانتباه لتفهم أسلوب المعيشة في أديرة الراهبات التي تعرف عليها بصورة مباشرة .

والمؤلف يتحاشى القصص في عرضه ، ولا ينقل وصفه ، على عكس الكثيرين ، بالاستطرادات المنقولة عن مؤلفين آخرين ، بل إن مسجداً مشهوراً كمسجد قرطبة لا يظفر لديه إلا بمكانة صغيرة . وفي مقابل هذا فهو يتحدث بتفصيل أكثر عن تاريخ أسبانيا الحديثة وعن آخر هجرة للموريسكيين منها ، كما يفصل الكلام بصورة خاصة عن سياسة أوروبا المعاصرة له . ومن اتجاهه العام يبدو كعالم إثنوغرافي واجتماعي أكثر منه مؤرخاً ، فهو يهتم قبل كل شيء بوصف الأخلاق والعادات والنظم ؛ وفي هذا المجال قد تفوق معطياته أحياناً الأوصاف الأوروبية المعاصرة له . وهو على معرفة جيدة بنظام «ديوان التحقيق» Inquisition الذي تركز نشاطه في ذلك العصر ، بصورة

خاصة ، في محاكمة المتهمين بالتهود ؛ وقد كان شاهداً لمصارعة الثيران التي رجع أول ذكر لها في العادة إلى القرن السابع عشر ، ولو أنها لم تكن قد اكتسبت في تلك الآونة طابعها العنيف الذي تحيط به الطقوس الدينية ، بل كانت مناسبة شعبية لا تقتصر على المحترفين وحدهم إذ كان يأخذ طرفاً فيها كل من يدّعي لنفسه الشجاعة ورباطة الجأش . ورحّالتنا يولي عناية خاصة لوصف الرقصات الشعبية التي عملت تكريماً له ، ويقدم لنا تحليلا لشخص الملك كارلوس الثاني آخر سلالة الهابسبرج على العرش الأسباني (1665=1700) معتمداً في ذلك على انطباعاته الشخصية ؛ ويجب الاعتراف بأن هذا التحليل لا يخلو من بعض الزيادة على ما سرده الرحالة الأوروبيون في هذا الصدد . هذا وقد اقتصرت دائرة اتصاله بالطبع على الوسط الأرستقراطي ، وجهد رجال البلاد في أن يحدثوا في نفسه أثراً طيباً بأدبهم الجم وبشاشتهم وحسن معاملتهم ، كما بذلوا جهدهم في أن يروه كل ما يمكن أن يكون ذا طرافة وأهمية بالنسبة له . غير أن هذا لم يطغ على الجوانب الأخرى للحياة ، فهو يهتم بالجانب الاقتصادي ويوجه الكثير من انتباهه إلى طرق الزراعة وتربية الحيوان ؛ أما في ما يتعلق بعالم الطبيعة فهو يقف موقف الملاحظ المهتم بنشاط الإنسان فيه ، ولا يولي اهتماماً خاصاً بالمناظر الطبيعية أو جمال الطبيعة نفسها ، أو يكلف نفسه نقل الأوصاف الشاعرية التي صاغها الغير . وفي مقابل هذا فقد كان في موقف يمكنه من أن يتثبت من الأثر السيئ الذي تركه كشف أمريكا على أسبانيا والإسبانيين رغما من الغنى الفاحش الذي عاد إلى البلاد نتيجة لذلك .

وبوجه عام فكتابه لا يخلو من الطرافة ومادته ذات أهمية في العادة ، وهي تمس السكان والمدن والريف والطبقات العليا والدنيا ، ولا يوجد في عرضه أي أثر للتحيز المقيت أو العصبية ضد الأجانب ، بل ينبض بالكثير من العاطفة الطيبة نحو الغير ، مما سمح له بتفهم أشياء كثيرة تعد غريبة بالنسبة للمسلمين . وإن ما يمتاز به العرض من حيوية وقوة ملاحظة ليقف كفؤاً لأحسن أوصاف الرحلات الأوروبية لذلك العهد . فهو يقدم لنا لوحة دقيقة للحياة الإسبانية ، وعلى وجه خاص ، حياة البلاط الإسباني في عهد كارلوس الثاني . ولعلنا نذكر جيداً كيف أنه قبل عشرين عاماً من الغساني وجِدَ الرحالة العربي المسيحي إلياس الموصلي في نفس تلك الظروف ، ولعل

عقد مقارنة خاصة بين معطياتهما سيكشف لنا عن تفاصيل ليست بالقليلة من حيث طرافتها . ولنذكر عرضاً ان الغساني يتحدث عن سفارة من «مسكوبيا» زارت أسبانيا قبل مجيئه بثلاثة أعوام ، ومن المحتمل أنه إنما يشير إلى سفارة روسية زارت فرنسا وأسبانيا في عام 1687– 1688 ، كما يستفاد من مصادر أخرى .

ولم تمر سفارة الغساني هكذا دون أن تترك أثرها على سير الأدب ، وسنرى في القرن التالي لهذا رحلة مماثلة إلى أسبانيا قام فيها بمهمة دبلوماسية رجل آخر من أهل مراكش يدعى الغزال يمكن أن نلمح في تضاعيف وصفه لرحلته انعكاساً معيناً لوصف رحلة الغساني . وأغلب الظن أن الشريف اعتبر رحلة الغساني رحلة موفقة ، إذ نراه يبعث به في العام التالي أي في سنة 1103هـ=1692 كاتماً لأسرار سفارة أخرى وجه بها إلى الأتراك في الجزائر ، ولم يحفظ لنا وصف هذه الرحلة الأخيرة . هذا وقد توفي الغساني بفاس في سنة 1119هـ=1710 .

«تاريخ الأدب الجغرافي العربي» أغناطيوس كراتشكوفسكي

ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، الطبعة الأولى – القاهرة 1691

ملحق (3)

فهرس جغرافي

بأسماء المدن والقرى والأماكن الوارد ذكرها بهذه الرحلة
مع ما يقابلها باللغة الإسبانية

INDICE GEOGRAFICO

De los nombres de ciudades, aldeas y lugares mencionados en este viaje,
con su correspondienfe en espanol

Ceuta	سبتة
Gibraltar	جبل طارق (جبل الفتح)
Tarifa	طريف (طريفة)
Algecıras	الجزيرة (الجزيرة الخضراء)
Gadiz	قالص (قادس)
Santa Maria (Puerto de)	شنتمرية (سنتا ماريّا)
Ronda	الرندة
Sanlucar	سان لوكار
Jerez (de la Frontera)	شريش (ده لافرنطيره)
Lebrıja	البريجة
Utrera	أُطريرة
Marchena	مرشينة
Guadalquivir	الواد الكبير
Sevilla	إشبيلية
Ecija	ايسِكا (ازيخة)
Huesca	ويسكا (ويشكا)

Guadix	واد آش
Granada	غرناطة
Cordoba	قرطبة
Sierra Morena	سييراً مورينة
Baeza	بياسة
Jaen	جيان
Malaga	مالقة
El Carpio	الكاربي (الغربي)
Andujar	أندوخر
Almeria	المرية
Linares	ليناريس
Carmona	كرمونة
Torre de Juan Abad	طُرّي أكوان أبان (خوان أباد)
Mancha (La)	مانشا (مانتشا)
Orcera	قوصرا (أوصيرا)
Venta de San Andres	بينطة سان أندريس
Membrilla	المنريلية (المنبرية)
Manzanares	منسنارس
Almagro	الماكرو (المغرو)
Mora	مورا
Tajo (Rio)	وادي طاخو (وادي طاغو)
Bargas	بكنص (بركاص)
Getafe	خطافي
Madrid	مدريد (مجريط)
Retiro (El)	الريطيرو
Pardo (Palacio de El)	البردو (قصر)

Manzanares (Rio)	منسناريس (نهر)
El Escorial	الاسكوريال
Plasencia	بلاصينصيا
Toledo	طليطلة
Consuegra	سويقرا
Ayamonte	أيامونطي
Medina Sidonia	مدينة صيدونية
Valladolid	بليادوليد
Olvera	البيرة
Medina Celi	مدينة سليس
Barcelona	برشلونة (برسلونة)
Alicante	أَلِيقَنتي
Salamanca	صالامنكة (طلامنكة)
Aranjuez	أرانخويس
Verde	بيردي (الخضراء)
Illescas	وشقة
Guadalajara	وادي الحجارة
Bejar	باجة
Zaragoza	سرقسطة
Niebla	لَبْلَة
Yjar	ايخر
Palencia	بلنسية
Balad El Moro	بلد المورو
Santaren	شنترين
Coimbra	قلنبرية
Ejea	شية

Almeida	مدينة المائدة
Astorga	استرقة
Zaguac	قلعة زعواق (قرب إشبيلية)
Ocsonoba	اكشونبة (اكشبونة)
Andalucia	الأندلس
Navarra	نبارّى
Castilla La Vieja	قشتالة القديمة
Castilla La Nueva	قشتالة الجديدة .
Leon	اليون
Aragon	راغون (اراغون)
Cataluna	قطالونية (قطلونيا)
Galicia	جليقية

ملحق (٤)

فهرس

الألفاظ والتعابير الإسبانية التي استعملها المؤلف في كتابة رحلته وأثبتها محرّفة أو معجمة

INDICE

Para las Palabras Y expresiones espanolas que el autor em-

Pleo en la redaccion de Su Viaje, Conservandolas

Alleradas o aljamiadas

كوشطة	:الشاطئ	Costa :
شلظاظ	:الجند	Soldados :
شلظاظ أهل الوردية	:الحرس	Soldados de Guardia :
كنبينطو	:الدير	Convento :
ميسة (ميسات)	:القدّاس	Misa (Misas) :
منكاص (منخاص)	:الراهبات	: Monja (Monjas)
الامكالصوص (دصكلصوص)	:طريقة رهبانية الحفاة	Descalzos :
نوسي ، نونسيو	:القاصد الرسولي ، ممثل البابا	Nuncio :
السوبيسبو ، ارسوبيسبو	:رئيس أساقفة	obispo Arz:
كونديس :جمع كوندي	:لقب من ألقاب الشرف	Conde (Condes) :
دوكيس :جمع دوكي	:من ألقاب الشرف	: Duque (Duques)
لوبو	:ذئب	Lobo :
سرّه	:ثعلب	Zorra :
بينطة	:نزل ، فندق	Venta :
فرية	:معرض : سوق جامعة	Feria :

غليرة :عجلة Galera :

بلاصيو :قصر Palacio :

مايوردوم :قيّم قصر الملك : قهرمان : Mayordomo

انباشادور :سفير Embajador :

كندسطابلي :رتبة حكومية تعادل قائد أعلى للجيوش : Condestable

برنسيبي :أمير Principe :

كران دوكي :الدوقي الكبير Gran Duque :

بلاصا مايور :السوق العامة : الكبيرة Plaza Mayor :

راي تشيكو :الملك الصغير Rey Chico :

ميلا كروس :عجائب : خوارق Milagros :

كاسيطة :جريدة Gaceta :

فرايلي فرايلية :راهب ، رهبان(رهابين) : Fraile (Frailes)

كليريك كليريكس :اكليريكي : اكليروس : Clerigo (Clerigos)

ضامات :سيدات Damas :

شمريره :قبعة Sombrero :

الأربة :آلة طرب تشبه القانون Arpa

أركانو :آلة طرب : الأرغن Organo :

البروسيسيون :التطواف : (الزياح) Procesion :

انكطارة كيطاره :آلة طرب تشبه العود Guitarra :

كونفيصور :الاعتراف Confesor :

أريكس اريخس :هراطقة Herejes :

باسطون :عصا ، قضيب الأناقة Baston

بولية- بولا (اذن كنائسي :يبيح لحامله الأكل في أيام الصوم) : Bula

انكيسيشيون :ديوان التفتيش Inquisicion :

كودشه :عربة (سيارة) : Coche :

ملحق (٥)

جدول
شرح الاصطلاحات والتعابير المغربية الوارد
ذكرها في الرحلة

INDICE

De las locuciones y expresiones marroquies citaadas

En este viaje

المخزن	:	الحكومة المحلية .
رجال المخزن	:	رجال الحكومة المحلية .
مخازني	:	شرطي (بوليس وطني) .
المشوار	:	(السراي) دار الحكومة .
المحلة ، المحال	:	الجيش في العموم ، ويطلق الإسبان اليوم هذا الاسم على فرق منظمة معلومة من الجيش المغربي المحلي .
الأحباس	:	الأوقاف .
المدشر والدشرة	:	القرية .
الحوت	:	يطلق على عموم السمك .
الرقّاص (رقاقيص)	:	ساعي البريد .
براوات	:	جمع براءة وهي الرسالة : رسائل .
الكسكسو	:	لون طعام مغربي مشهور جداً (تقدّم وصفه) .
المغانة والمكانة	:	الساعة ، (آلة) .
القصبة	:	القلعة المحصنة (حصن) .

ملحق (٦)
تراجم وأعلام

١ - فهرس تراجم الأعلام الوارد ذكرها في الرحلة

أبو حيّان

654-745هـ

أثير الدين أبو عبد الله محمد بن حيّان الأندلسي الغرناطي النفزاوي أديب ، شاعر ، لغوي نحوي . له تآليف قيّمة ورحلات عديدة إلى المشرق ، تُوفي بمصر . ولد عام 654 مات 745هـ .

ابن حميّا (محمد)

قُتِل عام 1568م

اسمه الحقيقي فرناندو دي فالور ، كان رئيس عرب غرناطة عندما أهاجوا ثورة على الملك فيليب الثاني قُتل سنة 1568م .

جابر بن لبيد

من وجهاء وعيون الأندلس كان والي إلبيرة في عهد عبد الرحمن بن الحكم .

الجزيري

اتُوفي بين سنة 395 و 398هـ

عبد الملك بن إدريس الجزيري كاتب ، شاعر ، أديب يعدُّ من فطاحل البلغاء ، له رسائل وأشعار مشهورة ، كان من وزراء الدولة العامرية ، تُوفي بين سنة 395 و 398هـ .

حسّانة التميمية

أديبة من البيرة ، ومن شويعرات الأندلس المثقفات ، لها مقاطع ومراسلات شعرية

كانت في إلبيرة في عهد عبد الرحمن بن الحكم ولها فيه مدائح شعرية .

حمدة الأندلسيّة

هي حمدة بنت زياد الوادآشية من شاعرات الأندلس المعدودات المشهود لهنّ بعلوّ الطبقة في جنسهنّ ، لها كثير من المناظرات الأدبية والأخبار والمساجلات الشعرية .

الحلبي النصراني

ماروني من حلب (سوريا الشمالية) كان ترجمان ملك إسبانيا كارلص الثاني ، قد رافق في مدريد وضواحيها السفارة الإسماعيلية التي ترأسها الوزير الغساني وكان صلة التفاهم بين الوفد المغربي والسلطات الإسبانية ذكره المؤلف مرات عديدة وأثنى عليه .

الرازي

تُوفي سنة 311هـ

هو أبو بكر محمد بن زكريّا الرازي الملقّب بجالينوس العرب ، إمام الطب والأطباء في عصره وكان أيضاً أديباً ، شاعراً مؤرخاً ، اشتغل بالفلسفة ، وكان على سعة علمه متواضعاً محبّاً للفقراء محسناً إليهم . وللرازي مؤلفات عديدة جداً وهو أوّل في ألف في الجدري والحصبة . وهنا يقصد المؤلف محمد بن أحمد الرازي الأندلسي المؤرخ والجغرافي الشهير .

السمح بن مالك

قُتِلَ سنة 103

هو أمير الأندلس السمح بن مالك الخولاني ثم الحياوي وليَ الأندلس في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز سنة 100 ، قُتلَ في موقعة ضد الإسبان سنة 103 (يوم التروية) .

إسماعيل بن عبيد الله

هو إسماعيل بن عبيد الله مولى بني مخزوم : ولاه عمر بن عبد العزيز إفريقيا عام 100 كان تقياً ورعاً حرصاً على مصالح المسلمين .

عبد الملك السعدي

983-986هـ

1575-1578م

هو أبو مروان عبد الملك بن محمد الشيخ ، ذهب إلى الاستانة واستنجد بالسلطان مراد الثالث على ابن أخيه ، فانتصر عليه في موقعة الركن قرب فاس ودخل العاصمة منتصراً عام 983 ، مات مسموماً في موقعة وادي المخازن المشهورة ، (قرب القصر الكبير) عام 986هـ .

السلطان سليمان القانوني

1520-1566م

هو السلطان العثماني سليمان الملقب بالقانوني ، كان إدارياً حازماً ، قمع بصرامة ثورة الغزالي رئيس نيابة سورية وقتله في قابون بالقرب من دمشق عام 1521م .

اعتلى العرش العثماني عام 1520م مات عام 1566 .

طارق بن زياد

هو طارق بن زياد الطنجي الفاتح الحقيقي للأندلس غزاها بجيوش المغرب من المضيق المنسوب إليه سنة 92 وبقي بها إلى أن ذهب إلى الشام مع موسى بن نُصير بطلب من أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك سنة 95 .

طريف بن مالك

دخل الأندلس عام 91هـ

هو أبو ذرعة طريف بن مالك النخعي ، مولى طارق بن زياد وقائد فرق جنود

الكشافة المغاربة المسلمين الذين مهدوا السبيل لدخول جيوش الفتح ، وكان طريفاً قد دخل الأندلس مع رجاله سنة 91 فتجسس أرضها ودرس أحوال رجالها ، ونزل الشاطئ المنسوب إليه ، ثم رجع وأخبر طارقاً بحقيقة الحال وبما شاهده من أحوال الأندلس .

موسى بن نُصير

(تُوفي عام 99)

هو أبو عبد الله موسى بن نُصير البكري أمير أفريقيا والمغرب والقائد العام لجيوش الفتح في الغرب ، دخل الأندلس فاتحاً ومنظماً سنة 93 رجع إلى دمشق بأمر الوليد بن عبد الملك سنة 95 ، تُوفي بين= 97- 99 .

التابعون الذين دخلوا الأندلس

مع موسى بن نُصير عام 93

1- علي بن الرَّباح اللخمي مات 114 ، 2- حيوة بن رجاء التميمي ، 3- عبد الله بن يزيد الأنصاري الحُبلي مات 100 ، 4- حنش بن عبد الله الصنعاني مات 100 5- أبو سعد الصدفي .

عباس بن ناصح الثقفي

شاعر ، أديب أندلسي ، نشأ بمصر ورحل إلى العراق فاجتمع بالأصمعي وبغيره من علماء الشرق فسمع منهم وأخذ عنهم ، ثم رجع إلى الأندلس ، كان من ثقات أهل الأدب والتاريخ عارفاً بفنون الشعر وأسرار العربية .

عبد العزيز بن موسى بن نُصير

قُتِلَ عام 99هـ

كان والده قد استخلفه على الأندلس عند خروجه منها عام 95 ، فبقي واليها إلى أن قتله الجند عام 99هـ بأمر أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك .

أمراء بني أُمية في الغرب من عبد الرحمن الداخل
إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله.
138-350هـ 756-961م .

عبد الرحمن الداخل 138-172هـ ، هشام 172- 180هـ ، الحكم 180- 206هـ ، عبد الرحمن بن الحكم 206- 238هـ ، محمد بن عبد الرحمن 238- 273هـ ، المنذر بن محمد 273- 275هـ ، عبد الله بن محمد 275- 300هـ ، أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر 300- 350هـ

خلفاء بني أُمية في الشرق
من مروان بن الحكم إلى مروان الأخير.
64- 132هـ ، 685- 750م .

مروان بن الحكم 64- 65هـ ، عبد الملك بن مروان 65- 86هـ ، الوليد بن عبد الملك 86- 96هـ ، سليمان بن عبد الملك 96- 99هـ ، عمر بن عبد العزيز 99- 101هـ ، يزيد بن عبد الملك 101- 105هـ ، هشام بن عبد الملك 105- 125هـ ، الوليد بن يزيد 125- 126هـ ، يزيد بن الوليد 126- 126هـ ، مروان الأخير 127- 132هـ

الأمير معاوية الأُموي الأخير
قُتِلَ سنة 132هـ

من الأمراء الأُمويين قُتِلَ في ثورة العباسيين سنة 132هـ وهو والد عبد الرحمن الداخل الذي نجا من القتل وهرب إلى الغرب وأحيى السلالة الأُموية في إسبانيا .

علي بن أبي طالب
قُتِلَ سنة 40هـ ، 660م .

هو أَمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته ورابع الخلفاء الراشدين وإمام الخطباء من المسلمين على الإطلاق وأكثرهم حلماً وعلماً وزهداً ، قُتِلَ غيلةً بمسجد الكوفة وهو يصلّي سنة 40هـ

عُمر بن الخطّاب

قُتِلَ سنة 23هـ ، (644م)

هو أمير المؤمنين أبو حفص عُمر بن الخطاب القرشي ثاني الخلفاء الراشدين وأول من تسمّى بأمير المؤمنين وأول من أرّخ بالتاريخ الهجري ومصّر الأمصار ودوّن الدواوين . قتله غيلةً الشقي أبو لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة سنة 23هـ .كان حريصاً جداً على مصالح المسلمين ، ومن أبيَن الناس منطقاً وأكثرهم صواباً وحكمة .

عبد الملك ابن حبيب

مات 227هـ

هو أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان السلمي من أهل إلبيرة غير أنه سكن قرطبة ، كان ثقة في التاريخ ، أديباً نحوياً عروضياً حافظاً للأخبار والأنساب رحل إلى المشرق وسمع من علمائه ورجع إلى الأندلس . مات سنة 237هـ

مولاي الشريف

ولد 997- تُوفي 1069هـ .

هو النبيل الشريف أبو الأملاك بن علي بن محمد مولاي الشريف الحسني جد العائلة النبيلة المالكة في المغرب أعزها الله ، كان مولاي الشريف وجيهاً عند أهل المغرب محترماً مكرماً عند جميع طبقات الشعب يقصدونه في المعضلات ويستشفعون به في الأزمات ويهرعون إليه في الملمّات .

مولاي إسماعيل

هو الشريف العلوي السلطان المظفّر أبو النصر مولاي إسماعيل بن مولاي الشريف ثالث ملوك السلالة العلويّة في المغرب ، كان شجاعاً بطّاشاً مستبداً عادلاً .

مولاي محمد بن محرز

قُتِلَ 1096

هو أبو العباس أحمد بن محرز بن مولاي الشريف ، ثار في مرّاكش على عمه مولاي إسماعيل ، فوقعت بينهما حروب ومنازلات عديدة قُتِلَ سنة 1096هـ .

محمد بن مولاي عبد الله المعروف بالمسلوخ

قُتِلَ 986هـ

هو أبو عبد الله ابن مولاي عبد الله بن محمد الشيخ ، بُويع له بعد وفاة أبيه سنة 981 ، كان شديد العسف على الرعية ، متكبراً ، وكان مع ذلك فقيهاً أديباً شاعراً مجيداً ، استنجد بالضون سباستيان ملك البرتغال على عمه مولاي عبد الملك . مات غريقاً في موقعة وادي المخازن قرب القصر الكبير سنة 986 ، وسُلخ جلده بعد وفاته ومُليءَ تبناً ، ويعرف عند العامة بالمسلوخ .

خوان دي اوسطريا

تُوفي 1679م .

هو خوان بن فيليب الرابع من ماريّا كلدرون ، كان شجاعاً مقداماً وقائداً لامعاً ، ينسب إليه كثير من الإصلاحات والأعمال الطيبة في المملكة الإسبانية مات سنة 1679 .

خوان (الفريلي) الراهب

1495- 1550م .

يقصد به المؤلف : القديس يوحنا دي ديوس مؤسس رهبانيَة أخوة المحبة 1495-1550م .

خوانا ابنة إزابيل

تعرف بالحمقاء ، ملكة قشتالة ، ابنة فرناندو وازابيل ووالدة كارلص الخامس ،

نودي بها ملكة على قشتالة سنة 1504 أصابها مس من الجنون بسبب مصابها بوفاة زوجها فيليب الجميل (ارموصو) ارشيدوق اوسطريا .

ملوك إسبانيا من سلالة اوسطريا

فيليب ارموصو (الجميل) ولد 1478م ، مات 1506 ، كارلوص كنطو (الخامس) ولد 1500 مات 1558م ، فيليب سكوند (الثاني) ولد 1537 مات 1598 ، فيليب طرسيرو (الثالث) ولد 1578 مات 1621م ، فيليب كوارطو (الرابع) ولد 1605 مات 1665 ، كارلوص سكوند (الثاني) ولد 1660 مات 1700م .

الدوندي (فرناندو دي فلنسويلا)

1692م .

فرناندو دي فلنسويلا ، شاعر وسياسي إسباني كان محظياً عند الملكة ماريانا دي اوسطريا والدة كارلوص الثاني وكان صاحب الكلمة النافذة في مصير شؤون المملكة ، إلى أن أبعده وسجنه الضون خوان دي اوسطريا باسم الملك ، مات 1692 . وقد ذُكِرَ خطأً في المتن بأنه الأب نيطارد اليسوعي .

الدلفين

هو لقب يطلق على الولد البكر من أولاد ملوك فرنسا ، وهنا هو لويس ولد لويس الرابع عشر ووالد فيليب دي انجو الذي اعتلى عرش إسبانيا بعد حرب الميراث وأخذ اسم فيليب الخامس .

فرناندو لاكطوليكو (الكاثوليكي)

1456- ١٥١٦

هو فرناندو الخامس ويعرف بالكاثوليكي ملك قشتالة وأراغون وسيسيلية ونابولي ، تزوج من الملكة ازابيل الأولى القشتالية وضم إليه مملكتها وبقية الممالك الإسبانية المتفرقة ، فتم بذلك الاتحاد الإسباني الوطني ، استولى على مالقة وغرناطة وعلى بقية

البلاد التي كانت بيد المسلمين ، أخمد بصرامة ثورة القتالونيين وقضى على جميع الحروب الأهلية وأسس ديون التفتيش المشهور . كان حازماً شجاعاً منظماً إدارياً سياسياً محنكاً . في عهده اكتشفت القارة الجديدة فازدهرت إسبانيا وكثرت ثروتها المادية والأدبية فابتدأ يسطع مجدها السامي وعظمتها الخالدة .

إزابيل لاكطوليكا (الكاثوليكية)

1451 - 1504م .

هي إزابيل الأولى ابنة خوان الثاني وزوجة فرناندو الخامس كانت ساعد زوجها الأيمن بكل فتوحاته وأعماله العظيمة ، يرجع إليها الفضل الأكبر في اكتشاف العالم الجديد . شجعت كولومبس وساعدته في مغامراته واكتشافاته وأمدته بالرجال والمال ، لتحقيق أمانيه وأحلامه . فكان العالم الجديد ، وكانت عظمة إسبانيا ومدنيتها السامية .

سباستيان (الضون)

ملك البرتغال : 1554 - 1578م .

الضون سبستيان ملك البرتغال وابن أخت فيليب الثاني ملك إسبانيا ، ساعد مولاي محمد بن عبد الله (المسلوخ) باسترجاع ملكه من عمه مولاي عبد الملك السعدي ، قاد الجيوش المتحالفة لمحاربة المغاربة والأتراك المنتصرة لمولاي عبد الملك السعدي في موقعة وادي المخازن الشهيرة ، قُتِل ومتصرخه مولاي محمد في تلك الموقعة سنة 1578 .

لورنصو (الراهب)

460-520

من القديسين والشهداء المسيحيين الإسبان كان أسقفاً فاضلاً ، تقياً صالحاً ، قُتِلَ حوالي سنة 520م .

يوليان

هو الكندي خوليان حاكم مدينة سبتة عند الفتح العربي ، والمشهور أنه هو الذي مهد دخول العرب إلى إسبانيا وسلّم إليهم سبتة انتقاماً من الملك لذريق سنة 91هـ.

نبوكَدنَصّر (الثاني)

ملك آشوري أغار على أورشليم فأحرقها وجلا أهل يهوذا إلى بابل سنة 586ق .م .

(2) فهرس تراجم وأعلام مقدمة المحقق

بيرس (هنري)

مستعرب فرنسي ، أديب بحّاثة ، أستاذ الآداب العربية في جامعة الجزائر ، له مؤلفات وأبحاث قيمة ، نَشرَ مؤخراً في باريس (سنة 1937م) تأليفه المعَنْوَن : (إسبانيا بنظر الرحالة المسلمين من سنة 1610 إلى سنة 1930م .) .

درنبورغ (هرتويك)

1908-1844

مستشرق مشهور وبحّاثة معروف ، أخذ العربية عن أبيه المستشرق جوزف درنبورغ ففاقه ونشر كثيراً من آثار العرب ككتاب سيبويه مع ترجمته إلى الفرنسية وترجم إلى لغته أيضاً أُسامة بن منقذ ، وجدد طبع تاريخ الطقطقي المعروف بالفخري ونشر عام 1904 نقده وملاحظاته على مخطوطات مكتبة مدريد العربية . تُوفي سنة 1908 وعمره 64 سنة . وكان عضواً شرفياً في المجمع العلمي التاريخي الإسباني في مدريد .

الغزّال (محمد بن الهدي)

تُوفي 1911

هو أبو العباس أحمد بن المهدي بن عيسى الغزّال الفاسي الأندلسي . كاتب أسرار السلطان مولاي محمد بن عبد الله وسفيره إلى كارلص الثالث ملك إسبانيا 1765-

1766م لدرس وتوقيع معاهدات صلح وافتكاك ما بقي من أسرى المسلمين . فقام برسالته خير قيام ، وكتب رحلته تحت عنوان : (نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد) وتعرف رحلته أيضاً (بالرحلة الإسبانية) كما سبقنا بتعريفها بالمقدّمة وهذه الرحلة من الآثار التاريخية النفيسة ، فيها كثير من القضايا والأحداث التاريخية الهامة والأوصاف والشروح والملاحظات الدقيقة . وتقوم الآن مؤسسة الجنرال فرنكو بتنقيحها وضبطها ونشرها .

غرسيا فيغيراس (توماس)

كاتب وأديب إسباني ، بحّاثة ومؤرّخ إفريقي ، عالم بالشؤون والعاديات المغربية له مؤلفات جليلة ، وأبحاث ومقالات في المجلات والصحف الإسبانية تشهد له بثقافة عالية ومقدرة وطول باع في العلوم والشؤون المغربية . كان لكتابه الأخير (المغرب) (Marruecos) شأن عظيم في الميدان التاريخي ، فتلقته الأندية الثقافية بكثير من التقدير والتقريظ . وهو يشغل اليوم وظيفة نائب عام المفوضية السامية الإسبانية في المغرب .

فمع كثرة أشغاله السياسية والإدارية لا ينثني عن التأليف والبحث ، فينشئ ويكتب ويؤلف وينشر بعزيمة لا تعرف الكلل .

وتقديراً لخدماته الثقافية الجليلة قلّد منصب مديرية (مؤسسة الجنرال فرنكو) للتأليف والنشر والأبحاث العربية الإسبانية فظهرت مقدرته الفائقة بما قامت به هذه المؤسسة العلمية من تآليف وأبحاث وترجمة ونشر تحت رمز شعارها (عملنا ولم نتكلم) .

سوفير (هنري)

تُوفي 1896

مستعرب فرنسي كان قنصلاً لدولته في بيروت فاجتمع بأدبائها وأخذ عنهم ، له تآليف شرقية جليلة منها كتاب في المقاييس والموازين العربية وكتاب عيون التواريخ لمحمد بن شاكر ، ونشر تاريخ مدارس دمشق ونقل إلى لغته تاريخ القدس والخليل

ورحلة السفير المغربي ، وغير ذلك من الأعمال الثقافية الهامة . كان يتردد كثيراً إلى إسبانيا بقصد المراجعة والاستفادة من مكتبة مدريد الأهلية ومن مكتبة الاسكريال الشهيرة .

اسكندر (البابا)

تُوفي 1691م .

هو البابا اسكندر الثامن من البندقية اعتلى السدة البطرسيَّة سنة 1689 تُوفي 1691 .

انوسنسيوس (البابا)

تُوفي 1700

هو البابا انوسنسيوس الثاني عشر النابولي انتخب رأساً للكنيسة الكاثوليكية سنة 1691 تُوفي 1700 .

القادري (محمد بن الطيّب)

1144-1178هـ

هو محمد بن الطيب الحسني القادري كان جليلاً فاضلاً أديباً مؤرّخاً واسع الاطلاع عالماً تقيّاً صوفياً مشهوراً له مؤلفات جليلة منها : نشر المثاني (في تاريخ المغرب) .

كارلص الثالث

1716- 1788م .

كارلص بن فيليب الخامس من السلالة البُربونيّة ، كان إدارياً عالماً بالشؤون التجارية عزّز التجارة مع أميركا والمستعمرات الإسبانية كما عزز في بلاده الصناعة والثقافة والفنون الجميلة ، وحفظ بدقة وسياسة حياد إسبانيا في حرب فرنسا وإنكلترا سنة 1787م .

الكتاني محمد بن جعفر

تُوفي سنة 1345هـ ، 1926- 27م

محمد بن جعفر الحسني الإدريسي من عيون علماء فاس وسراتها الأمجاد ، كان متضلّعاً من علم الحديث بصيراً بمعانيه ، وكان أديباً مؤرخاً فاضلاً جليلاً ، ذهب إلى الشرق وسكن دمشق الشام ، رجع إلى المغرب قبل وفاته بسنة ، له تآليف قيمة منها : (سلوة الأنفاس) .

كيّانكوس (بسكوال)

1809- 1897م .

مستعرب وعالم إسباني له شهرة واسعة ، ولد في إشبيلية سنة 1809 قدم لندن وصنف فيها تآليف مختلفة اشتهر منها تاريخه للدول الإسلامية في إسبانيا ، وترجمته لتاريخ المقّري (نفح الطيب) في مجلدين ضخمين ووصف آثار الحمراء وكتاباتها . ونشر أيضاً عدة مقالات وأبحاث قيّمة في مواضيع عربية ، كان مولعاً بجمع المخطوطات العربية . تُوفي في لندن سنة 1897م .

بوسكاماتا (ميشال)

طبّاع فنّان ، صاحب مطابع الفنون المصورة في العرائش (المغرب) عرفت مطابعه بالنظافة والإتقان واشتهرت مؤخراً بطبع المؤلفات العربيّة التي نشرتها مؤسسة الجنرال فرنكو للأبحاث العربية - الإسبانية .

مولاي محمد (ابن عبد الله)

تُوفي عام 1204

هو الخامس من السلالة العلوية الشريفة ، بُويع بعد وفاة والده ولم يتوقف في بيعته أحد ، مصّر الأمصار المغربيّة ونظّم الضرائب ووضع المكوس . أتى إلى غمارة فقتل أبا الصخور الخمسي ، ثم جاء تطوان عام 1177هـ وبنى برج مرتيل ، كان يراسل ملوك إسبانيا بشأن عقد معاهدات سياسية وافتكاك الأسارى المسلمين . أنقذ الجديدة من

البرتغال سنة 1182هـ ، ضرب الحصار على مليلية ثم رجع عنها سنة 1184 تُوفي سنة 1204 ودفن برباط الفتح ، ضريحه مشهور .

هنريكس الثامن

1509- 1547م .

ملك إنكلترا ، انفصل عن الكنيسة الكاثوليكيّة وأسس المذهب الانكليكاني ، كان عالماً مثقفاً عزز الآداب والفنون في مملكته غير أنه كان سفّاحاً فجوراً ، تزوّج من ست نساء .

المحتويات

٢٦

هذه الرحلة

تتمتع هذه الرحلة بقيمة استثنائية بين مثيلاتها. فهي تاريخياً تأتي بعد 50 سنة من رحلة أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي الموضوعة سنة 1641، لكنها أهم من سابقتها، لما جاء فيها من صور وانطباعات عن الحياة الإسبانية في القرن السابع عشر، تفوق في أهميتها ما سطره حتى الأوربيون في هذا الميدان، فضلاً عن قيمتها الرمزية؛ فهي رحلة وزير مغربي سافر إلى اسبانيا ليفاوض الملك كارلوس الثاني، وفي جعبته مطلبان: تحرير مكتبة من المخطوطات العربية تقدر بخمسة آلاف كتاب، وإطلاق سراح خمسمائة أسير مسلم، في فترة شهدت حروباً متصلة بين الإسبان والمغاربة، واضطهادات للأندلسيين المتنصرين (الموريسكيين)، دامت لأكثر من قرن ونصف القرن بعد سقوط غرناطة آخر ممالك المسلمين في الأندلس.

نص وثائقي نادر عن الآخر وعالمه، يبتعد عن كل تلفيق أو تذويق، ويتميز صاحبه بأمانة كبيرة وروح منفـ [illegible] عصبية من الصداع مع الغرب، سادت أوروبا التعصب الأعمى.

ارتياد الآفاق

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

دار السويدي للنشر والتوزيع